مجلة تدبر

مجلة دورية علمية محكمة تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة

العدد الأول السنة الأولى محرم ١٤٣٨هـ الموافق أكتوبر ٢٠١٦م

﴿كتب أنزلنه إليك مبرك ليدبروا ءايته وليتذكر أولوا الألبب﴾ (ص: ٢٩)



موضوعات العدد:

مجلة تدبر

مجلة دورية علمية محكمة تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات المتصلة بتدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة

العددُ الأوّل السَّنَة الأُولى مُحَرَّم ١٤٣٨هـ المُوافِق أُكتوبر ٢٠١٦م



التصميم الداخلي للمجلة

Tharwat Sultan

مجلة تدبر

ص٤٠٠؛ ١٧×٢٤سم

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٥٨٨٣

بتاريخ: ١٤٣٨/٦/٢٤

ردمد: ١٦٥٨-٧٦٤٢

مجلة تدبر

سعر المجلة (٢٠ ريالاً سعودياً أو ما يعادلها)

المجلة مصرحة من وزارة الثقافة والإعلام بالمملكة العربية السعودية بالرياض

برقم ٣٧٠٨ وتاريخ ٠٤/ ٠٣/ ١٤٣٧هـ

للمراسلات والاشتراكات

جميع المراسلات وطلبات الاشتراك باسم:

رئيس التحرير

للمراسلة:

البريد الإلكتروني: tjs@tadabbor.com

جوال وواتس أب: ٩٦٦٥٠٣٠٧٢٣٣٣+

جوجل بلس، تويتر، فيسبوك، انستجرام، تليجرام: @tjstadabbor

الموقع الإلكتروني: /http://tjs.tadabborq.com

المواد العلمية المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة تدبر

دورية علمية محكَّمة، تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات العلمية المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة.

الرؤية:

أن تكون المجلة خيار الباحثين الأول لنشر بحوثهم في تدبر القرآن الكريم.

الرسالة:

أن تكون وعاءً علميًّا محكَّمًا للباحثين لنشر أعمالهم العلمية في تدبر القرآن الكريم وما اتصل به وفق معايير مهنية عالمية للنشر.

الأهداف:

- **تشجيع** البحث العلمي المتصل بتدبر القرآن الكريم.
- **نشر** البحوث العلمية والدراسات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.
- **تحقيق التواصل العلمي** بين المعنيين بالدراسات القرآنية من خلال تبادل الخبرات.
- **فتح آفاق جديدة** للبحث العلمي المتخصص في مجالات تدبر القرآن.

مجالات النشر في المجلة

أولًا: البحوث والدراسات في مجالات تدبر القرآن الكريم:

- التأصيل العلمي في تدبر القرآن الكريم.
- الموضوعات القرآنية.

* المقاصد القرآنية.
* الإعجاز القرآني.
* البلاغة القرآنية.
* تعليم تدبر القرآن الكريم.
* الاستنباط من القرآن الكريم.

ثانيًا: تقارير الملتقيات والمؤتمرات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.

ثالثًا: ملخصات الرسائل العلمية المتميزة في المجالات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.

رابعًا: ما تطرحه هيئة التحرير من قضايا تستكتب فيها المتخصصين في المجالات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.

قواعد ونشر وط النشر

أولًا: طبيعة المواد المنشورة:

تهدف المجلة إلى إتاحة الفرصة للباحثين في جميع بلدان العالم لنشر إنتاجهم العلمي في مجال تدبر القرآن الكريم، الذي تتوافر فيه الأصالة والجدة، وأخلاقيات البحث العلمي، والمنهجية العلمية.

وتقوم المجلة بنشر المواد التي لم يسبق نشرها باللغة العربية، وتقبل المواد في أي الفئات التالية:

- البحوث الأصيلة.
- المراجعات العلمية.
- مستخلصات الرسائل العلمية المتميزة.
- تقارير الملتقيات والمؤتمرات العلمية.

ثانيًا: إرشادات للباحثين لتقديم بحوثهم:

١. لا يتجاوز عدد صفحات البحث (٥٠) صفحة مقاس (١٧×٢٤) متضمنة الملخصين العربي والإنجليزي، والمراجع، ولا يقل عن (٢٥) صفحة.

٢. هوامش الصفحة تكون ٢ سم من (أعلى، وأسفل، ويمين، ويسار)، ويكون تباعد الأسطر مفردًا.

٣. يستخدم خط (Lotus Linotype) للغة العربية بحجم (١٦)، وبحجم (١٢) للحاشية والمستخلص، وبحجم (١١) للجداول والأشكال.

٤. يستخدم خط (Times New Roman) للغة الإنجليزية بحجم (١٢)، وبحجم (١٠) للحاشية والمستخلص والجداول والأشكال.

٥. تكتب الآيات القرآنية وفق المصحف الإلكتروني لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بحجم (١٦) بلون عادي (غير مسوَّد).

٦. توضع حواشي كل صفحة أسفلها على حدة، ويكون ترقيم حواشي كل صفحة مستقلًا، وتضبط الحواشي آليًّا لا يدويًّا.

٧. تكتب بيانات البحث باللغتين العربية والإنجليزية، وتحتوي على: (عنوان البحث، اسم الباحث والتعريف به، بيانات التواصل معه، عناوين رسائله العلمية).

٨. لا يتجاوز عدد كلمات المستخلص (٢٥٠) كلمة، ويتضمن العناصر التالية: (موضوع البحث، وأهدافه، ومنهجه، وأهم النتائج، وأهم التوصيات) مع العناية بتحريرها بشكل دقيق.

٩. يُتبع كل مستخلص (عربي/ إنجليزي) بالكلمات الدالة (المفتاحية) المعبرة بدقة عن موضوع البحث، والقضايا الرئيسة التي تناولها، بحيث لا يتجاوز عددها (٦) كلمات.

١٠. سلامة البحث من الأخطاء اللغوية والنحوية.

عَنَاصِرُ البَحْثِ

يَنْظِمُ البَاحِثُ بَحْثَه وَفْقَ مُقْتَضَيَاتِ (مَنْهَجِ البَحْثِ العِلْمِيّ) كَالتَّالي:

١- كتابة مقدمة تحتوي على: (موضوع البحث، وحدوده، وأهدافه، ومنهجه، وإجراءاته، وخطة البحث).

٢- تبيين الدراسات السابقة - إن وجدت - وإضافته العلمية عليها.

٣- تقسيم البحث إلى أقسام (مباحث) وفق (خطة البحث)، بحيث تكون مترابطة.

٤- عرض فكرة محددة في كل قسم (مبحث) تكون جزءًا من الفكرة المركزية للبحث.

٥- يكتب البحث بصياغة علمية متقنة، خالية من الأخطاء اللغوية والنحوية، مع الدقة في التوثيق.

٦- كتابة خاتمة بخلاصة شاملة للبحث تتضمن أهم (النتائج) و(التوصيات).

٧- كتابة الحاشية السفلية يكون بذكر (عنوان الكتاب، واسم المؤلف، والجزء/ الصفحة) حسب المنهج العلمي المعمول به في توثيق الدراسات الشرعية واللغة العربية.

مثال: لسان العرب، لابن منظور (٢/ ٢٣٣).

أما الآية القرآنية: فيشار إليها في المتن فقط باسم السورة يتبعه نقطتان: ثم رقم الآية [النساء: ٥٥].

❁ يُوَثِّقُ البَاحِثُ المَرَاجِعَ فِي نِهَايَةِ البَحْثِ حَسَبَ النِّظَامِ التَّالِي:

١- إذا كان المرجع (كتابًا): («عنوان الكتاب». فالاسم الأخير للمؤلف (اسم الشهرة)، فالاسم الأول والأسماء الأخرى، فاسم المحقق - إن وجد-، فبيان الطبعة، فمدينة النشر، فاسم الناشر، فسنة النشر).

مثال: «الجامع الصحيح». الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. تحقيق: أحمد محمد شاكر، وآخرين. ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٤م.

٢- إذا كان المرجع (رسالة علمية لم تطبع): («عنوان الرسالة». فالاسم الأخير للباحث (اسم العائلة)، فالاسم الأول والأسماء الأخرى. فنوع الرسالة (ماجستير/ دكتوراه)، فالمكان: فاسم الكلية، فاسم الجامعة، فالسنة).

مثال: «يعقوب بن شيبة السدوسي: آثاره ومنهجه في الجرح والتعديل». المطيري، علي بن عبد الله. رسالة ماجستير، السعودية: كلية التربية، جامعة الملك سعود، ١٤١٨هـ.

٣- إذا كان المرجع (مقالًا من دورية): («عنوان المقال»، فالاسم الأخير للمؤلف (اسم العائلة)، فالاسم الأول والأسماء الأخرى، فاسم الدورية، فالمكان، فرقم المجلد (رقم العدد)، فسنة النشر، فالصفحة من ص... - إلى ص...).

مثال: «الإمام عفان بن مسلم الصفار ومنهجه في التلقي والأداء والنقد». المطيري، علي بن عبد الله. مجلة جامعة القصيم: العلوم الشرعية، القصيم. م (٣)، (١)، ١٤٣١هـ، ٣٥ - ٨٥.

٤- هذا بالإضافة إلى ذكر بعض الاختصارات إن لم يوجد لها أي بيان في بيانات المرجع، وهي كالتالي:

* بدون اسم الناشر: (د. ن).
* بدون رقم الطبعة: (د. ط).
* بدون تاريخ النشر: (د. ت).

يوثق الباحث المراجع في نهاية البحث حسب النظام التالي:

١ - **إرسال البحث لموقع المجلة** يُعد تعهدًا من الباحث بأن البحث لم يسبق نشره، وأنه غير مقدم للنشر، ولن يقدم للنشر في جهة أخرى حتى تنتهي إجراءات تحكيمه في المجلة.

٢ - **لهيئة تحرير المجلة** حق الفحص الأولي للبحث، وتقرير أهليته للتحكيم، أو رفضه.

٣ - **يطلع الباحث على خلاصة تقارير المُحكّمين** ليعدل بحثه وفقها، ويبين رأيه فيما لا يؤخذ به من أقوالهم، وتحسم الهيئة الخلاف بينهما.

٤ - **في حال (قبول البحث للنشر)** يتم إرسال رسالة للباحث بـ(قبول البحث للنشر)، وعند رفض البحث للنشر يتم إرسال رسالة (اعتذار) للباحث.

٥ - **للباحث بعد نشر عمله في المجلة** أن ينشره مرة أخرى بعد مضي ستة أشهر من صدورها، على أن يشير إلى نشره في المجلة.

٦- **إرسال البحث عبر الموقع الإلكتروني للمجلة** يُعد قبولًا من الباحث بـ(شروط النشر في المجلة)، ولهيئة التحرير الحق في تحديد أولويات نشر البحوث.

٧ - **الآراء الواردة في البحوث المنشورة** تعبر عن وجهة نظر الباحثين فقط، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

٨ - **نظام التوثيق المعتمد في المجلة** بالنسبة للمراجع الأجنبية هو نظام (جامعة شيكاغو).

٩ - **في حال (نشر البحث)** يمنح الباحث نسختين من المجلة مع عشر نسخ مستلة من عدد المجلة التي تم نشر بحثه فيها.

المَوادّ العِلمِيّة المنشورة في المجلّة تُعبّر عن آراء أصحابها

الفهرس

مجلة تدبر



افتتاحية العدد

كلمة رئيس التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين أنعم علينا بإنزال القرآن المبين، ودعانا لأن نكون له متدبرين، ولآياته تالين، ولعِبره متذكرين.

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمدٍ الهادي الأمين، الذي قام بالقرآن وكان خيرَ المتأثرين بكلام ربِّ العالمين.

وعلى آله الغُرِّ الميامين، الذين كانوا هُداةً للعالمين، ونشروا القرآن المبين، وكانوا سادة المتدبرين، وعلى منهاجه سالكين، وبهديه مستنيرين.

وبعد:

فإن القرآن هو حجة الله تعالى على المرءِ، حيث بلغه كتاب الله تعالى، ووقف على آياته وتوجيهاته، ولا تزال تلك الحجة قائمة عليه حتى يستجيب لأمر الله تعالى الوارد في آياته، ولن يصل إلى دلالات تلك الآيات ويعرف مضامينها حتى يشغل عقله بتدبرها، ويُعمل ذهنه لاستشراف معانيها، ومعرفة أبعادها ومراميها، وتتبع حكمةِ الله تعالى في آياته وكلماته، ومن خلال ذلك التأمل يشعر المرء بلذة التلاوة وجمال القراءة، ويقف على إبداع النظم وبلاغته، وجمال التوجيه وبراعته، وجمال المقصد وحسنه، فما يملك إلاَّ أن ينقاد إلى أمر الله سبحانه وتعالى في كتابه.

ومن هنا نعلم أن القرآن إنما أنزل لحكمة بالغة، ألا وهي العمل به، ولا طريق إلى ذلك إلاَّ بتدبر آياته، والاشتغال بمعرفة مضامينه، ومن ثم متابعة أوامره، والحذر من الوقوع في نواهيه أو الاقتراب من زواجره، وذلك تأويل قول الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة ص:٢٩].

ونظراً لحاجة الباحثين والعلماء لمجلة علمية متخصصة تسهم في تحكيم ونشر الأبحاث العلمية المتعلقة بمجال تدبر القرآن الكريم.

وإشارة إلى توصية المجامع العلميّة والمؤتمرات والندوات بالحاجة إلى «تأسيس مجلة علمية محكمة متخصصة في النشر العلمي لبحوث تدبر القرآن الكريم»(١).

تمَّ بحمد الله الترخيص من وزارة الثقافة والإعلام بالمملكة العربية السعودية باسم **(مجلة تدبر)** وهي تُعنى بمجالات تدبر القرآن الكريم.

وبين يديكم باكورة أعدادها المباركة؛ وتهدف المجلة إلى تنشيط البحث العلمي، والإسهام في نشر الدراسات والبحوث المعنيّة بالقرآن الكريم وعلومه، مما يثري مكتبة الدراسات القرآنية، ويدعو إلى التواصل العلمي بين المختصين في هذا المضمار.

وتحقيقًا لهذا المقصد، فإنَّ مجال النشر في المجلة يشمل:

* الدراسات والبحوث.
* تحقيق المخطوطات.
* ملخصات الرسائل العلمية المتميزة.
* تقارير المؤتمرات والملتقيات المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم ومتعلقاته.

(١) ومنها: توصية المؤتمر العالمي الأول لتدبر القرآن الكريم في الدوحة في الفترة من ٢٣-٢٥/ شعبان/ ١٤٣٤هـ الموافق ٢-٤/ يوليو/ ٢٠١٣م والتي نصت على ذلك في (تاسعًا).

والأمل معقودٌ عليها بعد توفيق الله تعالى أن تكون لبنةً مباركةً في الدراسات القرآنية؛ محققةً النفع لعموم الأمة، ومرجعًا للباحثين في الدراسات القرآنية والشرعية، وليستفيدوا من الجهود المبذولة في التحكيم والنشر والنقد؛ لتنال أعمالهم الأصالة والتحرير العلمي المنشود.

ويسرني أن أدعو الباحثين المتخصصين أن يسهموا في الكتابة للمجلة بما لديهم من بحوث رصينة، ومقالات علميّة متخصصة. وإثراء المجلة بالجديد والمفيد في مجالاتها، إذ لن يتحقق للمجلة الرقي والتميز إلاَّ بتظافر الجهود بين الباحثين والفاحصين في اختيار الموضوعات وتقويمها، فإن المجلة منهم، ولهم، وبهم. وبتوفيق الله وجهد الجميع يستمر العطاء ويتحقق التميز والارتقاء.

وأدعو الله لهيئة تحرير المجلة بالتوفيق والسداد، وأن يكونوا عند حسن الظنِّ بهم، لما يبذلونه من جهودٍ حثيثةٍ للارتقاء بالمجلة وأبحاثها.

والحمد لله، والشكر له سبحانه، ابتداءً وانتهاءً على التوفيق والسداد.

ثم الشكر لكل من ساهم ودعم بفكره أو ماله أو جهده، والله لا يضيع أجر المحسنين.

رئيس التحرير

أ.د. محمد بن عبد العزيز العواجي

الأستاذ بقسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

مجلة تدبر



أولاً: البحوث



البحث الأول :

إعجاز القرآن عند عبد الحميد بن باديس جمعًا ودراسة

أ. نبيل بن أحمد بلهي

باحث متفرغ بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - الجزائر

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين – جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - الجزائر ، بأطروحته: طعون المعاصرين في أحاديث الصحيحين بدعوى مخالفة القرآن (دراسة نقدية).
- يناقش رسالة الدكتوراه من كلية أصول الدين - جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - الجزائر ، بأطروحته: مسالك نقد المتن عند نقاد الحديث في القرن الثالث الهجري.
- له من الأبحاث: «التعقبات على ما أورده المستشرق شاخت في ترجمة الإمام مالك من دائرة المعارف الإسلامية» (بحث محكم منشور)، «شبهات المعاصرين حول حديث (لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم) - عرض ونقد» (بحث محكم منشور)، «الأسس الأخلاقية لإدارة أجور العمال في السنة النبوية وأثرها في سوق العمل» (بحث محكم منشور)، «تحقيق كتاب (الورع) لعبد الملك بن حبيب الأندلسي ٢٣٨هـ» (قيد الإعداد).

ملخص البحث

لما كان القرآن الكريم معجزة علمية خالدة تَدُلُّ على مصدرِهِ الربَّانِي، اجتهد ابن باديس في استنباط أوجه إعجاز القرآن الكريم أثناء تفسيره، ليعزِّزَ الثقة في نفوس المؤمنين بكتاب الله وعلومه، في زمن شاع فيه الانبهار بحضارة الغرب الماديَّة، فجاء هذا البحث ليجمع ما تناثر من آراء هذا العالم الرباني في إعجاز القرآن ووجوهه مقرونا بأمثلته التطبيقية، وإبراز نظرته المتكاملة إلى هذا النوع من علوم القرآن، وقد اعتمدت لتحقيق ذلك المنهج الاستقرائي التحليلي، حيث استقرأت تفسيره، ثم حلَّلت أفكاره وعباراته المتعلقة بإعجاز القرآن؛ فكان من أهم نتائج البحث: أن ابن باديس كان متذوقا لفنون إعجاز القرآن، ذا نظرة شمولية متَّزِنَةٍ لوجوه إعجازه، قد أحسن توظيف هذا العلم في تربية الأجيال بالقرآن؛ لذلك كان من أهم التوصيات: ضرورة بحث قضية إعجاز القرآن عند العلماء المصلحين من «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» ودورها في النهضة الإسلامية وإصلاح الأمة، فإنَّه جانب مهم لم يعط حقَّهُ من البحث والتحليل.

الكلمات المفتاحية:

ابن باديس، إعجاز القرآن، شروط المعجزة، الإعجاز البلاغي، الإعجاز العلمي.

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فلا زال علماء الإسلام يعتنُون بإبراز وجوه إعجاز القرآن الكريم، ويستخرجون عجائب هذا التنزيل، للدِّلالة على مصدرِهِ الربَّاني، وأنَّه كلام ربُّ العالمين، الذي يَعجز البشر أن يأتوا بمثله في نظمه وبلاغته، وأحكامه وتشريعاته، وأخباره وعلومه، فقد ألَّف علماء الإسلام في ذلك كتبًا صغارا وكبارًا.

وفي العصر الحديث الذي واكب تطورًا صناعيًّا وعلميًّا مذهلًا، كثرتْ الشُّبه والسهام الموجَّهة نحو القرآن الكريم، تَتَّهِمُهُ بالعجز والقصور، فانبرى العلماء المصلحون لبيان دلائل صدق القرآن وإعجازه الشامل، وكثُرَتْ العناية بإبراز وجوهٍ جديدة لإعجازه.

وكان من روَّاد هذا المضمار الإمام المفسِّر عبد الحميد بن باديس الصنهاجي (١٣٠٨هـ - ١٣٥٩هـ)، الذي عايش المرحلة الاستعمارية للبلدان الإسلامية، التي عمَّ فيها الجهل، حتَّى انبهر كثير من المسلمين بالتقدُّم الغربي في ميدان العلوم التجريبية وغيرها، وقلَّ الاعتناء بالقرآن تدبرا وعملا، فتوجهَت الكتابات الإصلاحية في هذا العصر إلى ردِّ الاعتبار للقرآن، وبيان علوِّ منزلته ودلائل صدقه، يظهر ذلك فيما كتبه: محمد رشيد رضا في «تفسير المنار»، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير»، وغيرهما كثير.

ولما كان الشيخ ابن باديس خِرِّيجَ هذه المدرسة الإصلاحية، كان ولا بُدَّ أن يُسْهِمَ في هذا الميدان اتباعًا لأسلافه من المصلحين، إلا أنَّ تفسيره الشفوي

للقرآن المفقود الذي لم يدوَّن منه إلا القليل، قد زَهَّدَ الباحثين في أن يعثروا على مادةٍ علميةٍ متكاملة عن إعجاز القرآن عند هذه الشخصية العلمية الفذَّة، من هذا المنطلق قمتُ باستقراءِ تفسير ابن باديس المطبوع استقراءً تامًّا، مع النظر في كتبه الأخرى[1]؛ فوجدت مادة علمية لا بأس بها في هذا الباب، ووجدتُ له إسهامًا واضحًا في بيان وجوه إعجاز القرآن، يستحقُّ أن يجمع ويُدْرَس، وأن يشاع بين الناس ويُبْرز، فكان هذا البحث بعنوان: «إعجاز القرآن عند عبد الحميد بن باديس (جمعًا ودراسة)».

الدراسات السابقة:

لقد كُتِبَ حول الإمام ابن باديس وشخصيته العلمية كتابات ليست بالقليلة، كلٌّ منها عُنِيَ بجانب من جوانب الجهود العلمية التي قدَّمها، إلا أن الموضوع الذي نحن بصدد الكتابة فيه لم أجد من أفرده بالتتبُّع والدراسة، وهو حَقِيقٌ أن لا يُهمل، فإنَّ موضوع الإعجاز القرآني أصبح مطروحًا بشدَّة في هذا العصر، الذي كثرتْ في التحدِّيات للقرآن الكريم.

وبعد البحث والتنقيب فيما كُتب حول الدرس القرآني عند ابن باديس، تحصَّل عندي بعض الدراسات حول منهجية ابن باديس في تفسيره عمومًا، تناولتْ الجهود التفسيرية لهذا الإمام، وفي ثنايا هذه البحوث، وجدتُ إشاراتٍ إلى اعتناء ابن باديس بإعجاز القرآن العلمي خاصَّة، لكن دون استقراء وتمحيص، وهذه الدراسات هي:

---

(١) مجمل كلام ابن باديس حول إعجاز القرآن في تفسيره، لذلك كانت هذه الدراسة مركزة عليه، وهناك كلام قليل متناثر في كتبه الأخرى مثل: «العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية»، و«مجالس التذكير من أحاديث البشير النذير» أشرت إلى مواضعها في البحث.

أولاً: رسالة ماجستير بعنوان: «منهجية التفسير عند الإمام ابن باديس» من إعداد: عبد الرحيم صالحي، بإشراف: د. محمد مقبول حسين. قدِّمَتْ إلى المعهد الوطني العالي لأصول الدين، جامعة الجزائر، سنة ١٩٩١م. تطرَّق فيها صاحبها إلى دراسة المنهج النقلي والعقلي في التفسير عند ابن باديس، وجعل فصلا في هذا الباب الأخير عن (مظاهر إعجاز القرآن في تفسير ابن باديس) وتكلَّم عن إعجاز الترتيب والمناسبات في مبحث، والإعجاز العلمي في مبحث آخر، ولم يتكلَّم على الوجوه الأخرى لإعجاز القرآن المبثوثة في تفسير الإمام على كثرتها، كما أنَّه أوجز القول في الإعجاز الترتيبي ولم يوضحه بالأمثلة من التفسير، وركَّز على بيان مشروعية التفسير العلمي الذي نهجه ابن باديس.

ثانيًا: كتاب بعنوان: «عبد الحميد بن باديس مفسِّرا» لمؤلفه: حسن عبدالرحمن سلوادي. تعرَّض المؤلف فيه إلى الصور العامة لتفسير ابن باديس (من الناحية العقدية، ومن الناحية الفقهية) وفي آخره فصل بعنوان: «الصور العامة لتفسير ابن باديس»، تكلَّم على التفسير العلمي عند الشيخ، المرتبط بالإعجاز العلمي للقرآن عنده، من دون أن يعرِّج على وجوه الإعجاز الأخرى التي ذكرها الشيخ، ولا بيان التصوُّر العام لنظرية الإعجاز القرآني عند ابن باديس.

أما هذا البحث فمن شأنه أن يستقرئ وجوه إعجاز القرآن التي ذكرها ابن باديس في تفسيره وبعض مقالاته، مع ذكر التأصيل العلمي لها وأمثلتها في ثنايا تفسيره للقرآن، ثم مقارنتها بكلام غيره من العلماء، خاصَّة الذين تأثَّر بهم كمحمد رشيد رضا، والطاهر بن عاشور.

كما يهدف هذا البحث إلى إبراز النظرة الشمولية لإعجاز القرآن عند ابن باديس، وتوظيفه إيَّاها في تربية الأمة وإصلاح الأجيال ومدى أهميته في هذا

المجال، علاوة على بيان جهود ابن باديس في ميدان إعجاز القرآن ووجوهه، حيث خَلَتْ معظم الكتب المعاصرة من الإشارة إلى جهوده واختياراته في هذا المجال.

وقد سلكتُ لتحقيق هذا الغرض خطة علمية هذا هو بيانها:

خطة البحث:

* **المقدمة**: إشكالية البحث، والدراسات السابقة، وأهميته، وأهدافه.
* **المبحث الأول: ابن باديس ونظرته العامة لإعجاز القرآن.**
  - المطلب الأول: نبذة عن حياة ابن باديس.
  - المطلب الثاني: التعريف بتفسير ابن باديس.
  - المطلب الثالث: معنى معجزات الأنبياء عند ابن باديس.
  - المطلب الرابع: شمولية نظرية إعجاز القرآن عند ابن باديس.
* **المبحث الثاني: أوجه إعجاز القرآن التي أبرزها ابن باديس.**
  - المطلب الأول: الإعجاز اللغوي والبلاغي للقرآن
  - المطلب الثاني: الإعجاز الغيبي للقرآن.
  - المطلب الثالث: الإعجاز في ترتيب نزول القرآن (الإعجاز النظمي)
  - المطلب الرابع: الإعجاز التشريعي.
  - المطلب الخامس: الإعجاز العلمي للقرآن.
* **الخاتمة: نتائج البحث وتوصياته.**

المبحث الأول

ابن باديس ونظرته العامة لإعجاز القرآن

المطلب الأول

نبذة عن حياة ابن باديس

هو الإمام العلَّامة الرئيس عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكِّي بن باديس الصنهاجي نسبًا، الجزائري موطنا. ينتهي نسبه إلى المعزِّ بن باديس مؤسس الدولة الصنهاجية الأولى، ولد ابن باديس بمدينة (قسنطينة) في ١٠ ربيع الثاني سنة ١٣٠٨هـ، الموافق لـ ٤ ديسمبر ١٨٨٩م.

حفظ القرآن الكريم قبل الثالثة عشر على يد شيخه (المدَّاسي)، وأخذ مبادئ العلوم الشرعية والعربية في محلَّتِهِ فكان من أبرز شيوخه هناك حمدان الونيسي، ثم سافر إلى جامع الزيتونة ليتتلمذ على خِيرة علمائها: كالشيخ محمد النخلي، والشيخ الطاهر بن عاشور؛ حيث نال هناك شهادة التطويع (العالمية) سنة ١٩١١م.

وفي سنة ١٩١٣م ذهب الشيخ إلى أرض الحجاز حاجًّا، والتقى هناك بابن بلده (البشير الإبراهيمي) واتفقا هناك على مباشرة العمل الإصلاحي في الجزائر بعد تخطيط طويل، فلمَّا رجع إلى وطنه باشر التعليم في الجامع الأخضر (بقسنطينة)، فختم هناك القرآن تدريسا في ربع قرن (٢٥ سنة). كما أتم هناك شرح موطأ مالك بن أنس، كما درَّس كتاب الشفا للقاضي عياض.

وكان له الفضل في تأسيس جمعيات ودور للحديث والقرآن، كجمعية التربية والتعليم، ودار الحديث في (تلمسان)، هدفها نشر العلم الشرعي المستمدِّ من الكتاب والسنة، بعيدا عن التعصُّب المذهبي والخرافات الشركية المنتشرة في ذلك الوقت.

وقد أثمرت هذه الدعوة الإصلاحية فتخرج على يديه تلاميذ كثر، من أبرزهم: الشيخ مبارك الميلي، صاحب كتاب «رسالة الشرك ومظاهره»، وأحمد حماني، ومحمد الصالح رمضان، الفضيل الورتيلاني، وغيرهم كثير.

أصدر عدَّة جرائد تُعْنى بالإصلاح أشهرها (المنتقد، الشهاب، السنَّة، الشريعة، الصراط، البصائر).

وفي سنة ١٩٣١م أسَّس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» مع ثلَّة من إخوانه المصلحين، وانتُخِبَ رئيسا لها.

وكان ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ على مذهب السلف وعقيدة أهل السنة والجماعة، فعمل على محاربة الخرافة ورد الاعتبار للوحيين، وتربية الأمة بالقرآن والسنن؛ فوجد تضييقا شديدا من السلطات الاستعمارية الفرنسية التي أحسَّت بخطر الوعي الذي ينشره؛ فصادرت بعض مجلاته وأوقفتها، وأصدرت قوانين منع تدريس اللغة العربية، فتصدَّى لهم ابن باديس بقلمه وخطبه، وظلَّ محاربا لخططهم التغريبية حتى وافاه الأجل، فكان له ما أراد حيث قامت دعوة إصلاحية كبيرة عمَّت معظم ربوع الوطن، مهدت لثورة مجيدة دحرت الاستعمار وأخرجته يجر أذيال الهزيمة، ولا يزال أثره في وطنه وإصلاح الأوضاع إلى يوم الناس هذا.

من جميل شعره بيتان شعريان من أشهر ما أثر عنه يقول فيهما:

شَعْبُ الجَزَائِرِ مُسْلِمُ ... وَإِلَى العُرُوبَةِ يَنْتَسِبْ

مَنْ قَالَ حَادَ عَنْ أَصْلِهِ ... أَوْ قَالَ مَاتَ فَقَدْ كَذَبْ

توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد حياة حافلة بالجدِّ والنشاط، وبعد أن تخرَّج على يديه ثلَّة من الرجال المصلحين، وذلك يوم: ٨ ربيع الأول ١٣٥٩هـ، الموافق لـ١٦/ ٤/ ١٩٤٠م[١].

وقد خلَّف آثارا في هذا المجال، نذكر منها بعض ما وصلنا منها:

١ - **التفسير**: «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير».

٢ - **شرح الحديث**: «مجالس التذكير من حديث البشير النذير».

٣ - **العقائد الإسلامية** من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

٤ - **تحقيق كتاب «العواصم من القواصم»** لابن العربي.

(١) انظر ترجمة ابن باديس في: معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض (١/ ٢٨ - ٢٩). الأعلام، خير الدين الزركلي (٣/ ٢٨٩). معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة (٥/ ١٠٥). ابن باديس حياته وآثاره (آثار ابن باديس)، عمّار طالبي (١/ ٧٢ - ٩٥). عبد الحميد ابن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، مازن مطبقاني (ص٢٧ - ٣٦).

المطلب الثاني

التعريف بتفسير ابن باديس

لقد ذكرت المصادر أن ابن باديس لم يكتبْ تفسيرًا محرَّرًا لكتاب الله، وأما الكتاب الذي هو بين أيدينا اليوم، والموسوم بـ: «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير» هو في الحقيقة مقتطفات من تفسيره الشفوي الذي أملاه على طلبته في دروس المسجد، طلبته في دروس المسجد، ثم أُلْهِمَ كتابة مجالس معدودة من تلك الدروس في فواتح أعداد مجلة الشهاب مسميا إياها مجالس التذكير.

والسبب في عدم كتابة ابن باديس لتفسيره أنَّه آثر المنفعة العاجلة بتفسيره دَرْسًا تسمعه الجماهير في المسجد، لتربية الجيل وإصلاحه من خلال هدايات القرآن الكريم، فمكث رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير كتاب الله تدريسًا نحوًا من خمس وعشرين سنة حتَّى ختمه سنة (١٣٥٧هـ)، ولقد وضَّح صديقه العلَّامة: محمد البشير الإبراهيمي ذلك فقال: «كان للأخ الصديق عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذوقٌ خاصٌ في فهم القرآن، كأنَّه حاسَّة زائدة خُصَّ بها، يرفده - بعد الذكاء المشرِق والقريحة الوقَّادة والبصيرة النافذة - بيانٌ ناصعٌ، واطلاعٌ واسع، وذرعٌ فسيحٌ في العلوم النفسية والكونية، وباعٌ مديد في علم الاجتماع، ورأي سديدٌ في عوارضه وأمراضه...

وكان يرى - حين تصدَّى لتفسير القرآن - أنَّ في تدوين التفسير بالكتابة مشغلةٌ عن العمل المقدَّم وإضاعة لعمر الضلال، لذلك آثر البدءَ بتفسيره درسًا تسمعُهُ الجماهير فتتعجَّل من الاهتداء به ما يتعجَّلُهُ المريض المنهَك من الدواء، وما يتعجَّلُه المسافر العجلان من الزاد، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستطيع أن يجمع بين الحسنيين لولا أنَّه كان مشغولًا مع ذلك بتعليم جيلٍ وتربية أمَّة، ومكافحة أميَّة، ومعالجة

أمراض اجتماعية، ومصارعة استعمار يؤيِّدها، فاقتصر على تفسير القرآن درسًا ينهل منه الصادي، ويتزود منه الرائح والغادي، وعكف عليه إلى أن ختمَهُ في خمسٍ وعشرين سنة، ولم يختم التفسير درسًا ودراية بهذا الوطن غيره منذ ختمه أبو عبد الله الشريف التلمساني في المائة الثامنة»[١].

ومع هذا فإن القطعة الموجودة من هذا التفسير التي طبعت مؤخرا في مجلدين[٢]، أبانتْ عن ملكة عظيمة في تفسير كتاب الله، وعن أسلوب بديع لابن باديس في تدبر القرآن واستنباط المعاني الحيَّة التي تبعث الروح في جسد الأمة، على طريقة العلماء المجتهدين في تفاعلهم مع كتاب الله، واستنباط الأسرار الكونية والهدايات الربانية[٣].

وخلاصة القول في تفسيره هذا أنه تفسير أثري إصلاحي، انتهج فيه ابن باديس طريقة تفسير القرآن بالقرآن، والسنة الصحيحة، وأقوال الصحابة والتابعين، ثم التوسع في المعاني اللغوية والنكت البلاغية لآي التنزيل، مع الحرص على إنزال هذه المعاني والهدايات القرآنية على الواقع لإصلاحه وعلاج المشكلات التي يعاني منها الفرد المسلم في مجتمعه، ومن حسن صنيعه أنه كان يبوِّب لكلامه ولا يستطرد في الكلام من غير بيان لاتجاهه، فيقول مثلا: (بيان القرآن للقرآن)، أو (تفسير نبوي)، أو (بيان وتوجيه)، أو (التراكيب)، أو (الأحكام)، ثم يذكر تحت الباب ما فتح الله عليه باختصار أحيانا، وبإسهاب أحيانا أخرى، كما كانت له عناية ظاهرة بعلم المناسبات بين الآيات وتوجيه ذلك، واستنباط الأحكام العقدية

---

(١) آثار محمد البشير الإبراهيمي (٢/ ٢٥٢).

(٢) هي الطبعة التي اعتنى بها الفاضل: أبو عبد الرحمن المحمود، والتي صدرت عن دار الرشيد بالجزائر، ودار ابن حزم ببيروت، سنة (١٤٣٠هـ).

(٣) انظر، اتجاهات التفسير في العصر الراهن، عبد المجيد المحتسب (ص٢٧٧ - ٢٧٩). تفسير عبد الحميد بن باديس منهجه وخصائصه، باي زكوب عبد العالي (ص١١٦) فما بعدها.

والفقهية والتربوية.

وقد اعتمد في تفسيره هذا على عدَّة كتب كانت مصادر لتفسيره، أهمها: تفسير ابن جرير الطبري، «أحكام القرآن» لابن العربي، تفسير «الكشاف» للزمخشري، «مفاتيح الغيب» للرازي، وغيرها، ينهل من كل تفسير أحسن ما تميز به مؤلفه، كما نجد له تأثرا واضحا بطريقة محمد رشيد رضا في تفسيره «المنار»، وإن لم يعتمده كمرجع أساس؛ لأنه لم يكمل بعد في وقته[1].

(١) انظر، محاضرات ومقالات العلاَّمة أحمد حماني، عبد الرحمن دويب (٣/ ١٥٦).

المطلب الثالث

معنى معجزات الأنبياء عند ابن باديس

لقد جرى ابن باديس مجرى العلماء قبله - في بيان معنى معجزة الأنبياء - بكونها: «أمرٌ خارق للعادة مقرونٌ بالتحدي سالم من المعارضة»(١)، يجريه الله على يدي نبي من أنبيائه تأييدًا له. ففي معرض كلامه على معجزات الرسل، ساق كلاما يُلْمِحُ فيه إلى شروط المعجزة عنده وبيان حدِّها، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما أرسل الله الرسل لهداية خلقه وإقامة حجَّته أيَّدهم بالبينات، وهي كلُّ ما تبيَّن به الحقُّ من كمال سيرتهم في قومهم ووضوح بيانهم وقوَّة حجتهم، وأيَّدهم بالآيات المعجزات الخارقة للعادة المعجوز عن معارضتها، فكانوا يدْعُون الخلق بالحجج والبراهين، فإذا سألوهم آية ردُّوا الأمر إلى الله وتبرؤوا من أن يكون لهم معه تصرُّفٌ في الكون حتَّى يأتوا بالآيات؛ فيعطيهم الله الآيات تأييدًا لهم وتخويفا لقومهم فيخضع قوم فيؤمنون، ويستمرُّ الأكثرون على العناد فتحقُّ عليهم كلمة العذاب»(٢).

كما بيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الغرض من إجراء هذه المعجزات على أيدي الأنبياء، هو تأييد رسله بالبينات، وإظهار عجز مخالفيهم، فليست المعجزة ابتكارا من عندهم، بل هي آية ينزلها الله لنصرة أنبيائه، لذلك كان الأنبياء إذا سُئِلوا تنزيل بعض الآيات، تبرؤوا من قدرتهم على ذلك، وأخبروا أنَّها من فعل الله عَزَّوَجَلَّ المتعلِّق بمشيئته.

يقول ابن باديس: «وإذا قرأتَ ما قصَّهُ علينا القرآن العظيم من مواقف الأنبياء في دعوتهم لأقوامهم؛ رأيت كيف أنهم كانوا يدْعون الناس بالحجج والبراهين، والأدلة

(١) انظر، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي (٥/ ١٨٧٣).
(٢) العقائد الإسلامية، ابن باديس (ص٨٨ – ٨٩).

العقلية الجليَّة، وأنهم كانوا إذا سُئِلوا الآيات المعجزات الخارقة للعادة رَدُّوا الأمر إلى الله، ونفوا أن تكون لهم قدرة على الإتيان بها إلا بإذن الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَـٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١١]؛ فيظهِرُ الله على أيديهم الآيات تأييدًا لهم وتخويفًا لأقوامهم، وقطعًا لمشاغبتهم، فيخضع لها بعضهم، ويستمرُّ الأكثرون على العناد، فما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطاه الله من الآيات والمعجزات ما مثله في وضوحه وظهوره، والعجز عن معارضته ما يؤمن عليه العباد، ويتفقون عليه لولا ما يصدُّهم عنه من العناد، وهو معنى قوله - صلى الله عليه وآله وسلم -: (مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ)[(١)]»[(٢)].

من خلال ما سبق نستطيع أن نقول إن معنى المعجزة عند ابن باديس يتضمن ثلاثة أشياء[(٣)]:

- **١- أمر خارقٌ للعادة:**

فلا بدَّ أن تكون المعجزة خارجة عمَّا أَلِفَهُ الناس حتَّى يذعنوا لها ويصدِّقُوا صاحبها.

- **٢- العجز عن معارضتها:**

فمن شرط المعجزة السلامة من المعارضة، فلا يستطيع أحدٌ الإتيان بمثلها، إذ لو جاء بمثلها أحدٌ لم تصلح أن تكون معجزة.

- **٣- لا يقدر النبي على الاتيان بها إلا بإذن الله:**

فالمعجزة لا يدَّعِي النبيُّ التصرُّفَ فيها بنفسه، بل يعلِّقها بإذن الله ومشيئته، فلا يستطيع الإتيان بها إلا أن يأذن له ربه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب: كيف كان نزول الوحي وأول ما نزل، برقم (٤٦٩٦). ومسلم: كتاب الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس، برقم (٢٣٩).

(٢) آثار ابن باديس، جمع: عمار طالبي (٢/ ٢٢٤).

(٣) انظر، إعجاز القرآن، د. فضل حسن عباس و د. سناء فضل عباس (ص٢٠ - ٢١).

المطلب الرابع

شمولية نظرية إعجاز القرآن عند ابن باديس

يرى الشيخ ابن باديس أن المعجزة القرآنية معجزة علمية خالدة لا تختصُّ بزمنٍ دون زمن، كما لا تختصُّ بوجه واحدٍ من وجوه الإعجاز، بل هي معجزة علمية عقلية باهرة من حيث: الأسلوب والمعنى والبلاغة، والتشريع الذي يضمن سعادة البشر، والعلوم الكونية التي دلَّ عليها القرآن قبل أن تكتشف، كما يرى أنَّ التحدِّي بهذه المعجزة باقٍ مستمر ما بقي القرآن الكريم، وهذا بعكس آيات الأنبياء من قبل؛ كانت معجزات كونية لا يشهدها إلا من حضرها، يقول ابن باديس في هذا الصدد:

«**آيات الرسل - صلوات الله عليهم - كانت معجزات كونية لا يشهدها إلا من حضرها**، ثم تبقى أخبارا يمكن للجاحد إنكارها، ويتأتَّى للمشاغب أن يصنع من الخزعبلات والمخارق ما يموِّهُ به على ضعفة العقول ويدَّعي مُمَاثلتها، وآية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وهي القرآن العظيم معجزةٌ علميةٌ عقليةٌ يخضع لسلطانها كلُّ من يسمعها ويفهمها ولا يستطيع معارضتها، لا في لفظها وأسلوبها وبيانها الذي عجزت عن معارضة أقصر سوره العرب، على ما كان من حمِيَّتها وأنفتها وشدَّة رغبتها في إبطالها لو وجدت سبيلا إليها فقط - بل لا تستطاع معارضتها فيما اشتملت عليه من أصول العلوم التي يحتاج إليها البشر في كمالهم وسعادتهم أفرادا وجماعات وأمما، وما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة والحكم الباهرة في كلِّ ما دعتْ إليه، إلى ما اشتملت عليه من حقائق كونية كانت مجهولة عند البشر حتَّى كشفها العلم في هذا العصر، مثل: بِنَاء الخلق كلِّه على أساس الزوجية في أشياء كثيرة، مصداق قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا

﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [فصلت: ٥٣]. فبهذا كانت آية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أعظم الآيات وأبقاها، وكانت مغنية عن غيرها كافية عمَّا عداها، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: ٥١]»[(١)].

وهذه الخصِّيصة لمعجزة نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبق (القاضي عياض) ابن باديس إلى التنبيه عليها، ولعلَّه استقاها من عنده، فقد قال في كتابه الشفا: «ومن وجوه إعجازه المعدودة كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا، مع تكفُّل الله تعالى بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩]، وقال: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ الآية [فصلت: ٤٢]، وسائر معجزات الأنبياء انقضتْ بانقضاء أوقاتها فلم يبق إلا خبرها، والقرآن العزيز الباهرة آياته الظاهرة معجزاته، على ما كان عليه اليوم مدَّة خمسمائة عام وخمس وثلاثين سنة لأول نزوله إلى وقتنا هذا»[(٢)].

والنظرة الشمولية لإعجاز القرآن عند ابن باديس تُظْهِرُ أنَّه ينحى منحى التعميم في وجه إعجاز القرآن، وهي مسألة اختلف فيها العلماء قديمًا وحديثًا[(٣)]، فمنهم من قصر الإعجاز على وجهٍ واحد، ومنهم من اختار وجهين أو أكثر، ومنهم من عدَّد الوجوه:

فذهبت طائفة من المعتزلة على رأسها النظَّام المعتزلي، إلى القول بالصِرْفَةِ،

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ابن باديس (ص٣٢ - ٣٣).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (ص١٨٧).

(٣) انظر عن المسألة: البرهان في علوم القرآن، الزركشي (٢/ ٩٣ - ٩٧). الإتقان في علوم القرآن، السيوطي (٥/ ١٨٧٩). فما بعدها. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي (ص١٢١ - ١٢٦). دراسات في علوم القرآن، فهد بن عبد الرحمن الرومي (ص٢٩٧ - ٣٠٧).

ومعناها: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم على ذلك، فالقرآن عندهم ليس معجزا في ذاته، وإنما المعجزة في منع الله لهم عن الإتيان بمثله، وهذا قول باطل يردُّهُ العقل والنقل.

وذهب بعضهم إلى أن وجه الإعجاز القرآني هو ما جاء فيه من الأخبار الغيبية التي يستحيل أن يأتي بها البشر، وقيل كذلك: إن وجه الإعجاز هو النظم القرآني المؤلف من الألفاظ والمعاني، وهو الذي تحدَّى الله به العرب أن يأتوا بمثله، وإلى هذا القول ذهب أهل اللغة والبيان، كالجرجاني والخطَّابي. وقيل: إن وجه الإعجاز هو ما اشتمل عليه القرآن من علوم ومعارف. فوجوه الإعجاز متعددة على هذا القول، فالقرآن معجز في لفظه وبلاغته، ونظمه، وتشريعاته، وأخباره والعلوم التي جاء بها مما يستطيع أن يأتي به بشر(١).

وهذا القول الأخير هو الذي عليه كثير من العلماء قديمًا وحديثًا، فلقد اختاره ابن تيمية، والزركشي، والسيوطي، والرافعي، وهو ما جنح إليه محمد رشيد رضا في تفسيره(٢)، وهو الذي اختاره ابن باديس اختيار محقِّقٍ في المسألة، عارفٍ بمذاهب العلماء فيها، فقد بينَّ أن الإعجاز في بلاغة القرآن المشتملة على النظم والأسلوب هو الأصل الذي تحدَّى الله به العرب، ثم يتسع وجه الإعجاز ليشمل جميع العلوم والمعارف المبثوثة في القرآن، التي تبيِّن استحالة كونه من كلام البشر، وأنَّه يقينًا من كلام ربِّ البشر.

---

(١) انظر، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (ص١٧٤). الإعجاز البياني للقرآن، عائشة بنت الشاطئ (ص٦٩ - ٨٩). إعجاز القرآن، د. فضل حسن عباس و د. سناء فضل عباس (ص٣٥ - ٨٢).

(٢) انظر هذه الاختيارات في: إعجاز القرآن عند شيخ الإسلام ابن تيمية، لمحمد العواجي (ص١١٥ - ١٥٠). البرهان في علوم القرآن للزركشي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي (١/ ١١). إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي (ص١٣١ - ١٣٢). تفسير المنار، محمد رشيد رضا (١/ ١٦٥) فما بعدها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ موضحًا هذه النظرة: «القرآن أعجز العرب ببلاغته، حتَّى عرفوا - وعرف العلماء بلسانهم المرتاضين ببيانهم - أنَّه ليس مثله من طوق البشر، هذه هي الناحية الظاهرة في إعجاز القرآن والاستدلال به له ولمن أتي به صلى الله عليه وآله وسلم، وهنالك ناحية أخرى هي أعظمُ وأعمُّ: وهي ناحيته العلمية التي يذعن لها كلُّ ذي فهم من جميع الأمم، في كلِّ قطر وفي كلِّ زمن، وهذه الناحية هي التي احتجَّ بها في هذا الموطن؛ فقد استدلَّ على أن القرآن لا يمكن أن يكون أتى به محمد من عنده، ولا يمكن أن يستعين عليه بغيره، ولا أن يكون من أوضاع الأوائل، بأنَّه ينطوي على أشياء من أسرار هذا الكون لا يعلمها إلّا خالقه، فمن ذلك:

- **ما أنبأ به من أسرار الأمم الخالية،** وبيّن من أسرار الكتب الماضية.
- **وما أنبأ من أحداث مستقبلة،** وما ذكر من حقائق كونية، كانت لذلك العهد عند جميع البشر مجهولة؛ كالزوجية في كلِّ شيء، وسبْح الكواكب في الفضاء، وسير الشمس إلى مستقر مجهولٍ معين عند الله لها.
- **وغير ذلك من أسرار العمران والاجتماع،** وما تصلح عليه حياة الإنسان، مما تتوالى على تصديقه تجارب العلماء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم، فكتاب اشتمل على كلِّ هذه الأسرار لا يمكن أن يأتي به مخلوق»(١).

فمن خلال هذا النصِّ نستخلص نظرة ابن باديس لإعجاز القرآن، فهو يرى أن الناحية الظاهرة التي تحدَّى بها العرب هي إعجازه البلاغي، وهناك نواحٍ أخرى أعظم تكمن في العلوم المنثورة في القرآن، التي يُسْتَخْلَصُ منها الإعجاز التشريعي، والعلمي التجريبي، والغيبي، وأسرار الكون والعمران والمجتمع،

---

(١) مجالس التذكر من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ١٩ - ٢٠).

فالقرآن الكريم عنده معجز من جميع هذه النواحي، يقول تلميذه (أحمد حمَّاني)[(١)]: «وللقرآن وجوه إعجاز لفظي وعلمي، وتاريخي وإخباري، وما زالت العصور تبين ذلك، فلا معنى لحصره في نوع من أنواع الإعجاز»[(٢)].

قلت: وفي المبحث الموالي سأبين وجوه إعجاز القرآن الكريم التي أظهرها ابن باديس مع التمثيل لها من مظانها في تفسيره.

(١) هو: الشيخ أحمد بن مسعود بن محمد حَمَّاني الجزائري، ولد سنة (١٣٣٠هـ/ ١٩١٥م)، أخذ مبادئ العلم في المعهد الباديسي في قسنطينة، ثم ارتحل إلى الزيتونة في تونس وحصل على الشهادة الأهلية، ورجع إلى وطنه وانخرط في مجال الإصلاح والتعليم حتى قبض عليه من قبل الاستعمار وسجن وعذِّب، وبعد الاستقلال أشرف على التعليم العربي في الجزائر، وعُيِّنَ رئيسا للمجلس الإسلامي الأعلى، وبقي في مهمة الافتاء والتدريس حتى توفي سنة (١٩٩٨م/ ١٤١٩هـ). يعدُّ من تلامذة ابن باديس وحامل راية الإصلاح بعده. انظر ترجمته في: محاضرات ومقالات العلَّامة أحمد حماني، عبد الرحمن دويب (١/ ٢٦ - ٦٠).

(٢) محاضرات ومقالات العلَّامة أحمد حماني، عبد الرحمن دويب (٣/ ١٧٤).

المبحث الثاني

أوجه الإعجاز القرآني عند ابن باديس

المطلب الأول

الإعجاز البلاغي للقرآن

إنَّ أعظم وجهٍ من وجوه الإعجاز القرآني وأظهره، هو الإعجاز البلاغي (البياني)؛ لأنَّه يشمل القرآن كلَّه بجميع آياته، وهو الذي وقع التحدِّي به في جميع سور القرآن، فما من آية إلا وفيها من البلاغة وحسن البيان ما يعجز فصحاء العرب عن الإتيان بمثله نظمًا وأسلوبًا ومعنى؛ فدلَّ ذلك على صدق نبوَّته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما جاء بهذا القرآن[(١)]؛ لذلك جعله الشيخ ابن باديس أقوى وأظهر وجوه الإعجاز القرآني فقال: «القرآن أعجز العرب ببلاغته، حتَّى عرفوا - وعرف العلماء بلسانهم المرتاضين ببيانهم - أنَّه ليس مثله من طوق البشر، هذه هي الناحية الظاهرة في إعجاز القرآن والاستدلال به له ولمن أتي به صلى الله عليه وآله وسلم»[(٢)].

والإعجاز البلاغي يرجع في لبِّهِ وأصله إلى النظم المتضمِّن للألفاظ والمعاني، والربط بينها وترتيبها وطريقة تصويرها، وغير ذلك من البيان والبديع، على نحوٍ عجز العرب أن يأتوا بمثله، وهم أقدر الناس على الفصاحة والبلاغة، فوقع التحدِّي في تلك العملية العقلية التي أتقنوها في التأليف بين الكلمات والتأثير في السامع، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

---

(١) انظر عن الإعجاز البياني للقرآن: إعجاز القرآن، الباقلاني (ص٥١ - ٧١). بيان إعجاز القرآن، الخطابي (ص٢٤ - ٢٨). الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (ص١٧٤ - ١٨٠). الإعجاز البياني للقرآن، عائشة بنت الشاطئ (ص٧٠ - ١٢٠). إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي (ص١٠٣) فما بعدها.

(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ١٩).

يقول ابن باديس مبينًا ذلك: «وآية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وهي القرآن العظيم معجزة علمية عقلية، يخضع لسلطانها كلُّ من يسمعها ويفهمها، ولا يستطيع معارضتها، لا في لفظها وأسلوبها وبيانها الذي عجزت عن معارضة أقصر سوره العرب، على ما كان من حميَّتها وأنَفَتها وشدَّة رغبتها في إبطالها لو وَجَدَتْ سبيلا إليها فقط»[١].

ووجه الإعجاز في بلاغة القرآن وبيانِه، أنَّ العرب على فصاحتها وقوَّة بلاغتها عجزت أن تُؤلِّف كلامًا يضاهي القرآن، فلا هو يشبه أشعارهم ولا أرجازهم، وقد كانوا حريصين على محاكاته حفظًا لشرفهم، فهم يأنفون الانهزام عند التحدي، ولكنَّهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا؛ فظهر يقينًا بعد ذلك أن كلاما بهذه القوَّة في التأثير، والفصاحة في التعبير، لا يمكن أن يكون إلا من قِبَل اللطيف الخبير، الذي أحاط بالكلام كلِّه، لفظه ومعناه، فوجب بعد العجز أن يؤمن العاجزون وغيرهم أنَّه كلام الله الذي لا يُجَارَى، وقامت الحجة على وجوب اتباع ما جاء في هذا القرآن، والإيمان بالرسول الذي بلغ كلام الرحمن.

فليس القرآن كلام محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهم يعرفون محمدًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأنَّه أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب، فلقد نشأ بينهم وترعرع في أكنافهم، ويعرفون كلامه من مخالطته لهم، فالقرآن لا يشبه كلامه البشري ولا كلامهم، والأدهى من ذلك أنه مؤلَّف من الكلمات والألفاظ التي يعرفونها ويتكلمون بها، ومع ذلك عجزوا أن ينظموا نظما متناسقا في اللفظ والمعنى والأسلوب كما هو عليه القرآن الكريم، فلما بُهِرُوا ادَّعوا زورا أن هناك من يُعِينُهُ على تأليف هذا الكلام، ولقد علموا أنَّهم لن يستطيعوا الإتيان بهذا الكلام ولو اجتمعوا على ذلك، كما قال الله تعالى في

---

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ابن باديس (ص٣٢ - ٣٣).

حقِّهم متحديًا لهم: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨].

يقول ابن باديس في بيان هذا المعنى: «ومن كلامه مثل كلامهم في ألفاظه وفي تراكيبه، ثم هم يعجزون عن معارضته بمثل أقصر سورة منه، ثم يشهدون الفرق بينه وبين كلام محمد نفسه؛ فهو إذا حدَّثهم بما اعتادوا من حديثه معهم، حتَّى إذا تلا عليهم القرآن جاءهم بما هو فوق كلامه وكلامهم، وما تقصر عن معارضته ألسنتهم، بهرهم هذا وهذا، وأخذ العناد بعقولهم، واستحوذتْ عليهم شياطينهم؛ فحاروا فيما يقذفون به هذا الرسول وهذا الكتاب، فأخذوا يقولون عن الكتاب: إنَّه إفكٌ مفترى!! ورأوه أكبر مما كانوا يسمعون من كلام محمد، فلم يكن ليأتي به وحده وهو فوق المعتاد من كلامه، فإذًا هنالك أقوام يعينونه، ومن هم الأقوام؟ وهو - بعد - في نفرٍ قليل ممن آمن به، وهم هم في كثرتهم وتساندهم، وقد عجزوا عن الإتيان بشيء مثله، فالقليل أحرى بالعجز من الكثير»(١).

وبالرغم من أن الإعجاز البياني للقرآن له ضروب يصعب حصرها، إلا أن ابن باديس اعتنى في تفسيره ببيان بعض تلك النواحي الإعجازية في التعبير القرآني، خاصَّة أنَّه معروف بنزعته البلاغية، وتذوُّقِهِ لفنون الكلام، فكان يتعرض في بعض المواضع في تفسيره لبيان هذا اللون من الإعجاز، ولا بأس أن أذكر بعض الأمثلة التي وقفت عليها:

أولًا: إعجاز الألفاظ القرآنية:

إنَّ المتأمِّل في الألفاظ القرآنية يدرك إعجازًا بلاغيًا في اختيارها واستعمالها وتركيبها، وقد نَبَّهَ ابن باديس على هذا الوجه فقال في تفسير سورة الفلق، مبينًا

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ١٧ - ١٨).

الإعجاز في استعمال لفظة «الفَلَقِ» ما يلي:

«**ومِمَّا وصف به ربُّنا نفسه في القرآن** ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، و﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، فهُما من أسمائه تعالى، ومواقع هذه الألفاظ التي تضاف إلى كلمة ربٍّ في القرآن، كمواقع أسماء المخلوقات التي أقسم بها الله؛ كلاهُمَا عجيبٌ معجزٌ، فكلُّ لفظة تستعملُ في المقام الذي يناسبها وتناسبه، وكلُّ لفظة تبعث في الأسلوب الذي وقعتْ فيه متانة وقوَّة، وفي معناها وضوحًا وجلاء»[1].

ومن العجيب أن نجد الفكرة نفسها عند غيره ممن اعتنى بالإعجاز في هذه الآية، يقول محمد شيخون: «وابحث عن أيِّ كلمة أخرى تقوم مقام ﴿فَالِقُ﴾ تؤدِّي معناها وتقوم مقامها في تصوير المراد وتجسيم الفكرة، وابحث عن أيِّ كلمة أخرى تضعها موضع ﴿ٱلْإِصْبَاحِ﴾ في دلالتها على الحركة والانبثاق، وفي بثِّ حقيقة المعنى المطلوب، ثم فتِّش في اللغة كلِّها عن كلمة تضعها في مكان ﴿سَكَنًا﴾ فيها هدوؤها، ولينها المنبعث من فتحاتها المتتابعة، وفيها ما تبثُّهُ من الصورة في الخيال والنفس، ثم ابحث ما شئت عن كلمة أخصر وأدل وأجمع من هذه الكلمة العجيبة: ﴿حُسْبَانًا﴾، ابحث عن كلِّ ذلك، وقلِّب الآية على ما تختاره من الوجوه، فستجد أنَّ اللُّغة كلها أعجز من أن تأتي لها بألفاظ مثلها أو خير منها، ومهما غيَّرت في الآية أفسدت من بهائها، ونقَّصت من روعتها وإشراقها، والقرآن كلُّه مثال على ذلك»[2].

۞ ثانيًا: الإعجاز في قصص القرآن:

اعتنى ابن باديس ببيان وجه الإعجاز في التعبير والتصوير القرآني، عند كلامه

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٣٥٠).

(٢) الإعجاز في نظم القرآن، محمود السيد شيخون (ص٦٥).

عن الإعجاز في القصة القرآنية، وكيف أنَّ القرآن الكريم كان يختصر الكلام على مراحل تاريخية مديدة بأسلوب متين وتصوير بياني عجيب، حتَّى إن القارئ يعيش تلك المرحلة نفسيًّا من قوَّة التعبير، كلُّ ذلك في كلمات معدودات، وجمل قليلة، مما لا يستطيعه أيُّ بشرٍ مهما أوتي من بلاغة وفصاحة، ولقد مثَّل لذلك ابن باديس بقصَّة سبأ في القرآن الكريم وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ
ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾
فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ
مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ
﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: ١٥ - ١٩].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينا ذلك: «ليس المقامُ مقامَ تَبَسُّط في وجوه البلاغة المعجزة التي تنطوي عليها هذه الآيات؛ فقد استوعبت تاريخ أمة في سطور، وصورت لنا أطوارًا اجتماعية كاملة في جمل قليلة أبدع تصوير، ووصفت لنا بعض خصائص الحضارة والبداوة في جمل جامعة، لا أظن غير اللسان العربي يَتَّسِع لحملها، كقوله: ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾، وكقوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾، وكقوله: ﴿بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ حتى إذا وصل القارئ إلى مصير الأمة التي سمع ما هاله من وصفها، واجهه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾، وأدركه الغرق في لجج البلاغة الزاخرة»[(١)].

ثالثًا: الإعجاز في ترتيب كلمات القرآن:

ومن وجوه الإعجاز البلاغي التي أظهرها ابن باديس البلاغة في ترتيب كلمات

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٤١٢).

القرآن، على نسق معجز، فقال عند تفسيره لسورة الفلق: «وبعد أن يوجِّه الاضطرارُ نفوسَنا هذا التوجيه الصحيح، تندفع ألسنتنا وتقول: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ١، ٢]، وبهذا تظهر المناسبة الدقيقة بين ﴿رَبِّ﴾ و﴿ٱلْفَلَقِ﴾:

١- **فإنَّ ربَّ الناس ومربيهم وسائقهم إلى ما يكمل وجودهم،** هو الذي تنكشف لعلمه سرائرهم، والفلق نور يكشف للعيان كل المبصرات فترى على حقائقها ومقاديرها، لا يزيغ البصر في شيء منها ولا يطغى، والإنسان مهما يكن عالما فقد تخفى عليه حقائق من المعقولات فيزيغ فكره ويطغى.

٢- **ومناسبة أخرى، وهي أنَّ الشرَّ ظلام،** وقد أجرى الله في فطر البشر تصور الشرِّ كالظلام، وأجرى على ألسنتهم تشبيه الشرِّ بالظلام؛ ذلك أن ما يلابس إحساسهم من الأنس بالنور والبشاشة له، هو عين ما يلابسه من الأنس والبشاشة للخير، وأنَّ ما يضايقهم من وحشة الظلام وتوقع الهلاك فيه، هو عين ما يضايقهم من ذلك الشر.

هذا كلُّه في الشر على عمومه، ثم خصَّص تعالى من هذا العموم ثلاثة أنواع من الشر، لشدة تعلُّقها بحياة الإنسان وكثرة عروضها له، ويجيء أكثرها من أخيه الإنسان، ورتبها ترتيبًا بديعًا لا يستغرب في جنب بلاغة القرآن، ودقَّته في رعاية المراتب وتنسيقها في عرض الأذهان»[(١)].

رابعًا: الإعجاز في القراءات القرآنية:

ومما أبرزه الشيخ ابن باديس من بلاغة القرآن المعجزة، ذلك السرُّ العظيم في استعمال القرآن لألفاظ ذات معاني متنوعة، ويكون معنى الآية صحيحًا في

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس: (٢/ ٣٥٢ - ٣٥٣).

استعماله على جميع تلك المعاني للفظ الواحد، وهذا لا يدركه إلا من أحاط بالكلام كلِّه لفظه ومعناه، ولا يستطيعه البشر القاصر.

يقول الإمام السيوطي: «ومن المبالغة في إعجازه بإيجازه، إذ تنوُّع القراءات بمنزل الآيات، ولو جعلت دلالة كلُّ لفظة آية على حجَّة لم يَخْفَ ما كان من التطويل، ولهذا كان قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ مُنَزَّلًا لغسل الرجل، والمسح على الخفِّ، واللفظ واحد، لكن باختلاف إعرابه»[(١)].

ولقد نبَّه ابن باديس على هذا الوجه من الإعجاز فقال: «على أنَّه من بلاغة القرآن أنْ تأتي مثل هذه الآيات بوجوه من الاحتمالات متناسبات غير متناقضات؛ فتكون الآية الواحدة بتلك الاحتمالات كأنها آيات؛ نظير مجيء الآية بقراءتين، فتكون كآيتين، مثل قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، وقوله تعالى في آية الوضوء: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] بالنصب عطفًا على الوجه فيفيد غسل الأرجل، وتلك هي الحالة الأصيلة العامة، وبالخفض عطفًا على الرؤوس فيفيد مسح الأرجل وتلك هي حالة الرخصة عند لبس الخفاف، فتكون هذه الآية باحتمالها مفيدة تنزههم عن شهود الباطل، وعن شهادته»[(٢)].

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي (١/ ١٢٧).

(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ١٥٤ - ١٥٥).

المطلب الثاني

الإعجاز الغيبي

من وجوه الإعجاز الذي ذكرها ابن باديس، واستنبطها في تفسيره للقرآن، الإعجاز الغيبي: وهو تلك الأخبار التي جاءت في القرآن الكريم الذي بلَّغَهُ الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، التي تتحدث عن وقائع وأحداث غاب عنها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يحضر مجرياتها ولا علم بتفصيلاتها، ثم هو يخبر عنها خبر من حضَرَ وعَلِمَ.

والمراد بالغيب هنا: هو كلُّ ما غُيِّبَ عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أخبار الماضي: كقصص الأنبياء السابقين، وقضية نشأة الكون وغيرها، كما يدخل في الغيب الأحداث التي عاصرها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكنَّه لم يحضرها: كإخبار القرآن عن كيد الكافرين والمنافقين في عهده، وكذلك أخبار المستقبل التي جاء بها القرآن ثم وقعت كما أخبر في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو بعد موته: كأشراط الساعة، ومصير الأمم والأفراد[(١)].

ووجه الإعجاز في أخبار الغيب أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أُمِّيًّا لم يقرأ ولم يكتب، ثم هو يخبر - بما أوحي إليه من القرآن - عن مغيبات في الماضي والحاضر والمستقبل، خبرًا صادقًا مطابقًا للواقع، بوصف دقيق لا يتقنه إلا من حضر تلك الأحداث ورآها رأيَ العين؛ فدلَّ ذلك أن القرآن الكريم وحيٌ من عند الله، الذي أحاط علمه بجميع الغيوب، ولا يمكن أن يكون من اصطناع البشر، لضعف مداركهم على الإحاطة بمثل هذه الأمور.

---

(١) انظر عن الإعجاز الغيبي: إعجاز القرآن، للباقلاني (ص ٣٣ - ٣٤). الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (ص١٨٠ - ١٨٤). معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي (١/ ١٨٠ - ١٨٢). مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم (ص ٢٣٥ - ٢٦١).

يقول ابن باديس مبينًا ذلك: «فقد استدلَّ على أن القرآن لا يمكن أن يكون أتى به محمد من عنده، ولا يمكن أن يستعين عليه بغيره، ولا أن يكون من أوضاع الأوائل، بأنَّه ينطوي على أشياء من أسرار هذا الكون لا يعلمها إلّا خالقه، فمن ذلك: ما أنبأ به من أسرار الأمم الخالية، وبيّن من أسرار الكتب الماضية، وما أنبأ من أحداث مستقبلة»[1].

ولقد اعتنى ابن باديس باستنباط هذا اللون من الإعجاز في تفسيره للقرآن الكريم، من ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم: ٩٦] حين تكلَّم عن سبب نزول الآية فقال: «كان السابقون الأوَّلون من المؤمنين في أوَّل الإسلام بمكة مبغوضين من أهل مكَّة المشركين، مهجورين منهم، مزهودًا فيهم. ومن أشدِّ الآلام على النفس وأشقها أن يعيش الإنسان بين قومه مبغوضًا مهجورًا، مزهودًا فيه، خصوصًا مثل تلك النفوس الحيَّة الأبيَّة، فأنزل الله هذه الآية تأنيسًا لأولئك السادة، ووعدًا لهم بأن تلك الحالة لا تدوم، وأنَّه سيجعل لهم وُدًّا، فيصيرون محبوبين مرغوبًا فيهم. وقد حقَّقَ الله وعده؛ فكان أولئك النفر بعدُ، السادة المقدَّمين من أقوامهم وعشائرهم، لسبقهم وفضلهم، وكانوا - وهم قادة الجيوش في الفتوحات الإسلامية - المحبوبين هم وجيوشهم، المرغوب فيهم من الأمم التي فتحوها؛ لعدلهم ورحمتهم، ورفعهم لنير الاستعباد الديني والدنيوي، الذي كانت تَئِنُّ تحته تلك الأمم، وأثبت التاريخ أن بعض الأمم الأجنبية دعتهم إلى إنقاذها من أيدي رؤسائها، فكانتْ هذه الآية من آيات الإعجاز بالإعلام بما يتحقق في الاستقبال مما هو كالمحال في الحال، فكان على وِفْق ما قال»[2].

---

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ١٩ - ٢٠).
(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (١/ ٣٧٣).

وهكذا عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، بَيَّنَ إعجاز القرآن بصدق وعد الله فيه، أنَّه سيمكن لعباده الصالحين، فوقع ما وعد به، فظهر الإعجاز الغيبي للقرآن بتصديق الواقع له، وتصديق الأحاديث النبوية الأخرى له كذلك، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «مثل هذه الآية فيما تضمنته من الوعد الذي يقوّي به قلوبهم، ويثبت إيمانهم، ويظهر به صدق نبيه – صلى الله عليه وآله وسلم – بما أعلمه به من غيب، أحاديث صحيحة... وقد امتدَّتْ به الحياة حتَّى رأى ذلك. ومثل هذا أحاديث أخرى في الصحيح، فقد تطابقت الآيات والأحاديث في هذا الوعد»[١].

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (١/ ٣٩٦ – ٣٩٨).

المطلب الثالث

الإعجاز في ترتيب نزول القرآن

لم يكتف الشيخ ابن باديس باستنباط الوجوه المعتادة لإعجاز القرآن التي أفاض في ذكرها العلماء، بل أطلق العنان لقريحته ليستنبط أوجها أخرى من الإعجاز القرآني، التي لا تظهر إلا لمن تذوَّق أسلوب القرآن وغاص في معانيه، فتكلَّم عن الإعجاز في ترتيب نزول القرآن وتفريقه في تفسيره لسورة الفرقان، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان: ٣٢]، تجلَّى له الوجه العظيم من وجوه عظمة القرآن وإعجازه، المتمثل في كونه نزل مفرقًا على حسب الوقائع، مرتبًا ترتيبًا عجيبًا، بحيث يعالج القضايا المستجدَّة، فيؤثِّر في النفوس، ويزيل الشُّبَه[(١)].

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا هذا الأمر: «وكانت الوقائع تقع، والحوادث تحدث، والشُّبه تَعْرِضُ، والاعتراضات تَرِدُ... فكانت الآيات تنزل بما تتطَلَّبُهُ تلك الوقائع من بيان، وما تقتضيه تلك الحوادث من أحكام، وما تستدعيه تلك الشُّبه من ردٍّ، وتلك الاعتراضات من إبطال، إلى غير ما ذكرنا من مقتضيات نزول الآيات المعروفة بأسباب النزول. وفي بيان الواقعة عند وقوعها، وذكر حكم الحادثة عند حدوثها، وردِّ الشبهة عند عروضها، وإبطال الاعتراض عند وروده - ما فيه من تأثير في النفوس، ووقع في القلوب، ورسوخ في العقول، وجلاء في البيان، وبلاغة في التطبيق، واستيلاء على السامعين، وما كان هذا كلُّه ليأتي لولا تفريق الآيات في التنزيل، وترتيلها وتنضيدها هذا الترتيل العجيب، وهذا التنضيد الغريب، الذي

(١) انظر: عن هذا الوجه من الإعجاز، نزول القرآن الكريم، د. محمد بن عبد الرحمن الشايع (ص٤٥ - ٤٦).

بلغ الغاية من الحسن والمنفعة، حتَّى إنَّه لَيَصِحُّ أن يُعَدَّ وحده وجهًا من وجوه الإعجاز»[١].

وقال في موضع آخر: «وهم لما عجزوا عن معارضة أقصر سورة منه، أخذوا يباهتون بالباطل، ويعترضون بمثل هذا الاعتراض، وأمَّا الجواب فكان ببيان حكمتين في إنزاله مُفرَّقًا: الحكمة الأولى: تثبيت قلبه صلى الله عليه وآله وسلم. والحكمة الثانية: تفريقه مرتَّبا على الواقع، وكان في تينك الحكمتين مزيَّتان عظيمتان للقرآن العظيم على غيره من كتب الله تعالى؛ فكان ما اعترضوا به على أنَّه نقص فيه عنها هو كمال له عليها»[٢].

وهذه الإشارة إلى عظمة القرآن في تفريق نزوله وترتيب ذلك، قضية قَلَّ من نَبَّهَ عليها من المفسرين، ولعلَّ ابن باديس استقاها من كلام الزمخشري في تفسيره، فقد صرَّح أنَّ كتاب «الكشَّاف» هو أحد مصادره في التفسير.

يقول الزمخشري منبِّهًا على عظمة ترتيب نزول القرآن: «يعني أن تنزيله مفرقًا وتحدّيهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كما نزل شيء منها، أدخلُ في الإعجاز وأنورُ للحُجَّة من أن ينزل كلُّه جملة ويقال لهم: جيئوا بمثل هذا الكتاب في فصاحته مع بُعد ما بين طرفيه، كأنَّه قيل لهم: إن حاملكم على هذه السؤالات أنَّكم تضلِّلون سبيله وتحتقرون مكانه ومنزلته، ولو نظرتم بعين الإنصاف - وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم - لعلمتم أن مكانكم شرّ من مكانه، وسبيلكم أضلّ من سبيله»[٣].

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٥٧ - ٥٨).

(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٥٣ - ٥٤).

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (٣/ ٢٨٤).

كما سبق الطاهر بن عاشور - وهو شيخ ابن باديس - إلى التنبيه على هذا النوع من الإعجاز، فقال: «وثمة فائدة أخرى عظيمة لأسباب النزول وهي أن في نزول القرآن عند حدوث حوادث دلالة على إعجازه من ناحية الارتجال، وهي إحدى طريقتين لبلغاء العرب في أقوالهم، فنزوله على حوادث يقطع دعوى من ادَّعوا أنه أساطير الأولين»(١).

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (١/ ٥٠). و(١٩/ ٢٠). وانظر: إعجاز القرآن عند ابن عاشور، محمود علي أحمد (ص٣٤١).

المطلب الرابع

الإعجاز التشريعي

يُعَدُّ إعجاز القرآن في جانبه التشريعي من أعظم وجوه الإعجاز التي يُستدلُّ بها على مصدره الربَّاني.

والمقصود بالإعجاز التشريعي: هو تلك التشريعات والأحكام القرآنية الشاملة الكاملة المتقنة، التي جاءت لإصلاح العلاقة بين العبد وربه، وبين الأفراد والجماعات، على وجهٍ متكامل لا نقص فيه من جميع الجواب، بما يحقِّقُ المصلحة ويدفع المفسدة[1].

هذه التشريعات التي عجز البشر على مرِّ القرون على الإتيان بمثلها، أو ما يدانيها، رغم اجتهادهم في سنِّ القوانين وتعديلها، إلا أن تلك الأنظمة والتشريعات أثبتتْ فشلها، وبان عوزها، وقصورها عن تحقيق المصلحة والسعادة للبشرية، وهذا يدلُّ أن تشريعات القرآن تشريعات ربَّانية لا يمكن أن تكون من وضع البشر، بل هي من وضع خالق البشر الذي يعلم مصلحتهم في الدنيا والآخرة.

والإعجاز التشريعي ينطلق من تلك الهدايات القرآنية للتي هي أقوم في جميع مجالات الحياة، بما يحقِّقُ مصلحة العباد في الحال والمآل، المضمَّن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وهذا يشمل جانب العقيدة الذي يمثل علاقة العبد بربه، وجانب الشريعة وجانب الأخلاق الذي يمثِّل علاقة العبد بالفرد والمجتمع.

---

(١) انظر: إعجاز القرآن، فضل حسن عباس و د. سناء فضل عباس (ص٢٨١ - ٣١٣). مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم (ص٢٠٥ - ٢٣١).

يقول ابن باديس: «العقيدة الثانية القرآن كلام الله ووحيه، ودليلها: أنَّه حكيم، فما فيه من العلم وأصول العمل لا يمكن أن يكون إلا من عند الله، في عقائدِهِ ودلائلها وأحكامه وحكمها وآدابه وفوائدها»(١).

ووجه الإعجاز في هذه الهدايات والتشريعات القرآنية يكمن في كون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلًا أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ثم هو يأتي بقرآنٍ متضمِّنٍ لتشريعات متقنة وسياسات محكمة، متكاملة فيما بينها، تنظِّم شتَّى مناحي الحياة الدينية العقدية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، على وجه الكمال لا نقص فيه ولا خلل، ما لو اجتمع عقلاءُ البشر بمختلف تخصُّصاتهم على الإتيان بمثل هذا النظام التشريعي ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، بل لقد حاول البشر على مَرِّ الأزمان وضع القوانين والتشريعات، ولكنَّهم عجزوا أن يأتوا بمثل ما جاء به القرآن من الكمال والشمول؛ فدلَّ هذا كلُّه على أنَّ هذا القرآن هو كلام ربِّ العالمين، وأنَّ تشريعاته هي أحكام العليم الحكيم، وليست من صنع البشر.

يقول ابن باديس: «وقد وضع عقلاء الأمم شرائع في بعض نواحي أعمال الإنسان، ولكنَّها بإجماع المتشرعين لا تخلو من نقصٍ واعوجاجٍ واضطراب، فهم ما يفتؤون يتعبونها بالتكميل والتقويم والتعديل على مرِّ الأيام. ولو عرضتَ كلَّ حكم من أحكامه على الأصل العام الذي ذكرناه، لوجدته منطبقًا عليه ظاهرًا فيه، حتَّى ما خفي وجهه على الأمم الأجنبية من الإسلام أيام تأخُّرها، قد ظهر لها فضله ونفعه أيام تقدُّمها، فجاء كبراء عقلائها يعترفون فيها بصواب ما شرعه فيها الإسلام. ثم هم يعجزون عن تطبيقها على أممهم؛ للعادة الغالبة والوراثة القديمة، منها: مسألة الطلاق، وتعدُّد الزوجات، وتحريم الربا تحريمًا باتًّا. فكم

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٢٧٠).

من عالم غير مسلم صرَّح بأنَّ الحقَّ والعدل والخير للإنسانية في هذه المسائل هو ما شرعه الإسلام، على الوجه الذي شرعه الإسلام. بهذه الاستقامة التامَّة العامَّة المضطردة في شرع ما جاء به رجل أُمِّي، من أمَّة أمِّيَة جاهلية، يجزم كلُّ عاقل بأنه ليس من وضع العباد، وإنَّما هو من وضع خالق العباد»[(١)].

وقد اعتنى ابن باديس بإبراز هذا الوجه العظيم لإعجاز القرآن الكريم في معرض كلامه على أصول الهداية التي جاء بها القرآن، عند تفسيره لسورة الإسراء، فقال: «قد أوتي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - جوامع الكلم واختُصر له الكلام اختصارًا؛ فالآية من كتاب الله، والأثر من حديث رسول الله، تجد فيهما من أصول الهداية، ودقيق العلم، ولطيف الإشارة في لفظ بيِّن وكلام بيِّن - ما فيه الكفاية وفوق الكفاية لمن أوتي العلم ومُنح التوفيق.

فهذه ثماني عشرة آية من سورة الإسراء قد أتتْ في إيجاز ووضوح على أصول الهداية الإسلامية كلِّها، وأحاطت بأسباب السعادة في الدارين من جميع وجوهها. وهي - فوق بلاغتها التي عرف العرب إعجازها بسليقتهم وأدركه علماء البيان بعلمهم ومرانهم - قد جاءت معجزة للخلق من أي جنس كانوا، أو بأيِّ لغة نطقوا، بما جمعت من أصول الهداية التي تدركها الفِطَر وتسلمها العقول. وإنَّك لست واجدًا مثلها في مقدارها وأضعاف مقدارها من كلام الخلق بجمع ما جمعت من هدى وبيان، وهذا أحد وجوه إعجاز القرآن العامة التي تقوم بها حجته على الناس أجمعين»[(٢)].

وهكذا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]. بيَّنَ ابن باديس أن تشريعات القرآن

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٢٧٢).
(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (١/ ١٨٢ - ١٨٣).

هي شفاء المجتمعات، وأنها كاملة معجزة فقال: «... وجاء أيضًا مبينًا للأخلاق الفاسدة، وذاكرًا سوء أثرها وقبح مغبتها، مبينًا كذلك الأخلاق الصحيحة وعظيم نفعها، وحسن عاقبتها. فهذا شفاؤه للنفوس والعقول، وهو راجع إلى تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، وبهما سلامة الأرواح وكمالها، وعليهما قوام الهيئة الاجتماعية وانتظامها. على أن القرآن هو شفاء للاجتماع البشري كما هو شفاء لأفراده؛ فقد شرع من أصول العدل، وقواعد العمران، ونظم التعامل، وسياسة الناس، ما فيه العلاج الكافي والدواء الشافي لأمراض المجتمع الإنساني من جميع أمراضه وعلله، فهذه الأمم الغربية بسجونها، ومشانقها، ومحاكمها، وقوتها، قد امتلأت بالجنايات والفظائع المنكرة التي تقشعِرُّ منها الأبدان. وهذه الممالك الإسلامية التي تقيم الحدود القرآنية: كالمملكة الحجازية، والمملكة اليمانية، قد ضرب الأمن رواقه عليهما، واستقرَّت السكينة فيهما دون سجون ولا مشانق، مثل أولئك؛ وما ذلك إلا لأنهم داووا المُلْكَ بدواء القرآن؛ فكان الشفاء التامُّ»[١].

وفي موضع آخر يبيِّنُ ابن باديس أن تشريعات القرآن جاءت لتحقيق السعادتين الدنيوية والأخروية، فيقول: «﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ١٢﴾ فكل ما يحتاج إليه العباد لتحصيل السعادتين من عقائد الحقِّ، وأخلاق الصدق، وأحكام العدل، ووجوه الإحسان... كلُّ هذا فُصِّلَ في القرآن تفصيلا: كلَّ فصل على غاية البيان والأحكام. وهذا دعاء وترغيب للخلق أن يطلبوا ذلك كلَّه من القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم في العلم والعمل، ويأخذوا منه ويهتدوا به؛ فهو الغاية التي ما وراءها غاية في الهدى والبيان»[٢].

---

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (١/ ٣٥٦ - ٣٥٧).
(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (١/ ١٥٩).

ثم يبين ابن باديس أن أصول العلوم والتشريعات التي جاء بها القرآن، قد أعجز البشر عن معارضته، أو الإتيان بما يدانيه، فقال: «القرآن العظيم معجزة علمية عقلية يخضع لسلطانها كلُّ من يسمعها ويفهمها ولا يستطيع معارضتها، لا في لفظها وأسلوبها وبيانها الذي عجزت عن معارضة أقصر سوره العرب، على ما كان من حميتها وأنفتها وشدة رغبتها في إبطالها لو وجدت سبيلا إليها فقط - بل لا تستطاع معارضتها فيما اشتملت عليه من أصول العلوم التي يحتاج إليها البشر في كمالهم وسعادتهم أفرادا وجماعات، وأمما...»[1].

(١) مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ابن باديس (ص٣٢ - ٣٣).

المطلب الخامس

الإعجاز العلمي

يعدُّ الشيخ ابن باديس من المؤيِّدين لفكرة الإعجاز العلمي في القرآن، بل ومن المتحمسين لها، على اعتبار أنَّه وجه عظيم وشامل من وجوه إعجاز القرآن، وأنَّه سلاح قويٌّ في هذا العصر الذي تميز بالتطور العلمي الهائل، وذلك لبيان عظمة القرآن ومصدره الرباني.

والمقصود بالإعجاز العلمي: هو موافقة الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم، لما توصل إليه العلم الحديث من اكتشافات علمية، كانت مجهولة منذ قرون[(١)].

وهذا اللون من الإعجاز أغفله جُلُّ من تكلم في الإعجاز من المتقدمين، سوى بعض الإشارات المتناثرة في كلام بعض السلف، وأما ابن باديس فقد جعله أهمَّ وأعظم ناحية من نواحي الإعجاز؛ لأنَّه في نظره يدخل في إدراكه كلُّ الناس مؤمنهم وكافرهم، فهو يرى أن كتاب الله قد حوى أسرارًا للكون والفرد والمجتمع، مما لا يستطيع الاطِّلاع عليه أحد إلا مع مرور الزمن.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا ذلك: «إنَّ القرآن كتاب الدهر ومعجزته الخالدة، فلا يستقلُّ بتفسيره إلا الزمن، وكذلك كلام نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - المبين له، فكثير من متون الكتاب والسنَّة الواردة في معضلات الكون ومشكلات الاجتماع، لم تفهم أسرارها ومغازيها إلا بتعاقب الأزمنة، وظهور ما يصدِّقها من سنن الله في

(١) انظر عن الإعجاز العلمي: دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي (ص٣١٦). الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، عبد السلام حمدان اللوح (ص١١٥). مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم (ص١٣١ - ١٣٤).

الكون. وكم فسَّرت لنا حوادث الزمن واكتشافات العلم من غرائب آيات القرآن، ومتون الحديث، وأظهرت منها للمتأخرين ما لم يظهر للمتقدمين، وأرتنا مصداق قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - في وصف القرآن: «لا تنقضِي عجائبه»[(١)].

والعلماء القوَّامون على كتاب الله وسنَّة رسوله لا يتلقَّونها بالفكر الخامد والفهم الجامد، إنما يترقَّبون من سنن الله في الكون وتدبيره في الاجتماع ما يكشف لهم عن حقائقهما، ويكلون إلى الزمن وأطواره تفسير ما عجزت عنه أفهامهم.

وقد أُثِرَ عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن قولهم في بعض هذه الآيات: «لم يأت مصداقها أو تأويلها بعد» يعنون أنه آت، وأن الآتي به حوادث الزمان، ووقائع الأكوان، وكل عالم بعدهم فإنما يعطي صورة زمنه بعد أن يكيف بها نفسه»[(٢)].

والذي يظهر أن ابن باديس قد تأثر في هذا بما كتبه قبله محمد رشيد رضا[(٣)]، وشيخه الطاهر بن عاشور[(٤)]. ومما يميِّز طرح ابن باديس في هذا الاتجاه تقيُّدُه بالضوابط العلمية، فهو لا يتكلَّف في تنزيل آيات القرآن على الحقائق العلمية كما وقع لغيره، فنظرته للإعجاز العلمي نظرة متوازنة منضبطة.

(١) قطعة من حديث أخرجه الترمذي: أبواب فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل القرآن. برقم (٢٩٠٦).

(٢) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٣٥٩ - ٣٦١).

(٣) جعل محمد رشيد رضا في تفسيره الإعجاز العلمي الوجه السابع، فقال: «(الوجه السابع): اشتمال القرآن على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله، ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسنن الله في الخلق، وهذه مرتبة فوق ما ذكره في الوجه السادس من عدم نقض العلوم لشيء مما فيه». انظر تفسير المنار (١/ ١٧٥).

(٤) عدَّه الطاهر بن عاشور من وجه الإعجاز؛ فقال في تفسيره (١/ ١٤٠): «الجهة الثالثة: ما أودع فيه من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة، وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن من علمائنا مثل أبي بكر الباقلاني والقاضي عياض».

يقول حسن سلوادي: «أمَّا عبد الحميد بن باديس فله وجهة نظر خاصَّة في هذا الموضوع، تتلخَّص في أنَّ الإعجاز العلمي في القرآن الكريم أمر لا يجرؤ أيُّ مكابر أو ملحد أن يجد موضعا للتشكيك فيه... إنَّ من يطالع رأي ابن باديس السابق في الإعجاز العلمي في القرآن، يتوقع أن يجد في تفسيره محاولات تدلُّ على نزعته العلمية في التفسير، ولكننا مع ذلك لا نجد له من هذا القبيل أي محاولات يتعسَّف بها الربط والتوفيق بين آيات القرآن الكريم ونظريات العلم الحديث، بل إن أكثر ما أورده من مسائل العلوم، لا يعدوا كونه إشارات مجملة لبعض الحقائق العلمية التي ثبَتَتْ صحَّتها على وجه اليقين في هذا العصر»(١).

ووجه دلالة الإعجاز العلمي على مصدرية القرآن(٢) هو: أنَّ تلك الإشارات العلمية التي جاء ذكرها في ثنايا الذكر الحكيم، فيما يتعلق بالكون الذي يعيش فيه الإنسان من نجوم، وكواكب، وجبال، وبحار، وفي جسم الإنسان وتكوينه كذلك، بلغتْ مبلغًا عظيما في السعة والشمولية والدقَّة في التعبير، شهدت بصدقه التجارب العلمية الحديثة، وأكَّدتها الاكتشافات العلمية التي كانت غائبة عنَّا منذ قرون، وأعظم من ذلك أنَّه لم تأت أبحاث العلم التجريبي على سعتها وتطورها بشيء يخالف ما جاء في القرآن الكريم، بل القرآن الكريم أخبر في وقت نزوله قبل قرون عن أشياء يعجز عن الإتيان بها جماعة من العلماء مهما تكاملوا فيما بينهم، ومهما أوتوا من وسائل ضخمة ودقيقة، فلا يمكن أن يكون هذا القرآن الذي حوى هذه الإشارات العلمية الدقيقة إلا من عند الله عَزَّوَجَلَّ الذي أحاط بكل شيء علما، فوجب الإيمان بأنَّ القرآن كلام الله، وأنَّ النبيِّ الأميِّ الذي بلَّغ هذا القرآن رسول الله، بعثه ربُّه بالحق ليكون للعالمين نذيرا. كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ

(١) عبد الحميد بن باديس مفسرا، حسن عبد الرحمن سلوادي (ص١٢٢ - ١٢٣). وانظر: اتجاهات التفسير في العصر الراهن، د. عبد المجيد المحتسب (ص٢٧٧ - ٢٧٩).
(٢) انظر، مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم (ص٢٤٦ - ٢٤٧).

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٥ – ٦].

يقول ابن باديس وهو يعدِّد نواحي الإعجاز: «وهنالك ناحية أخرى هي أعظم وأعمُّ: وهي ناحيتُهُ العلمية التي يذعنُ لها كل ذي فهمٍ من جميع الأمم، في كلِّ قطر وفي كلِّ زمن. وهذه الناحية هي التي احتجَّ بها في هذا الموطن: فقد استدلَّ على أنَّ القرآن لا يمكن أن يكون أتى به محمد من عنده، ولا يمكن أن يستعين عليه بغيره، ولا أن يكون من أوضاع الأوائل، بأنَّه ينطوي على أشياء من أسرار هذا الكون لا يعلمها إلّا خالقه، فمن ذلك: ما أنبأ به من أسرار الأمم الخالية، وبيّن من أسرار الكتب الماضية، وما أنبأ من أحداث مستقبلة، وما ذكر من حقائق كونية كانت لذلك العهد عند جميع البشر مجهولة: كالزوجية في كل شيء، وسبح الكواكب في الفضاء، وسير الشمس إلى مستقر مجهول معين عند الله لها، وغير ذلك من أسرار العمران والاجتماع، وما تصلح عليه حياة الإنسان، مما تتوالى على تصديقه تجارب العلماء إلى اليوم، وإلى ما بعد اليوم، فكتاب اشتمل على كلِّ هذه الأسرار لا يمكن أن يأتي به مخلوق»[(١)].

وهكذا يبرز ابن باديس جهة أخرى تظهر فيها الحجة العلمية لمصدرية هذا القرآن الرباني، وهي أن القرآن دعا إلى العلم والتعلم، والتفكر والتدبر في النفس وفي الكون والمخلوقات التي برأها، ثم بيَّن بعض هذه الحقائق الكونية في آيات القرآن الكريم؛ ليعلم الخلق أجمعين أن الذي أنزل هذه الآيات القرآنية، هو الذي أودع هذه الأسرار الكونية، فيرتبط العلم التجريبي بالوحي المنزل.

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ١٩ – ٢٠).

يقول ابن باديس: «قد دعانا الله إلى العلم ورغَّبنا فيه في غير ما آية، وأعلمنا أنَّه خلق لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعًا، وأمرنا بالنظر فيما خلقه لنا، وأعلمنا هنا أن هذه المخلوقات أسرار بيَّنَها القرآن واشتمل عليها، وكان ذلك من حجَّته العلمية على الخلق؛ فكان في هذا ترغيب لنا في التقصِّي في العلم، والتعمُّق في البحث، لنطَّلِع على كل ما نستطيع الاطلاع عليه من تلك الأسرار (أسرار آيات الأكوان والعمران، وآيات القرآن)؛ فنزداد علمًا وعرفانًا، ونزيد الدين حجة وبرهانًا، ونجني من هذا الكون جلائل ودقائق النعم؛ فيعظم شكرنا للربِّ الكريم المنعم»(١).

ولقد ضرب ابن باديس في تفسيره مثالًا عمليًا بآيات أشارت إلى دقائق علمية في الكون، تبين إعجاز هذا القرآن، وأنَّه كلام الحكيم الخبير الذي خلق هذا الكون، فهو يعلم أدقَّ تفاصيله، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

فلقد استنبط إعجازًا علميًا في جرم القمر الذي تحدثت عنه آية الإسراء بأدقِّ تعبير وأدقِّ تفصيل، وهي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢﴾ [الإسراء: ١٢]، ثم خلص إلى أن هذه الإشارة العلمية في هذه الآية التي ما تبيَّن أمرها إلا بعد قرون من تطور العلم، لدليل قاطع على أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مبعوث من قبل ربه بوحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

يقول ابن باديس في تفسير هذه الآية: «المحو هو الإزالة: إزالة الكتابة من اللوح، وإزالة الآثار من الديار. فمحو ﴿ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ إزالة الضوء منها، وهذا يقتضي

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٢٠).

أنَّه كان فيها ضوء ثم أزيل؛ فتفيد الآية أن القمر كان مضيئًا، ثم أزيل ضوؤه فصار مظلمًا، وقد تقرَّر في علم الهيئة أن القمر جرم مظلم يأتيه نوره من الشمس، واتفق علماء الفلك في العصر الحديث بعد الاكتشافات والبحوث العلمية أنَّ جرم القمر - كالأرض - كان منذ أحقاب طويلة وملايين السنين شديد الحموِّ والحرارة، ثم برد، فكانت إضاءته في أزمان حموِّه وزالت لما برد. لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية، ذلك الكتاب الذي جعله الله حجَّة لنبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - وبرهانًا لدينه على البشر، مهما ترقوا في العلم وتقدموا في العرفان؛ فإنَّ ظلام جرم القمر لم يكن معروفًا أيام نزول الآية عند الأمم إلا أفرادًا قليلين من علماء الفلك، وإن حمو جرمه أولًا، وزواله بالبرودة ثانيًا، ما عرف إلا في هذا العهد الأخير، والذي تلا هذه الآية وأعلن هذه الحقائق العلمية منذ نحو أربعة عشر قرنًا نبيٌّ أميٌّ، من أمة أمية، كانت في ذلك العهد أبعد الأمم عن العلم؛ فلم يكن ليعلم هذا إلا بوحي من الله الذي خلق الخلائق وعلم حقائقها»(١).

وهكذا بيَّنَ ابن باديس أنَّه من العقائد المتقرِّرة عند المسلمين أن القرآن وحي من الله، وجعل الدليل على ذلك الحقائق الكونية التي جاء ذكرها في كثير من الآيات التي ما اكتشفها العلماء إلا بعد زمن طويل من تطور العلم والبحث، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا ذلك: «العقيدة الثانية: القرآن كلام الله ووحيه: ودليلها أنَّه حكيم، فما فيه من العلم وأصول العمل، لا يمكن أن يكون إلا عند الله، في عقائده ودلائلها وأحكامه وحكمها وآدابه وفوائدها إلى ما فيه من حقائق كونية، كانت مجهولة عند جميع البشر، وما عرفت لهم إلا في هذا العصر الأخير.

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (١/ ١٥٥ - ١٥٦). وانظر: عن هذا الإعجاز العلمي في ضوء القمر في: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، يوسف الحاج أحمد (ص٣٠٧ - ٣٠٨). ومباحث إعجاز القرآن الكريم، مصطفى مسلم (ص١٩٦ - ١٩٧).

ومن أشهرها: مسألة الزوجية الموجودة في جميع هذا الكون حتَّى أصغر جزء منه، وهو الجوهر الفرد المركب من قوَّتين: موجبة وسالبة، جاءت هذه المسألة في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩].

ومنها مسألة حياة النبات، التي جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ومنها مسألة تلاقح النباتات بواسطة الرياح التي تنقل مادة التكوين من الذكر إلى الأنثى، جاءت في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]. فهذه حقائق علمية كونية، أجمع عليها علماء العصر أنها من المكتشفات الحديثة، ولم تكن معلومة عند أحدٍ من الخلق قبل اكتشافها، ولا كانت عندهم الآلات الموصلة إلى معرفتها، وكفى بهذا القلّ من الكثر دليلًا على أن هذا القرآن ما كان إلا من عند الله الذي خلق الأشياء ويعلم حقائقها»[1].

فهذه باختصار وجوه إعجاز القرآن التي ذكرها ابن باديس في تفسيره، وفي كلامه على بعض الآيات في مقالاته، تظهر لنا مدى عنايته وتأثره بالقرآن الكريم تدبرا وعملا، وتظهر لنا أنه على خطى مشايخه في إثراء هذا الميدان وتربية الأمة بالقرآن، ورفع مكانته في قلوبهم، فرحم الله الجميع.

---

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس (٢/ ٢٧٠ - ٢٧١). ولقد ذكر هذه الأمثلة محمد رشيد رضا كذلك في كلامه عن الإعجاز العلمي في تفسيره، انظر (١/ ١٧٥ - ١٧٦).

الخاتمة ونتائج البحث

الحمد لله أولًا وآخرًا، أما بعد:

فبعد هذه الإطلالة على وجوه إعجاز القرآن التي أبرزها عبد الحميد بن باديس في تفسيره، يمكننا أن نلخص نتائج هذا البحث فيما يلي:

١- أن عبد الحميد بن باديس قد اعتنى عناية فائقة باستنباط وجوه إعجاز القرآن الكريم من خلال تفسيره، الذي - على صغر حجمه - أبان فيه عن نظرة شاملة متميزة في هذا الموضوع المهمِّ من مواضيع علوم القرآن.

٢- أنَّ ابن باديس قد أتى على بيان معظم وجوه إعجاز القرآن، ونثرها في تفسيره وهي: (الإعجاز البلاغي، الإعجاز الغيبي، الإعجاز التشريعي، الإعجاز العلمي)، بل أكثر من ذلك: استنبط وجها آخر للإعجاز وهو (الإعجاز في ترتيب نزول القرآن) وجعله قسمًا منفردا.

٣- أن ابن باديس له عناية خاصة بالإعجاز البلاغي اللغوي؛ لكونه ذا نزعة بيانية، متذوقة لفنون البلاغة والكلام؛ لذلك أكثر من أمثلته في تفسيره. ومما خصَّهُ ابن باديس كذلك بالعناية (الإعجاز العلمي) حيث أولاه عناية كبيرة، حتَّى إننا نستطيع أن نقول: إنَّه من فرسان هذا الميدان في عصره، حيث كان يشرح ما بدا له من نكات بلاغية في الآيات التي يعرض لتفسيرها، كما كان يصنع شيخه من قبله الطاهر بن عاشور.

٤- أنَّ عبد الحميد بن باديس تأثر تأثرا واضحا بما كتبه (محمد رشيد رضا) في مقدمة تفسيره عن إعجاز القرآن، كما تأثر بكتابات شيخه (الطاهر بن عاشور) في تفسيره عن إعجاز القرآن، كما نجد أنه قد تأثر بالقاضي

عياض وما كتبه عن إعجاز القرآن في كتابه «الشفا في أحوال المصطفى».

٥- **أن ابن باديس** كان موضوعيا إلى حدٍّ كبير في طرحه وبيانه لوجوه إعجاز القرآن الكريم، بعيدا عن التكلف وتحميل الآيات ما لا تحتمل، متقيدا بأصول وقواعد التفسير؛ لذلك نراه في طرحه للإعجاز العلمي متوازنا من غير إفراط ولا تفريط.

توصيات البحث

وأما عن توصيات البحث:

* **يوصي الباحث بتتبع واستقراء كامل لمؤلفات ومقالات ابن باديس،** واستخراج ما يتعلق بإعجاز القرآن، في رسالة علمية أكاديمية؛ فإن له جهودا في هذا الميدان تستحق الجمع والدراسة.

* **كما يوصي الباحث بإجراء دراسات مقارنة بين تفسير ابن باديس،** وتفسير الطاهر بن عاشور، وتفسير محمد رشيد رضا؛ لمعرفة مدى التأثر والتأثير بين علماء المدرسة الإصلاحية المعاصرة.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

١ - «الإتقان في علوم القرآن». السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، (ط ١)، المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٦هـ.

٢ - «اتجاهات التفسير في العصر الراهن». د. عبد المجيد عبد السلام المحتسب. (ط ٣)، عمان: منشورات مكتبة النهضة الإسلامية، ١٤٠٨هـ.

٣- «آثار ابن باديس». ابن باديس، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي. تحقيق: عمار طالبي، (ط ١)، الجزائر: دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ١٣٨٨هـ.

٤ - «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي». البشير الإبراهيمي، محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، (ط ١)، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧م.

٥- «الإعجاز البياني للقرآن». عائشة بنت الشاطئ، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، (د. ط)، القاهرة: دار المعارف، ١٣٩١هـ.

٦- «الإعجاز في نظم القرآن». شيخون، محمود السيد. (ط ١)، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٨هـ.

٧- «إعجاز القرآن». الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب. تحقيق: السيد أحمد صقر، (ط ٥)، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٧م.

٨- «إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني». الخالدي، صلاح عبدالفتاح، (ط ١)، عمان: دار عمار، ١٤٢١هـ.

٩- «**إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**». الرافعي، مصطفى صادق. راجعه واعتنى به: د. درويش الجويدي، (د. ط)، بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٤هـ.

١٠- «**إعجاز القرآن الكريم عند الإمام ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير (عرضا ودراسة)**». علي صالح، محمود علي أحمد. رسالة ماجستير، السعودية، قسم التفسير، الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، العام الدراسي ١٤٣٠هـ.

١١- «**إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية مع المقارنة بكتاب إعجاز القرآن للباقلاني**». العواجي، محمد بن عبد العزيز. (ط ١)، الرياض: دار المنهاج، ١٤٢٧هـ.

١٢- «**الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**». عبد السلام حمدان اللوح، (ط ٢)، غزة: آفاق للطبع والنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ.

١٣- «**البرهان في علوم القرآن**». الزركشي، بدر الدين بن محمد بن عبد الله. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط ٣)، القاهرة: مكتبة دار التراث، ١٤٠٤هـ.

١٤- «**تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)**». محمد رشيد رضا، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني. (د. ط)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

١٥- «**تفسير عبد الحميد بن باديس منهجه وخصائصه**». باي زكوب، عبدالعالي. (د. ط)، ماليزيا: مجلة الإسلام في آسيا، (م ٨)، ٢ ديسمبر ٢٠١١م.

١٦- «دراسات في علوم القرآن». الرومي، فهد بن عبد الرحمن، (ط ١٤)، الرياض (د.ن)، ١٤٢٦هـ.

١٧- «الشفا بتعريف حقوق المصطفى». القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي. تحقيق: عامر الجزار، (د. ط)، القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٥هـ.

١٨- «مباحث في إعجاز القرآن». د. مصطفى مسلم. (ط ٢)، الرياض: دار المسلم، ١٤١٦هـ.

١٩- «مجالس التذكير من حديث البشير النذير». ابن باديس، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي. (ط ١)، الجزائر: مطبوعات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ١٤٠٣هـ.

٢٠- «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (تفسير ابن باديس)». ابن باديس، عبد الحميد بن باديس. اعتنى به وخرج أحاديثه وآثاره: أبو عبد الرحمن محمود، (ط ١)، الجزائر: دار الرشيد، ١٤٣٠هـ.

٢١- «التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)». الطاهر بن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي. (د. ط)، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ.

٢٢- «عبد الحميد ابن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي (ضمن سلسلة أعلام المسلمين)». المطبقاني، مازن صلاح. (ط ٢)، دمشق: دار القلم، ١٤٢٠هـ.

٢٣- «عبد الحميد بن باديس مفسرا». سلوادي، حسن عبد الرحمن. (د. ط)، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٨م.

٢٤- «العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية». ابن باديس، عبد الحميد بن باديس الصنهاجي. تحقيق: محمد الصالح رمضان، (ط ١)، الشارقة: دار الفتح، ١٩٩٥م.

٢٥- «محاضرات ومقالات العلّامة أحمد حماني». حماني، أحمد بن مسعود بن محمد. جمعها وأعتنى بها: عبد الرحمن دويب، (ط ٢)، الجزائر: عالم المعرفة، ٢٠١٥م.

٢٧- «معترك الأقران في إعجاز القرآن». جلال الدين السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. ضبطه وصححه وكتب فهارسه: أحمد شمس الدين، (ط ١)، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ.

٢٨- «معجم أعلام الجزائِر (من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر)». عادل نويهض. (ط ٢)، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ١٤٠٠هـ.

٢٩- «منهجية التفسير عند الإمام ابن باديس». صالحي، عبد الرحيم. رسالة ماجستير، الجزائر: جامعة الجزائر، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، ١٩٩٢م.

٣٠- «موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة المطهرة». يوسف الحاج أحمد. (ط ٢)، دمشق: مكتبة دار ابن حجر، ١٣٤٣هـ.

٣١- «نزول القرآن الكريم». الشايع، محمد بن عبد الرحمن، (ط ١)، (د. ن)، ١٤١٧هـ.

الفهرس

مجلة تدبر

البحث الثاني:

الاستفهام الإنكاري في ضوء القرآن الكريم

أ.د. إسماعيل سعيد رضوان

وزير الأوقاف الفلسطيني السابق، وأستاذ دكتور بقسم الحديث الشريف وعلومه بكلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية - غزة.

- **حصل على درجة الماجستير** في الحديث الشريف وعلومه من الجامعة الأردنية، بأطروحته بعنوان: «مقولات ابن خزيمة في صحيحه».
- **حصل على درجة الدكتوراه** في الحديث الشريف وعلومه من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية في السودان، بأطروحته بعنوان: «عناية السنة بصحة الإنسان».

وله العديد من الكتب والأبحاث العلمية:

- **الكتب:** (طرق تخريج الحديث، منهج الحكم على الأسانيد، دراسات في الحديث النبوي، دراسات في السيرة النبوية).
- **الأبحاث، منها:** (العقل في السنة النبوية دراسة تحليلية تربوية، منهج الإمام عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي «دُحَيْم» في توثيق الرواة، هشيم بن بشير تدليسه ومروياته في صحيح البخاري، تواتر حديث: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وقول الزور، أو قال شهادة الزور»، حصين بن عبد الرحمن السلمي ورواياته في الصحيحين، الأحاديث المرفوعة في نزول المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في الكتب الستة ومسند أحمد).

ملخص البحث

هذا البحث بعنوان «**الاستفهام الإنكاري في ضوء القرآن الكريم**»، وهو أحد علوم بلاغة القرآن الكريم، ضمن القسم الإنشائي منه، في أحد أغراض الاستفهام غير الاستعلامي، وقد تمت الدراسة في إطار المنهج الوصفي التحليلي، وقد تناول البحث مقدمةً، تم خلالها استعراض أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف الدراسة والغاية منها، والدراسات السابقة، ومنهج الباحث، وخطة البحث.

وقد تم تقسيم البحث إلى ثلاثة مباحث: حيث كان المبحث الأول يعالج مفهوم الاستفهام الإنكاري؛ حيث تم تعريفه كمصطلح مركّب، بتناول كل مفردة على حدة، لغةً واصطلاحًا، وذِكر ما كتبه أصحاب مؤلفات علوم القرآن، وكذلك أهل اللغة العربية في هذا الموضوع الدقيق، وكذلك معرفة كيفية تناول القرآن الكريم لهذا الموضوع الدقيق؛ حيث تبيَّن أن الأمثلة التطبيقية للاستفهام الإنكاري في القرآن الكريم، تجاوزت المائة وخمسين موضعًا، كما تناول المبحث الثاني أمثلة على الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الكفر، من الأمم الغابرة، ومشركي العرب، وأهل الكتاب والمنافقين، وأما المبحث الثالث، فقد ذكر أمثلة على الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الإيمان، من الملائكة، والأنبياء، والمؤمنين.

وقد بيَّنت الخاتمة سبع نتائج، وثلاث توصيات، وقد تم الرجوع إلى واحد وسبعين مرجعًا.

الكلمات المفتاحية:

الاستفهام ـ الإنكار ـ القرآن ـ النفي ـ التوبيخ ـ التعجب

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبده ورسوله، وبعد:

فمعلوم أن القرآن الكريم هو دستور هذه الأمة، ومصدر عزتها؛ لما تشتمل عليه آياته وسوره من هداية للناس، وإعجازهم كافة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقد تعددت وجوه إعجاز القرآن الكريم، وإشارات هداياته، لكن الوجه الأبرز الذي لا يتقدم عليه وجه معجز دالٌّ على أن القرآن الكريم من عند الله، إنما هو الوجه البلاغي، المتمثل في البيان والبديع والمعاني[(١)]؛ ومن تفرُّعات علوم المعاني الأسلوب الإنشائي، الذي ينقسم إلى: إنشاء طلبي، وآخر غير طلبي، ومن الأساليب الإنشائية الطلبية الاستفهام الذي تتعدد معانيه وأغراضه ودلالاته، ومنها الإنكار[(٢)].

ويركز هذا البحث على الاستفهام الإنكاري في ضوء القرآن الكريم؛ لما يترتب على معرفة هذا الموضوع المراد البحث فيه من كثير من الأحكام والعبر

---

(١) ينظر: أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني (ص١٠).

(٢) هذه خلاصة قراءة كتاب: علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني)، د. محمد أحمد قاسم، الدكتور محيي الدين ديب.

والعظات التي يثريها تفرعات هذا الموضوع.

والله أسأل أن يوفقني إلى عمل هذا البحث القرآني، وأن يقدِّرني لاستخراج اللآلئ المرجو إخراجها من هذا البحث، إنه وليُّ ذلك ومولاه.

أولًا: أهمية الموضوع:

تبرز أهمية الموضوع من خلال النقاط الآتية:

١) هذا الموضوع له الأهمية الكبيرة في بيان أعظم وجوه الإعجاز القرآني، وهو الإعجاز البلاغي؛ حيث يركز على أبرز تفرعات الجمل الإنشائية الطلبية - وهو الاستفهام - التي تهدف إلى ترسيخ مفاهيم الهداية.

٢) البحث في هذا الموضوع يثري المعنى التفسيري للقرآن الكريم، لا سيما في الجانب اللغوي.

٣) البحث في هذا الموضوع فيه تعمق في تدبر القرآن الكريم وآياته.

ثانيًا: أسباب اختيار الموضوع:

١) نيل رضا الله تعالى، من خلال التدبر في أحد موضوعات علم المعاني التي ذكرها القرآن الكريم، وهو الاستفهام الإنكاري.

٢) مثّلت أهمية الموضوع سببًا من أسباب اختياره.

٣) رغبة الباحث في الاستفادة الشخصية، ومن ثَمَّ الإفادة لأمة الإسلام بخلاصة هذا الموضوع الدقيق الذي يعمق الهداية لدى المسلم.

٤) تهيئة جميع أدوات البحث لهذا الجهد البحثي.

ثالثًا: أهداف الدراسة والغاية منها:

للدراسة أهداف وغايات، أذكر منها:

١) بيان حدِّ الاستفهام الإنكاري؛ ليكون جامعًا مانعًا.

٢) ذكر خلاصة استعمالات القرآن الكريم لهذا الموضوع، واللطائف المستفادة.

٣) ذكر أنواع المخاطبين في جمل الاستفهام الإنكاري، ومن ثَمَّ معرفة الأحكام المترتبة على ذلك.

رابعًا: الدراسات السابقة:

بعد البحث والمطالعة وجد الباحث أن كثيرًا من الأبحاث والدراسات العلمية والكتب القيِّمة والمقالات قد تناولت هذا الموضوع، سواء أكان ذلك بطريق التعرض المباشر له، أم بالتعرض له في ثنايا الدراسة، لكنني لم أعثر على بحث علميٍّ محكّم يعالج هذا الموضوع، من خلال التفصيل الدقيق لجميع ما ذكر في القرآن الكريم في الاستفهام الإنكاري، وبيان أحوال المخاطبين في الجمل الاستفهامية الإنكارية؛ لذا يركز هذا البحث على ما لم يتم استدراكه - فيما وقفنا عليه - في الأبحاث والدراسات السابقة، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

خامسًا: منهج الباحث:

المنهج في هذا البحث هو المنهج الوصفي التحليلي، وذلك من خلال وصف موضوع الاستفهام الإنكاري، كما ذُكِر في المصادر الأصلية المعتمدة، مع ذكر بعض النماذج له في القرآن الكريم، وتحليلها التزامًا ببيان أحوال المخاطبين في الجمل القرآنية التي تناولت ذكر الاستفهام الإنكاري والأحكام المترتبة على ذلك.

سادسًا: خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن تكون خطته مشتملة على مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، موزعة على النحو الآتي:

المقدمة

وتشتمل على: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف الدراسة والغاية منها، والدراسات السابقة، ومنهج الباحث، وخطة البحث.

المبحث الأول

مفهوم الاستفهام الإنكاري

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول**: تعريف الاستفهام الإنكاري لغةً، واصطلاحًا.
- **المطلب الثاني**: الاستفهام الإنكاري في كتب علوم القرآن واللغة العربية.
- **المطلب الثالث**: الاستفهام الإنكاري في الاستعمال القرآني.

المبحث الثاني

الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الكفر

وفيه أربعة مطالب:

- **المطلب الأول**: الاستفهام الإنكاري في مخاطبة الكفار من الأمم الغابرة.
- **المطلب الثاني**: الاستفهام الإنكاري في مخاطبة مشركي العرب.
- **المطلب الثالث**: الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الكتاب.
- **المطلب الرابع**: الاستفهام الإنكاري في مخاطبة المنافقين.

المبحث الثالث

الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الإيمان

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول**: الاستفهام الإنكاري في مخاطبة الملائكة.
- **المطلب الثاني**: الاستفهام الإنكاري في مخاطبة الأنبياء.
- **المطلب الثالث**: الاستفهام الإنكاري في مخاطبة المؤمنين.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

فهرس المصادر والمراجع.

المبحث الأول

مفهوم الاستفهام الإنكاري

يركز هذا المبحث على ذكر التعريف الدقيق للاستفهام الإنكاري، وكذلك التعرف إلى ما ذكره أهل اللغة العربية، وأهل علوم القرآن، فيما يتعلق بالاستفهام الإنكاري، ويركز هذا المبحث - أيضًا - على بيان طريقة استعمال الخطاب القرآني لهذا الموضوع.

وقد مثَّل هذا المبحث توضيحًا عمليًّا لذلك، من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

تعريف الاستفهام الإنكاري لغةً واصطلاحًا

يستفاد التعريف الاصطلاحي للاستفهام الإنكاري من الأصل اللغوي والمعاني اللغوية والاصطلاحية لمفردات هذا المصطلح المركَّب، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: تعريف الاستفهام:

الاستفهام لغةً:

الفاء والهاء والميم أصلٌ يدلُّ على العلم بالشيء[(١)]، **واستفهم**: طلب علم الشيء[(٢)]، **واستفهمه**: سأله أن يفهِّمه، أي: يعلِّمه[(٣)]، **ويتبين مما سبق أن الاستفهام في اللغة يعني**: سؤال آخر طلب العلم بشيءٍ معين، وهذا يحمل معنى التصور للشيء، وليس الاكتفاء بعلمه من مصدرٍ.

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس (٤/ ٤٥٧) مادة (ف هـ م)، المصباح المنير، الفيومي (٢/ ٤٨٢) مادة (ف هـ م).

(٢) ينظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي (ص١١٤٦) مادة (فهم).

(٣) ينظر: لسان العرب، ابن منظور (١٢/ ٤٥٩) مادة (فهم).

الاستفهام اصطلاحًا:

تعددت تعريفات الاستفهام اصطلاحًا عند أهل العربية والاختصاص، وتفصيل ذلك في ذكر بعض منها فيما يأتي:

* **تعريف الجرجاني وكذا المناوي والجرجاني بأنه:** طلب فهم الشيء، واستعلام ما في ضمير المخاطب، وقيل: هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن [أي: بأدوات مخصوصة]؛ فإن كانت تلك الصورة وقوع نسبة بين الشيئين [مطابقة للواقع] أو لا وقوعها [غير مطابقة للواقع]؛ فحصولها هو التصديق [إدراك مطابقة النسبة الكلامية للواقع أو عدم مطابقتها له]، وإلا فهو التصور [إدراك الموضوع، أو المحمول، أو النسبة المجردة، أو اثنين من هذه الثلاثة، أو الثلاثة][(١)].

* **تعريف ابن القاضي التهانوي بأنه:** «عند أهل العربية من أنواع الطلب الذي هو من أقسام الإنشاء، وهو كلام يدل على طلب فهم ما اتصل به أداة الطلب»، وشرح ذلك بقوله: «فلا يصدق على افهم؛ فإن المطلوب ليس فهم ما اتصلت به؛ لأن أداة الطلب صيغة الأمر، وقد اتصلت بالفهم، وليس المطلوب به طلب فهم الفهم»[(٢)].

* **تعريف السيوطي بأنه:** طلب الفهم، وهو بمعنى الاستخبار، وذكر قولًا لابن فارس بأن الاستخبار ما سبق أولًا، ولم يفهم حق الفهم؛ فإذا سألت عنه ثانيًا كان استفهامًا[(٣)]، وقد ذكر الكفوي أن كل استفهام استخبارٌ وليس

---

(١) ينظر: التعريفات، الجرجاني (ص١٨)، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي (ص٤٩)، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، الأحمد نكري (١/ ٧٢)، الإيضاح في علوم البلاغة، خطيب دمشق، حاشية المحقق محمد خفاجي (٣/ ٥٥).

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (١/ ١٤٨).

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٦٧).

العكس، وأن كل استعلام استفهامٌ وليس العكس؛ لأن الاستعلام طلب العلم، وهو أخصّ من الاستفهام، وليس كل ما يُفهَم يُعْلَم، بل قد يظن ويخمن كل استفهام دخل في الجحود[١]، وقد ذكر السيوطي تضعيف هذه المعلومة، حينما رواها بصيغة التضعيف عن ابن فارس[٢].

وبالنظر إلى التعريف اللغوي وبالتمحيص فيما يخدم الدراسة التي نحن بصددها، يتبين أن التعريف الاصطلاحي الأدقَّ للاستفهام، هو تعريف ابن القاضي التهانوي؛ فهو جامع مانع.

❁ ثانيًا: تعريف الإنكار:

■ الإنكار لغةً:

«النُّون والكاف والراء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خلافِ المعرفةِ التي يسكنُ إليها القلبُ»[٣]، والنَّكْر (بفتح الكاف وسكونها): الدهاء والفطنة، والنَّكْرة: إنكارك الشيء، وهو خلاف المعرفة، والنَّكِرَة: مَا يخرُجُ من الحُوَلاءِ والخُراجِ من دمٍ أَو قَيْحٍ، كالصَّديد، وأنكره إنكارًا، واستنكره وتناكره: إذا جهله[٤]، والإنكار: الاستفهام عما ينكره، وذلك إذا أنكرت أن تثبت رأي السائل على ما ذكر، أو تنكر أن يكون رأيه على خلاف ما ذكر[٥]، والنُّكْر والمنكر: خلاف المعروف[٦].

ويتبين مما سبق أن الإنكار يطلق على معانٍ في اللغة، منها: الدهاء والفطنة،

---

(١) ينظر: الكليات (ص٨٣).

(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٦٧).

(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس (٥/ ٤٧٦) مادة (ن ك ر).

(٤) ينظر: تاج العروس، مرتضى الزبيدي (١٤/ ٢٨٧ - ٢٨٩).

(٥) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده (٦/ ٨٠٤).

(٦) ينظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار، عياض السبتي (٢/ ١٢).

وخلاف المعرفة الذي هو الجهل، والاستفهام عمَّا هو منكَر، وخلاف المعروف، ولعلَّ أكثر المعاني اللغوية المترتبة على الأصل اللغوي ملامسة لهذه الدراسة، هو الاستفهام عمَّا هو خلاف المعرفة الساكنة في القلب؛ إذ إنَّ الإنكار يلامس مخاطبة القلب والوجدان أكثر من مخاطبة المعرفة الظاهرة، فضلًا على أن خلاف المعرفة الساكنة في القلب تكون نتيجة لما قبَّحه الشرع الحنيف، مما يؤثر في نسبة الإيمان الذي يبدأ من التصديق بالقلب.

الإنكار اصطلاحًا:

تعددت تعريفات العلماء لمصطلح الإنكار، وبيان ذلك فيما يأتي:

* **تعريف الفقهاء بأنه:** «ضد الإقرار»[(١)].

* **تعريف المناوي بأنه:** «ضد العرفان، وأصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره وذلك ضرب من الجهل، وربما ينكر الإنسان الشيء مع حصول صورته في القلب فيكون كاذبًا»[(٢)].

* **تعريف الكفوي بأنه:** «ما ظهر امْتِنَاعه بِحَسب النَّوْع أَو الشَّخْص أَو بحث عَمَّا يدل عَلَيْهِ أقْصَى مَا يُمكن فَلم يُوجد، وإذا كان الإنكار من الله فإنه يعني لا ينبغي أن يعقل، أو بمعنى لا يمكن»[(٣)].

* **تعريف ابن القاضي التهانوي بأنه:** «هو الكلام الملقى مع المنكر للحكم»[(٤)].

---

(١) التعريفات الفقهية، محمد البركتي (ص٣٧)، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، الأحمد نكري (١/ ١٣٣).

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف (ص٦٥).

(٣) ينظر: الكليات (ص٢٠٠).

(٤) ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (١/ ٢٨٦).

وبالنظر إلى التعريف اللغوي وبالتمحيص فيما يخدم الدراسة التي نحن بصددها، يتبين أن التعريف الاصطلاحي الأدقُّ للإنكار هو تعريف المناوي؛ فهو جامع مانع.

❁ ثالثًا: مصطلح الاستفهام الإنكاري:

بالنظر إلى التعريف الاصطلاحي لكل مفردة من مفردات هذا المصطلح المركب، يتبين أن الاستفهام الإنكاري هو: نوع متفرع من أنواع الطلب الذي هو من أقسام الإنشاء الذي هو أحد أنواع علم المعاني، وهو كلام يدل على طلب فهم ما اتصل به أداة الطلب، بغرض الرد على القلب، ولا يتصوره، وربما ينفي هذا الطلب مع حصول صورته؛ لإفادة التكذيب.

المطلب الثاني

الاستفهام الإنكاري في كتب علوم القرآن واللغة العربية

إن الناظر في كتب علوم القرآن يجد أن المتقدمين هم الذين ذكروا جميع العلوم التي تتعلق بكتاب الله تعالى، مما وُجِد في زمانهم؛ ولذا فإنهم قد ذكروا الاستفهام الإنكاري ضمن علم الإنشاء الطلبي في القرآن الكريم، وأما المتأخرون؛ فإنهم قد ذكروا مباحث محدودة من علوم القرآن، ومن ثَمَّ فقد أغفلوا كثيرًا من العلوم التي تتعلق ببلاغة القرآن. ويرى المتتبع لموضوع الاستفهام الإنكاري أن المعاصرين ممن كتب في اللغة العربية هم من ذكروا الاستفهام الإنكاري، من خلال ذكر شواهد في هذا الفن من الآيات القرآنية، **وتفصيل ذلك فيما يأتي:**

أولًا: الاستفهام الإنكاري في كتب علوم القرآن المتقدمة:

لعل أبرز كتب علوم القرآن المتقدمة موجودة في كتابي: «البرهان في علوم القرآن» للإمام الزركشي (٧٩٤هـ)، و«الإتقان في علوم القرآن» للإمام السيوطي (٩١١هـ) - رغم العلم بكثير من الكتب التي اعتمد عليها هذان العالمان في كتابيهما، ككتاب الحوفي وكتاب البلقيني، وغيرهما - وقد تفحصت هذين الكتابين، **فوجدت الآتي:**

١) ذكر الإمام الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **الاستفهام الإنكاري** ضمن حديثه عن النوع الخامس والأربعين، في أقسام معنى الكلام، عن الخبر والإنشاء، وذكر من الإنشاء الاستفهام الذي قد يخرج عن حقيقته الإنشائية، إلى ما هو بمعنى خبر، وهو بذلك ضربان: أحدهما نفي، ويقصد بذلك الإنكار، والآخر إثبات وهو التقرير[(١)].

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٢٨).

٢) ذكره الإمام السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الاستفهام الإنكاري في النوع السابع والخمسين من أنواع علوم القرآن، ضمن حديثه عن الخبر والإنشاء؛ حيث ذكر أن من أقسام الإنشاء الاستفهام، وذكر له أغراضًا، وبيَّن أن أول هذه الأغراض هو الإنكار، وبيَّن من أغراض الاستفهام الإنكاري: كالنفي، والتكذيب، والتوبيخ ...[1].

ثانيًا: الاستفهام الإنكاري في كتب اللغة العربية:

إن أهل اللغة من السابقين قد ذكروا الاستفهام الإنكاري في معرض ذكر الشواهد البلاغية في أغراض الاستفهام، وبالتحديد عند التعرض للنصوص، وأعظمها القرآن الكريم؛ حيث ذكر المفسرون - لا سيما من تعرَّض إلى الأسرار البلاغية - كثيرًا من أغراض الاستفهام، ومن أبرز هذه الأغراض الاستفهامُ الإنكاريُّ، وقد ذكر أهل اللغة المعاصرون الاستفهامَ الإنكاريَّ، **وبيان ذلك في النماذج الآتية:**

١) ذكره الأستاذ عبد العزيز عتيق في كتابه «علم المعاني»، في الفصل الثالث، تحت عنوان «علم المعاني وأثره في بلاغة الكلام»[2]، وبيَّن في المبحث الأول الكلام في الإنشاء، وبيَّن أن من أقسام الإنشاء الاستفهام، وأن أقسام الاستفهام تسعة عشر قسمًا، وذكر الإنكار في القسم التاسع، ويلاحظ أن شواهده منها ما هو تمثيل من تلقاء نفسه، ومنها ما هو استشهاده بالآيات القرآنية.

٢) ذكره الدكتوران محمد أحمد قاسم ومحيي الدين ديب في كتابهما علوم البلاغة «البديع والبيان والمعاني»، في قسم علم المعاني، في الباب الثاني: الإنشاء وأقسامه، في قسم الإنشاء الطلبي، الذي قسَّماه إلى خمسة أقسام، وكان الاستفهام

---

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٦٨).

(٢) ينظر: علم المعاني، عبد العزيز عتيق (ص١٠٢).

هو القسم الثالث، وذكرا معاني مستفادة منها، وبيَّنا أنها تصل إلى خمسة عشر معنىً، وكان الإنكار هو المعنى الرابع، وقد لوحظ أنهما كانا يذكران الشواهد من تلقاء نفسيهما تارةً، ومن القرآن الكريم تارة أخرى[(١)].

٣) ذكره العلّامة أحمد المراغي في كتابه علوم البلاغة «البيان والمعاني والبديع»، في حديثه عن علم المعاني، في الباب الثاني: الإنشاء، في المبحث الثالث: الاستفهام، في تنبيه: قد تخرج ألفاظ الاستفهام عن أصل وضعها، فيستفهم بها عن الشيء مع العلم به؛ لأغراض تستفاد من سياق الحديث، ودلالة الكلام، وذكر من ذلك الإنكارَ، وأن له أغراضًا أهمها التوبيخ والتكذيب...[(٢)].

٤) ذكره الأستاذ عبد الرحمن الدمشقي في كتابه «البلاغة العربية»، في علم المعاني، في الباب الأول، في الفصل الرابع، بعنوان: «الجملة الإنشائية وأقسامها»؛ حيث تكلم عن الاستفهام، وبيَّن أن البلاغيين أحصوا معاني كثيرة خرج إليه الاستفهام عن حقيقته، وذكر من ذلك اثنين وثلاثين معنىً، وكان الإنكار أول هذه المعاني[(٣)].

٥) جاء في كتاب «البلاغة في علم المعاني» [ضمن الكتب المنهجية في جامعة المدينة العالمية]، في الدرس السادس عشر، في تكملة الأساليب الإنشائية، أن الاستفهام قد يأتي ويراد به معنى الإنكار، وقد يكون هذا الإنكار توبيخيًّا أو تكذيبيًّا...[(٤)].

---

(١) ينظر: علوم البلاغة «البديع والبيان والمعاني»، محمد أحمد قاسم ومحيي الدين ديب (ص٢٩٧).

(٢) انظر: علوم البلاغة «البيان والمعاني والبديع»، أحمد المراغي (ص٦٩).

(٣) انظر: البلاغة العربية، عبد الرحمن الدمشقي (١/ ٢٧٠).

(٤) انظر: البلاغة في علم المعاني، جامعة المدينة العالمية (ص٣٨٩).

المطلب الثالث

الاستفهام الإنكاري في الاستعمال القرآني

تبيّن من خلال الإحصاء في آيات القرآن الكريم أن الاستفهام الإنكاري ورد فيما يقرب من مائة وخمسين موضعًا، في مائة وخمسين آيةً، في سبعٍ وثلاثين سورةً، تسعٌ وعشرون منها مكيٌّ، وثمانٍ منها مدنيٌّ.

وقد ورد الاستفهام الإنكاري في القرآن الكريم، من خلال الأدوات الاستفهامية الآتية:

* أولًا: حرف الهمزة، وهذه الأداة هي الأكثر ذكرًا في الخطاب القرآني، مما تناول الاستفهام الإنكاري، ومن أمثلة ذلك:

١) قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، فإن همزة الاستفهام ذكرت هنا على سبيل الإنكار الاستبعادي(١)؛ حيث يستبعد هذا الطلب من كل ذي عقل.

٢) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: ٦٧]، وقوله ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ فيه إنكار(٢) للتكذيب والنفي.

٣) قوله تعالى: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥]، فإنه في هذا الاستفهام ضربٌ من الإنكار على رغبة المؤمنين في إيمان من هم

---

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (١/ ٣٧٤)، حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (١/ ٤٥٤).

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (١/ ٤٠٤).

شواهد اقتناعهم قائمة، ولكنهم يستبعد إيمانهم(١)، وكأنهم أيأسهم الله تعالى من إيمان هذه الفرقة من اليهود(٢)، وذكر بعضهم أن هذا الخطاب على أمرٍ فيه بُعْدٌ؛ إذ قد سلف لأسلاف هؤلاء اليهود وأفاعيل سوءٍ، وهؤلاء على ذلك السَّنَن(٣).

٤) قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ١١﴾ [النازعات: ١١]، ففي هذا الاستفهام إنكار أو توكيد لإنكار الرد، ونفيه بنسبته إلى حالة منافية له؛ حيث ظنوا أنه من فساد البدن، وتفرق أجزائه يلزم فساد ما هو الإنسان حقيقةً(٤).

*** ثانيًا: الاسم كيف، وقد ورد في أكثر من موضع، ومن ذلك:**

١) قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٨﴾ [البقرة: ٢٨]، فقد ذكر بعضهم أن هذا الاستفهام إنكاريٌّ(٥)، وذكر بعضهم أن الاستفهام للتعجب أو التقرير أو التوبيخ(٦)، وذكر آخرون أنه للتبكيت والتعنيف(٧)، ولا شكَّ أن السياق القرآني حمَّال لكل هذه الأغراض.

٢) قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦﴾ [آل عمران: ٨٦]،

(١) انظر: المرجع السابق نفسه (١/ ٣٤٨).
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ١).
(٣) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي (١/ ٢٦٦).
(٤) انظر: حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (٣١/ ٧٥)، فتح البيان، القنوجي (١٥/ ٥٨).
(٥) انظر: التفسير المظهري، المظهري (١/ ٤٣).
(٦) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (١/ ٤٨)، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٢٤٨).
(٧) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي (٢/ ٣٧٥).

فهذا الاستفهام إنكاريٌّ استبعادي، على سبيل التوبيخ والتقريع[١].

٣) قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠١]، فهذا الاستفهام للتعجب[٢]، والمراد منه المنع والتغليظ، أو الإنكار والاستبعاد، ومعناه: من أين يأتيكم ذلك ولديكم ما يمنع منه ويقطع إرادته؟ والسياق القرآني حمَّال للغرضين[٣].

*** ثالثًا: الأداة لِمَ، وقد وردت في مواضع، منها:**

١) قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: ٩١]، فهذا الاستفهام إنكاري غرضه التكذيب والتوبيخ[٤].

٢) قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: ٤٢]، فهذا الاستفهام إنكار وتوبيخ[٥].

*** رابعًا: الاسم مَنْ، وقد ذُكِر في القرآن الكريم في مواضع:** منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

---

(١) انظر: الفواتح الإلهية، الشيخ علوان (١/ ١١٧)، التفسير المظهري، المظهري (٢/ ٨٤).

(٢) انظر: التفسير المظهري، المظهري (٢/ ١٠٣)، فتح البيان، القنوجي (٢/ ٢٩٩)، البحر المديد، ابن عجيبة (١/ ٣٨٧).

(٣) انظر: التفسير المظهري، المظهري (٢/ ١٠٣)، فتح البيان، القنوجي (٢/ ٢٩٩)، البحر المديد، ابن عجيبة (١/ ٣٨٧).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ٣٠).

(٥) انظر: فتح البيان، القنوجي (٨/ ١٦٤).

﴿ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف: ٣٢]، فهذا الاستفهام إنكاري توبيخي؛ فلا يحتاج إلى جواب؛ لأنه لا يراد به استعلام(١).

* **خامسًا: الاسم ما، وقد ورد في مواضع**: منها قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٦﴾ [القلم: ٣٦]، فهو استفهام إنكاري، بمعنى: الإنكار أن يكون له وجه مقبول يعتدُّ به؛ حتى يتمسك به(٢).

* **سادسًا: الاسم أنَّى، وقد ورد في مواضع**: منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، أي: كيف يملكنا؟ ونحن أحق بالملك منه؟ ومن أيِّ جهة؟، وهي للإنكار(٣).

* **سابعًا: الحرف أيُّ، وقد ورد في مواضع**: منها قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦﴾ [الرحمن: ١٦]، «والاستفهام؛ لتقرير الآلاء، وإنكار تكذيبهما؛ فإن ذكر الآلاء سبب لإقرارها وشكر منعها، والرد عن تكذيبها، وكذا الوعيد على الكفران والوعد سببان للإقرار والشكر»(٤).

وقد اختلف المخاطبون بالاستفهام الإنكاري في ضوء القرآن الكريم في العهدين المكي والمدني؛ حيث غلب على الاستفهام الإنكاري في العهد المكي ما يأتي:

* **أولًا: خطاب أهل قريش بالأدلة الحسيّة؛ لتنتبه عقولهم وحواسُّهم؛ لتوحيد الله**، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ

---

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الدمشقي (٩/ ٩٠).

(٢) انظر: حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (٣٠/ ١٠٠).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣/ ٢٤٦).

(٤) التفسير المظهري، المظهري (٩/ ١٤٨).

﴿ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ [القصص: ٧١]، أي: أخبروني يا أهل مكة إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ دائمًا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا تطلع عليكم الشمس مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ تطلبون فيه المعيشة، و«مَنْ» للاستفهام الإنكاري، والمعنى: لا إله غير الله يأتيكم به(١).

* **ثانيًا: ذكر قصص الأمم السابقة؛ فتارة بالإنكار للمكذبين،** من خلال استخدام الاستفهام الإنكاري، كقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: ١١١]، و«الاستفهام: للإنكار، أي: كيف نتبعك ونؤمن لك، والحال أن قد اتبعك الأرذلون»(٢)، وتارةً بإنكار الأنبياء والمرسلين لأقوامهم، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [النمل: ٣٦]، وهو إنكارٌ لإمدادِهم لنبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بالمالِ مع علو شأنِه وسعَة سُلطانِه، وتوبيخٌ لهم بذلك(٣).

* **ثالثًا: ذكر الاستفهام الإنكاري من قِبَلِ كفار قريش،** فيما يتعلق بالمفاضلة بين دين الإسلام ودين آبائهم، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزُّخرُف: ٥٨]، حيث إنهم سألوا عن الأفضل: هل دين آبائهم أم دين الإسلام؟ ولا شكَّ أنهم لم يسألوا هذا السؤال لأجل المعرفة، وإنما لأجل الإنكار الذي يكون غرضه في هذه الآية النفي والاستبعاد.

* **رابعًا: مخاطبة الله تعالى لكفار قريش مباشرةً، بالاستفهام الإنكاري،** كقوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر: ٤٣]، حيث خوَّف الله

(١) انظر: التفسير المظهري، المظهري (٧/ ١٧٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٤/ ١٢٦).

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود (٦/ ٢٨٥).

تعالى كفار قريش، فقال: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ ﴾، والاستفهام للإنكار[1].

* **خامسًا: ذكر الاستفهام الإنكاري من قِبَل الله تعالى عن الكفار**، كقوله تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الصافات: ١٧٦]، أي: بعد هذا التكرير ينكرون وقوع عذاب الله تعالى؛ فيستعجلون به متبجحين بهذا الطلب؟[2]

* **سادسًا: مخاطبة الصالحين لأقوامهم بالاستفهام الإنكاري**، كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨]، أي: أتقصدون قتله ظلمًا بلا دليل؟[3]

* **سابعًا: مخاطبة الله تعالى لنبيه محمد ﷺ** أن يسأل الكافرين سؤالًا غرضه الإنكار، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الزُّمَر: ٦٤]، أي: «أفغير الله أعبد بأمركم؟ وذلك حين قال له المشركون: استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك»[4].

❁ أما الاستفهام الإنكاري في العهد المدني فقد غلب عليه ما يأتي:

* **أولًا: مخاطبة أهل الكتاب والمنافقين بالاستفهام الإنكاري**، ومن المعلوم أن الخطاب لهذين الصنفين يكون فيه الاستفهام الإنكاري للتوبيخ والتقريع، وكذلك للتكذيب.

* **ثانيًا: الخطاب المدني بيّن أن الاستفهام الإنكاري** ذكر في مقام خطاب المؤمنين، بما يتعلق بهذه الأصناف المذكورة، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ

---

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني (٥/ ١٥٤).

(٢) انظر: حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (٢٤/ ٢٩٠).

(٣) انظر: حدائق الروح والريحان (٢٥/ ١٦٩).

(٤) الكشاف، الزمخشري (٤/ ١٤١).

﴿أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥].

* **ثالثًا: الخطاب المدني بيّن أن الاستفهام الإنكاري** ذكر في حق الصحابة الكرام في غزوة أحد، ولكن بغرض النفي والتعجب من الحالة التي هم عليها حالة سماعهم خبر مقتل نبي الرحمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وبعد انتهاء المعركة ذكر في القرآن الكريم استفهامًا إنكاريًّا غرضه التعجب والتقرير، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ١٦٥].

* **رابعًا: الخطاب الإنكاري بيّن أن الاستفهام الإنكاري** ذكر في الرد على كفار قريش، حينما بيّنوا أن سبب عبادتهم للأصنام اتباع الآباء، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٤].

* **وخلاصة ما سبق أن الاستفهام الإنكاري ذكر في العهدين: المكي، والمدني،** غير أن لكل عهدٍ ميزاته الخاصة به: من جهة المخاطبين، ومن جهة أغراض الاستفهام الإنكاري، ومن جهة طبيعة المعالجة.

المبحث الثاني

الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الكفر

يركز هذا المبحث على بيان مخاطبة أهل الكفر بأدوات الاستفهام الإنكاري، من خلال مخاطبة الكفار، سواء أكانوا من الأمم الغابرة، أو من مشركي العرب، أو من أهل الكتاب، أو من المنافقين.

وقد مثَّل هذا المبحث توضيحًا عمليًّا لذلك، من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

الاستفهام الإنكاري في مخاطبة الكفار من الأمم الغابرة

يركز هذا المطلب على بيان أثر الاستفهام الإنكاري في مخاطبة الكفار من الأمم التي كانت في عهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إلى ما قبل بعثة النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث يتعرض هذا المطلب إلى مسألة استخدام الاستفهام الإنكاري، في الخطاب المباشر من قبل الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أو من قبل الكفار من قومهم، أو من قبل المصلحين من الأقوام التي كذَّبت أنبياءها، وتوضيح ذلك فيما يأتي:

* **أولًا: الاستفهام الإنكاري في قصة نبي الله نوح** عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث ورد في ذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥ - ١١٣]، حيث إن نبي الله نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كذَّبه قومه، فكان تكذيبهم له بمثابة تكذيب رسالة الله تعالى،

ومن ثَمَّ رسل الله تعالى، فقال لهم بأداة الاستفهام الإنكاري: ألا تتقوا الله وتخافوا غضبه؟ فإني أمين فيما بينكم وبين الله تعالى، وقد ذكر بعض المفسرين أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يسمى «الأمين» قبل بعثته، وهكذا جميع الأنبياء، لا سيما خيرهم محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث كان يسمى - قبل بعثته - «الصادق الأمين»(١)، وبعد أن أقام الدليل على صدق رسالته، وعظيم نصحه، وأمانته لهم عجزوا عن الرد عليه، فتذرَّعوا بحجةٍ واهية، لا تخرج إلا من ضعيف الحجة والبيان والعقيدة، فقالوا له باستفهام إنكاري: كيف نؤمن لك ونصدقك والحال أنه قد اتبعك الأقلون مالًا وجاهًا، من فقراء الناس وضعفائهم؟(٢) وغرض الاستفهام الإنكاري هنا هو النفي للمستقبل، بمعنى لا يكون، وإن سر الجمال البلاغي بمجيء الاستفهام الإنكاري بدل النفي المباشر هو أن الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جوابًا يحتاج إلى تفكير، يقع به هذا الجواب في موضعه، ولما كان المسئول يجيب بعد تفكير ورويَّةٍ عن هذه الأسئلة بالنفي، كان في توجيه السؤال إليه حمل له على الإقرار بهذا النفي، وهو أفضل من النفي ابتداءً(٣)؛ إذ إنَّ هذا يتناسب مع طبيعة ردِّهم الذي ينمُّ عن عجز، رغم الافتراء المبيَّت من قِبَلِهم.

* **ثانيًا: الاستفهام الإنكاري في قصة نبي الله هود** عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث ورد ذلك في أكثر من ستة مواضع: ثلاثةٌ منها باستفهام إنكاريٍّ من قبل نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه الذين كفروا؛ حيث تدرَّج معهم بأساليب دعوية، وتوضيح ذلك: أن الله تعالى بيَّن

---

(١) ينظر: المستدرك على الصحيحين، الحاكم، كتاب الصوم، بسم الله الرحمن الرحيم أول مناسك الحج (١/ ٦٢٨) حديث رقم (١٦٨٣)، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وله شاهد صحيح على شرطه»، وانظر: أخبار مكة، الأزرقي (١/ ١٦٤).

(٢) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب (٨/ ٥٣٢٨)، حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (٢٠/ ٢٥٧).

(٣) ينظر: من بلاغة القرآن، أحمد البدوي (ص١٢٦).

أنَّ خطاب هذا النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه كان ابتداءً بتحذيرهم مما هم عليه من التكذيب والكفر بآيات الله تعالى، فقال لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]، حيث استفهم هذا النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ من قومه الكافرين استفهامًا إنكاريًّا غرضه الاستبعاد والتقريع والتوبيخ لحالتهم التي هم عليها، وداعيًّا إياهم أن يحذروا عقاب الله تعالى، بما يشعر شدة خوف هذا النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه، وشفقته بهم؛ حتى لا يصيروا إلى غضب الله تعالى(١)، وصحب لهم كثيرًا من آيات الله تعالى الكونية، وأخبار الأمم الغابرة، لا سيما قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد كان هذا باستفهام إنكاري توبيخي آخر، من خلال قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: ٦٩](٢)، وكان ردُّ قومه أن جادلوه في حجج واهية، فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]، فإن هذا الاستفهام فيه إنكار واستبعادٌ لاختصاص الله وحده بالعبادة وترك دين الآباء، الذي يتمثل في عبادة الأصنام، واتخاذهم شركاء مع الله تعالى في العبادة؛ لأنهم أحبوا ما نشأوا عليه، وألفوا تديُّن هؤلاء الآباء، فعندها تبجحوا مع نبيهم، وقالوا له: إن كنت من الصادقين في الإنذار من وعيد إلهك - الذي هو الله تعالى - فعجِّل لنا به(٣)، فعندها غضب نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ من قولهم، وخاطبهم مستفهمًا استفهامًا إنكاريًّا، بقوله: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف: ٧١]، حيث إنَّ «هذا إنكار منه لمخاصمتهم له فيما لا ينبغي فيه الخصام، وهو ذكر ألفاظ ليس تحتها

(١) ينظر: حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (٩/ ٣٨٩).
(٢) ينظر: المرجع السابق نفسه (٩/ ٣٩٢).
(٣) ينظر: الكشاف، الزمخشري (٢/ ١١٧).

مدلول يستحق العبادة؛ فصارت المنازعة باطلة بذلك، ومعنى ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾: سميتم بها أنتم وآباؤكم، أي: أحدثتموها قريبًا أنتم وآباؤكم»[1].

وقد ورد في سورة أخرى أنه أنكر عليهم بأداة الاستفهام؛ لغرض النفي والتوبيخ[2]، وذلك بقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨]، كما ورد في سورة أخرى أن قوم هودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنكروا عليه بالنفي غير المباشر للاستبعاد والاستهزاء[3]، وذلك بقولهم عن وعده عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المؤمنون: ٣٥].

*** ثالثًا: الاستفهام الإنكاري في قصة نبي الله صالح** عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث ورد ذلك في أكثر من أربعة مواضع من كتاب الله تعالى، ومن ذلك آيةٌ تتحدث عن استفهام إنكاريٍّ من قبل نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الشعراء: ١٤١-١٤٦]، حيث إن الأخوة المذكورة هنا، وفي كل موضعٍ في القرآن يبين أخوة كل من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مع قومه الكافرين إنما يقصد بها أخوة النسب لا أخوة الدين؛ حيث قال نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه - مشفقًا عليهم، خائفًا على مصيرهم، منكرًا عليهم ما هم فيه من الافتراء -: هلَّا اتقيتم عقاب الله تعالى، فاجتنبتم ما يغضبه؟ فإني مؤتمن على رسالة الله تعالى ووحيه ومنهجه؛ فإن علمتم ذلك فاتقوا الله وأطيعوا أمري، باتباع شرع الله تعالى؛ فإني لا أبتغي الأجر في هذه الحياة الدنيا منكم، فأجري على الله تعالى وحده، وأُنكِرُ

(١) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (٥/ ٨٩).
(٢) ينظر: المرجع السابق نفسه (٨/ ١٧٨).
(٣) ينظر: المرجع السابق نفسه (٧/ ٥٦٢).

عليكم كيف تتركون كذلك، ظانِّين الأمان من الله تعالى في هذه الحياة الدنيا[١].

فكان ردُّ قومه باطلًا بأساليب مختلفة ذكرتها آيات القرآن الكريم، من بينها الاستفهام الإنكاري بحقِّ النبي صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث يقول تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القمر: ٢٤، ٢٥]، وهو إنكار منهم لأن يتبعوا مثلهم في الجنس، وإنكار لأن تتبع الأمة رجلًا واحدًا، وإنكار لأن يُخَصَّ بالرسالة منفردًا من بين آل ثمود، والحال أن فيهم من هو أحسن جاهًا، وأكثر مالًا[٢].

* **رابعًا: الاستفهام الإنكاري في قصة نبي الله إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث ورد ذلك في أكثر من ثلاثة مواضع من كتاب الله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤]، أي: واذكر يا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قال نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه آزر مستفهمًا استفهامًا غرضه الإنكار: أتتخذ من دون الله تعالى أصنامًا ليست أهلًا للألوهية؟ وفي هذا الاستفهام الإنكاري تعريضٌ بسخافة العقول وسوء التفكير، ثم تدرَّج مع أبيه وقومه، بذكر أساليب دعوية، منها التأمل في الكون، ومحاولة التعرف إلى الله تعالى، فلمَّا أوصلهم إلى الطريق المستقيم لمعرفة الله تعالى، حاجَّه قومه، فقال لهم مستفهمًا استفهامًا إنكاريًّا غرضه التقريع: أتجادلونني وتغالبونني في إقامة الحجة على معرفة الله تعالى، والحال أن الله تعالى قد هداني؟ ولما توقفت عقولهم وعجزت حكاياتهم المختلفة عن التحدث، اجتهدوا في فعل المكائد لنبيهم؛ انتصارًا لأهوائهم[٣].

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل، البيضاوي (٤/ ١٤٦)، حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (٢٠/ ٢٨٧).
(٢) ينظر: حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (٢٨/ ٢٢٠).
(٣) ينظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي (٥/ ١٠٨ - ١١٢).

ومن بين الأساليب التي استخدمها نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه أن كسَّر الأصنام التي يعبدونها من دون الله تعالى، حينما كان القوم لاهين في أحد أفراحهم، ولما سألوه - بعد تحقيقاتهم - قالوا له: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنبياء: ٦٢ - ٦٦]، فإن الاستفهام الإنكاري من قبل نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه كان استثمارًا لفرصة حيرة عقولهم، وتخبط عقيدتهم، ومراجعة سريعة لعبادتهم، فكان هذا الاستفهام الإنكاري في مكانه الطبيعي؛ لعلَّ قلوبهم تتيقَّظ لتوحيد الله تعالى.

❊ **خامسًا: الاستفهام الإنكاري في قصة نبي الله لوط** عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث ورد ذلك في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٠ - ١٦٦]، حيث أنكر نبي الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه عدم خوفهم من لقاء الله تعالى، بعد اقترافهم الذنوب، وأنكر عليهم على وجه الخصوص نكاح الذكور من بني آدم في أدبارهم دون النساء، فهذه جريمة بشعة ما سبقهم بها من العالمين(١)، وقد ورد في آية أخرى فسرت ما سبق أن لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أنكر عليهم إتيان الرجال شهوة من دون النساء والتبجح بالمعصية بالمجاهرة بها، وقطع السبيل، فقال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ

(١) ينظر: جامع البيان، الطبري (١٩/ ٣٨٨).

﴿قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ [العنكبوت: ٢٩]، حيث إن نبي الله تعالى «أنكر على قومه سوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال، في إتيانهم الذكران من العالمين، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم، وكانوا مع هذا يكفرون بالله، ويكذبون رسوله ويخالفونه ويقطعون السبيل، أي: يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم، ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئًا من ذلك»(١).

* **سادسًا: الاستفهام الإنكاري في قصة نبي الله شعيب** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، حيث ورد ذلك في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧]، فإن نبي الله شعيبًا أُرسِل إلى مدين الذين هم أصحاب الأيكة(٢)، فأنكر عليهم - بأسلوب الاستفهام - ما هم عليه من التطفيف في الميزان كيف لا يتقون الله تعالى بالخوف من عقابه، وحينما أخبره القوم أنه لولا عشيرته لرجموه أنكر عليهم خوفهم وحسابهم لعشيرته؛ إذ الأصل أن يخافوا من الله تعالى وحده، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾ [هود: ٩٢]، «فاستنكر ذلك عليهم وتعجّب منه وألزمهم مما لا مخلص لهم عنه ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام، وفي هذا من قوة المحاجّة ووضوح المجادلة وإلقام الخصم الحجر ما لا يخفى»(٣).

* **سابعًا: الاستفهام الإنكاري في قصة نبي الله إلياس** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، حيث ورد ذلك

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٦/ ٢٧٦).
(٢) ينظر: المرجع السابق نفسه (٦/ ١٥٨).
(٣) فتح البيان، القنوجي (٦/ ٢٣٦).

في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الصافات: ١٢٣ - ١٢٦]، حيث إن نبي الله إلياس عَلَيْهِ السَّلَامُ أنكر على قومه عدم تقوى الله تعالى والخوف من عقابه، فلمَّا كان الإنكار سببًا للإصغاء من قومه كرره مفصحًا بسببه بقوله: أتدعون صنمًا على أنه إله من دون الله تعالى الذي هو رب العالمين؟[١]

*** ثامنًا: الاستفهام الإنكاري في قصة نبي الله موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ،** حيث ورد ذلك في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى: فتارة يكون الإنكار من الله تعالى، وتارة يكون من فرعون، وتارة يكون من مؤمن آل فرعون، فأما ما ورد في كتاب الله تعالى من الاستفهام الإنكاري في خطاب الله تعالى عن فرعون وقومه، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ [الشعراء: ١٠، ١١]، أي: واذكر يا محمد حين نادى ربُّك جَلَّ جَلَالُهُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قائلًا: اذهب إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم قوم فرعون، ثم استفهم الله تعالى استفهامًا إنكاريًّا توبيخيًّا، بقوله: ألا يخافون عقابي؟[٢]

وأما ما ورد من الاستفهام الإنكاري من جهة فرعون، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨، ١٩]، حيث إن فرعون ردَّ على دعوة موسى وأخيه هارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ له إلى الله تعالى، باستفهام إنكاري توبيخي، وذلك بقوله: ألم نربِّك في حجرنا ومنازلنا طفلًا، ومكثت على ذلك سنين؟ ومع ذلك قتلت

---

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٦/ ٢٨٤).
(٢) ينظر: فتح البيان، القنوجي (٩/ ٣٦٥، ٣٦٦).

القبطي والحال أنك من الكافرين نعمتي[(١)]، وقد توالت الاستفهامات الإنكارية في حوار فرعون مع موسى، وتعالت تهديدات فرعون حتى وصل به الأمر إلى العجز، فاستدعى السحرة، ورغَّبهم بالقرب منه إن انتصروا عليه، فإذا بالسحرة يسجدون لله تعالى، ثم قال فرعون للسحرة الذين آمنوا برب العالمين - بعدما رأوا البينات -: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشعراء: ٤٩]، و«أصل الفعل (آمن) دخلت عليه همزة التعدية، ثم دخلت عليها همزة الاستفهام الإنكاري، فاجتمع ثلاث همزات: مفتوحتان وساكنة، فأجمعوا على إبدال الثالثة الساكنة ألفًا، واختلفوا في الأولى والثانية: أما الأولى فأسقطها حفص[(٢)]، وعليه فيجوز أن يكون الكلام خيرًا في المعنى، وأن يكون استفهامًا حذفت همزته، استغناء بقرينة الحال، وأبدلها قنبل[(٣)] في الوصل واوًا مفتوحة»[(٤)]، وهذا الإنكار من فرعون؛ لأجل التوبيخ الذي يحمل تهديدًا وتقريعًا[(٥)].

فلما قرّر قوم فرعون أن يقتلوا نبي الله تعالى موسى وأخاه هارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود (٦/ ٢٣٨).

(٢) هو أبو عمر حفص بن سليمان الكوفي، صاحب القارئ الكبير عاصم، وتلميذه، وأحد راوييه، وابن زوجته، ولد سنة تسعين من الهجرة، ومات سنة ثمانين ومائة من الهجرة، وروى الحديث عن: علقمة بن مرثد، وثابت البناني، وأبي إسحاق السبيعي، وروى عنه: بكر بن بكار، وآدم بن أبي إياس، وأحمد بن عبده، وهشام بن عمار. (ينظر: معرفة القراء الكبار، الذهبي (ص٨٤)).

(٣) هو أبو عمرو: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن خالد المخزومي، مولاهم المكي، ولد سنة خمس وتسعين ومائة من الهجرة، وجوَّد القراءة على أبي الحسن القواس، وأخذ القراءة عن البزي أيضًا، وانتهت إليه رئاسة الإقراء بالحجاز، قرأ عليه خلق كثير، منهم أبو بكر بن مجاهد، وأبو الحسن بن شنبوذ، توفي سنة إحدى وتسعين ومائتين من الهجرة. (طبقات القراء الكبار، الذهبي (ص١٣٤)).

(٤) دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة (٧/ ٦١٣).

(٥) ينظر: التفسير المظهري، المظهري (٧/ ٦٧).

ومن آمن معهما، إذ بمؤمن من آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه يصيح بالقوم قائلًا: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر: ٢٨]، حيث يستفهم مؤمن آل فرعون استفهامًا إنكاريًّا، بقوله: كيف تقتلون رجلًا لأجل أنه قال ربي الله تعالى؟ والحال أنه قد جاء بالدلالات الواضحات، ونحن لا يضيرنا إن كان يكذب؛ لأنه عليه وبال كذبه، ولكن المشكلة إذا كان صادقًا، فإنه قد يصيب القومَ بعضٌ مما ذكره من الوعيد والعذاب[(١)]، ثم تدرج مؤمن آل فرعون، ببيان الاستدلالات العقلية والحسية الدالة على وجود الله تعالى وقدرته، وضرورة عبادته، ويستفهم استفهامًا إنكاريًّا توبيخيًّا آخر[(٢)]، بقوله: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ [غافر: ٤١]، وقيل الاستفهام هنا يفيد التعجب[(٣)]، والنص حمَّال للغرضين.

* **تاسعًا: الاستفهام الإنكاري في خطاب مجموعة من الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لأقوامهم**، حيث قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٠]، «والاستفهام فيه للإنكار المضمن للتوبيخ والتقريع؛ أي: أفي وحدانيته سبحانه شك؟ وهي في غاية الوضوح والجلاء، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الأدلة الموصلة إلى ذلك، ومن ثَمَّ ذكرت الرسل بعد إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الإنكار من الشواهد الدالة

(١) ينظر: تفسير القرآن، السمعاني (٥/ ١٦).
(٢) ينظر: حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (٢٥/ ٢٠٧).
(٣) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة (٣/ ٩٦).

على عدم الشك في وجوده سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ووحدانيته»[(١)].

*** عاشرًا: الاستفهام الإنكاري في قصة مؤمن آل ياسين رحمه الله تعالى،** حيث ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣﴾ [يس: ٢٠ - ٢٣]، حيث إن هذا المؤمن الذي غار على دين الله تعالى، حينما وجد القوم قد كذَّبوا المرسلين وكفروا بالله تعالى، فسلك طريق الدعوة إلى الله تعالى؛ إذ لا تنفع السلبية التي تقتضي السرية في العبادة الفردية لله تعالى، فقال: يا قوم اتبعوا نهج المرسلين في الإيمان بالله تعالى، والتزام الصراط المستقيم، ودليل صدق هؤلاء الأنبياء أنهم لا يسألون أجرًا وأنهم قدوة في الهداية. ثم استفهم استفهامًا إنكاريًّا توبيخيًّا غير مباشر، فقال: وما الذي يجعلني أعبد غير الله تعالى والحال أنكم جميعًا إليه مصيركم وعاقبتكم؟ فإنه يوبخهم من خلال ذكر المنقصة في ياء المتكلم؛ لما في ذلك من تلطف في الدعوة وعدم التنفير[(٢)].

ونخلص إلى أن القرآن الكريم قد ذكر الاستفهام الإنكاري في حق الكفار سابقي عهد النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، من خلال خطاب الله تعالى عنهم تارة، كما في خطابه عن قوم فرعون، ومن خلال خطاب الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ عنهم تارة كما في قصة الأنبياء نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط عليهم الصلاة والسلام، ومن خلال خطاب الكفار المكذبين المفترين على رسلهم، كما كان من القصص السابقة كلها، ومن خلال خطاب المؤمنين الغيورين على الله تعالى ورسله عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، كمؤمن

(١) حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (١٤/ ٣٣٨).

(٢) ينظر: من بلاغة القرآن، محمد ونعمان علوان (ص٤٥).

آل فرعون ومؤمن آل ياسين، وقد تبين من خلال جميع ما ذكر في هذا المطلب أن الاستفهام الإنكاري يكون - غالبًا - توبيخيًّا تقريعيًّا مباشرةً، إذا كان من الله تعالى ومن ثَمَّ من قبل رسله عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ والمؤمنين موجَّهًا في حق الكافرين، ويمكن أن يكون للتعجب كمؤمن آل فرعون، والاستفهام الإنكاري يكون توبيخيًّا تقريعيًّا غير مباشر إذا كان يتعلق بالتلطف مع المكذبين، كمؤمن آل ياسين.

۞۞۞

المطلب الثاني

الاستفهام الإنكاري في مخاطبة مشركي العرب

يركز هذا المطلب على بيان آيات - مما ورد في القرآن الكريم - ذكرت الاستفهام الإنكاري في مخاطبة الله تعالى لمشركي العرب، بالأنواع الثلاثة، وهي:

*** أولًا: الاستفهام الإنكاري في خطاب الله تعالى المباشر لمشركي العرب،** وقد ورد ذلك في أكثر من ست عشرة آية، معظمها مكي، وبعضها مدني.

ومن أمثلة الخطاب المباشر من الله تعالى، قوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: ١٨٤، ١٨٥]، فإن هذا الاستفهام الإنكاري التوبيخي التعجبي من حال المكذبين المعرضين[(١)] غرضه دعوة المشركين إلى الرجوع إلى الفطرة السليمة، وهي التفكير المتجرد من أي غبش أو تأثير على العقل الصحيح المنسجم مع الفطرة السليمة، حيث يقول تعالى: «أو لم يتفكر هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، فيتدبروا بعقولهم، ويعلموا أن رسولَنا الذي أرسلناه إليهم، لا جنَّة به ولا خَبَل، وأن الذي دعاهم إليه هو الرأي الصحيح، والدين القويم، والحق المبين؟»[(٢)]، أولم ينظروا ويتدبروا ويعتبروا في ملك الله تعالى في جميع ما في السماوات والأرض؟ وفي خلق الله تعالى مما علمنا وما لم نعلم وضرورة العمل لما بعد الموت؟ فيأتي الاستفهام الإنكاري في هاتين الآيتين ثلاث مرات؛ ليختتمهما بأنه بعد كل الآيات الكونية والمتلوة بماذا سيؤمن المكذبون الجاحدون.

---

(١) ينظر: حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري (١٠/ ٢٤٩).
(٢) جامع البيان، الطبري (١٣/ ٢٨٩).

ومن أمثلة ذلك - أيضًا - قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [التوبة: ٧، ٨]، فإن هذا الاستفهام إنكاري تعجبي، فيه إنكار على من يظن أن لهؤلاء المشركين عهدًا عند الله تعالى وعند رسوله، إلا من عاهده المؤمنون، ثم كرر الاستفهام الإنكاري التعجبي الاستبعادي، بتأكيد أن المشركين إن ينتصروا عليكم لا يرحموكم ولا يحترموا عهدًا معكم، ولذلك فإن الالتزام بالعهد مع المشركين يحتاج إلى استقامة منهم، وتكون استقامة متبادلة من المؤمنين، ولكن المشركين لم يستقيموا في العهد، فأعانوا حليفهم وهو بنو بكر، على حليف الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم خزاعة؛ ولذا فإن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خصّص لحليفه الأخذ بالثأر حتى العصر من يوم فتح مكة[1].

وقد أنكر الله تعالى على كفار قريش أنهم ذكروا أنهم عند الله تعالى أفضل من النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأنهم يشرفون على خدمة الحجاج وعمارة المسجد الحرام، فقال تعالى: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة: ١٩]، فعن النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: كنت عند منبر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملًا بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملًا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم،

---

(١) ينظر: الكشف والبيان، الثعلبي (٥/ ١٤)، مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا (١١/ ٢٦٤)، قال شعيب الأرنؤوط في المرجع نفسه: إسناده حسن.

فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآية[1].

وأنكر الله تعالى على مشركي العرب مقولتهم: إن لهم البنين ولله البنات، فقال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: ٤٠]، حيث جوّزوا أن يكون لله تعالى ولد، وفكّروا في ذلك، ثم لم يرضوا حتى جعلوا له ما كرهوه لأنفسهم، فما زادوا في تمرّدهم إلا عتوّا، وفي طغيانهم إلا غلوّا، وعن قبول الحقّ إلا نفورًا[2].

وتوعَّد الله تعالى مشركي العرب وغيرهم، بالاستفهام الإنكاري التقريعي، حينما سألوا عن موعد العقاب[3]، بقوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الصافات: ١٧٦].

وأنكر الله تعالى عليهم عبادتهم للأصنام، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠]، أي: إذا قيل لهؤلاء الذين حرَّموا من الحرث والأنعام أشياء: اتبعوا طريق شرع الله تعالى في التحليل والتحريم، كان ردّهم: إنَّ هذا هو ما وجدنا آباءنا عليه، فقال الله تعالى مُنكرًا عليهم: أيتبعون آباءهم وإنْ كانوا جهّالا[4]؟

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى (٣/ ١٤٩٩)، حديث رقم (١٨٧٩).

(٢) ينظر: لطائف الإشارات، القشيري (٢/ ٣٤٩).

(٣) ينظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي (ص٩١٧).

(٤) ينظر: المرجع السابق نفسه (ص١٤٠).

*** ثانيًا: الاستفهام الإنكاري في خطاب الله تعالى غير المباشر لمشركي العرب،** وقد ورد ذلك في أكثر من موضع من القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرعد: ١٦]، حيث يأمر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ أن يقول للمشركين من هو رب السماوات ورب الأرض، وأن يجيبهم بقوله: هو الله، وإن إعادة فعل الأمر بالقول في ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ الذي هو تفريع على الإقرار بأن الله رب السماوات والأرض؛ لقصد الاهتمام بذلك التفريع؛ لما فيه من الحجة الواضحة، فالاستفهام تقرير من جهة، وإنكار توبيخي وتسفيهي لرأيهم بناء على الإقرار المسلم من جهة أخرى، وفيه استدلال آخر على عدم أهلية أصنامهم للإلهية؛ فإن اتخاذهم أولياء من دونه معلوم لا يحتاج إلى الاستفهام عنه[(١)].

وقد أمر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ أن يستفهم استفهامًا إنكاريًّا توبيخيًّا تقريعيًّا استبعاديًّا في خطاب لمشركي العرب، وذلك بقوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الزُّمَر: ٦٤]، أي: بعد مشاهدة الآيات الدالة على انفراده وتوحيده أن أعبد غير الله[(٢)]؟

*** ثالثًا: الاستفهام الإنكاري في خطاب المشركين أنفسهم،** ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [السجدة: ١٠]، أي: قال المشركون مستفهمين استفهامًا إنكاريًّا تكذيبيًّا: هل إذا غبنا فيها سواء أكان ذلك بالدفن أو بتفرق الأجزاء وتلاشيها داخل الأرض وتحللت

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور (١٣/ ١١٣).
(٢) ينظر: فتح البيان، القنوجي (١٢/ ١٤٠).

جئتنا هل سنعود خلقًا جديدًا[1]؟ وقد وردت آية أخرى في نفس السياق، وهي قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ١٠﴾ [النازعات: ١٠].

❁ ملاحظة:

يلاحظ على الاستفهام الإنكاري في خطاب الله تعالى أنه يكون توبيخيًّا تقريعيًّا تعجبيًّا، أما الاستفهام الإنكاري في خطاب المشركين، فإنه يكون تكذيبيًّا استبعاديًّا نافيًا، والله أعلم.

❁❁❁

(١) ينظر: غرائب القرآن، النيسابوري (٥/ ٤٣٦).

المطلب الثالث

الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الكتاب

يركز هذا المطلب على بيان آيات مما وردت في القرآن الكريم ذكرت الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الكتاب، بالأنواع الخمسة، وهي:

* **أولًا: الاستفهام الإنكاري التعجبي في خطاب نبي الله موسى** عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه من بني إسرائيل، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: ٦١]، حيث أنكر على قومه استبدال الحلوى اللذيذة التي تشبه العسل وطير السمان بالبقل والخيار والفقوس والبصل ونحوه، حيث استبدلوا ما هو أخس بما هو أعظم(١).

* **ثانيًا: الاستفهام الإنكاري في مخاطبة بني إسرائيل لداود** عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢٤٧]، حيث استفهم بنو إسرائيل استفهامًا إنكاريًا يمتلئ تعنتًا: من أين يستحق أن يكون ملكًا علينا، والحال أننا أكثر منه مالًا ونحن أولى بهذا الملك(٢)؟

---

(١) ينظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي (ص١٣).
(٢) ينظر: البحر المديد، ابن عجيبة (١/ ٢٤٧).

❊ ثالثًا: الاستفهام الإنكاري في خطاب الله تعالى المباشر لأهل الكتاب في عهد النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: ٨٥]، أي: أتفعلون بعض الواجبات، وهو المفاداة وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، فلم تتركوا المحرم، وهو القتال والإخراج والمعاونة؛ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ، وهو ذمّ عظيم وتحقير بالغ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا؛ فكان خزي قريظة القتل والسبي، وقد قتل الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم سبعمائة في يوم واحد، وخزي بني النضير بالإجلاء إلى أذرعات وأريحا(١).

وقد أنكر الله تعالى على أهل الكتاب أمرهم الناس بالخير والإيمان، وينسون أنفسهم، فقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]، حيث إن الله تعالى يستفهم استفهامًا إنكاريًّا تقريعيًّا توبيخيًّا: أتأمرون من خلال التوجيه والإرشاد الناس الذين يستفسرون منكم من الأتباع والمقلدين بجميع وجوه الخير والطاعات، والحال أنكم تنسون أنفسكم بحرمانها من هذا الخير، والمشكلة أنكم تتلون كتاب الله تعالى، أفلا تعقلون ما تفعلون(٢)؟!

وأنكر الله تعالى على الكفرة من أهل الكتاب بسبب عدم رجوعهم إلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ

(١) ينظر: مراح لبيد، محمد التناري بلدا (١/ ٣١)، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير (٥/ ٨٨)، حديث رقم (٤٠٢٨).

(٢) ينظر: الجواهر الحسان، الثعالبي (١/ ٢٢٨).

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٤﴾ [المائدة: ٧٤]، أي: «أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ بالتوحيد والتنزيه عمّا نسبوه إليه من الاتحاد والحلول، فيرجعوا عن التمسك بالمتشابهات إلى القطعيات؟! فالاستفهام لإنكار الواقع واستبعاده، فيه تعجب من إصرارهم، ومدار الإنكار والتعجب عدم الانتهاء والتوبة معًا»[١].

رابعًا: الاستفهام الإنكاري في خطاب الله تعالى غير المباشر بواسطة النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠﴾ [البقرة: ٨٠]، حيث إن الله تعالى يأمر النبي محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أن يقول لأهل الكتاب مستفهمًا استفهامًا إنكاريًّا تكذيبيًّا: هل اتخذتم عند الله تعالى ميثاقًا على ادِّعائكم هذا القاضي بأنكم ستمسكم النار أيامًا قليلة بعدد؟! فإن كان عندكم عهد فلن يخلف الله عهده، أم أن الحق هو قولكم على الله بغير علم[٢]؟

وأمر الله تعالى نبيه محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أن يقول لأهل الكتاب الذين قالوا إننا نؤمن بما أنزل علينا: «إن كنتم مؤمنين بما أنزل الله عليكم، فلماذا قتلتم أنبياء الله مِن قبل»[٣]؟! وهذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩١﴾ [البقرة: ٩١].

وأمر الله تعالى نبيه محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أن يقول لأهل الكتاب الذين قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه مستفهمًا استفهامًا إنكاريًّا تكذيبيًّا توبيخيًّا: «فَلأيِّ شيء يعذِّبكم بذنوبكم؟ فلو كنتم أحبابه ما عذّبكم؛ فالله لا يحب إلا من أطاعه، وقل

---

(١) محاسن التأويل، القاسمي (٤/ ٢١٤).

(٢) ينظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير (ص١٢).

(٣) المرجع السابق نفسه (ص١٤).

لهم: بل أنتم خلقٌ مثلُ سائر بني آدم، إن أحسنتُم جوزيتم بإحسانكم خيرًا، وإن أسَأْتُم جوزيتم بإساءتكم شرًّا، فالله يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، وهو مالك المُلك، يُصَرِّفه كما يشاء، وإليه المرجع، فيحكم بين عباده، ويجازي كلًّا بما يستحق»[(١)].

* **خامسًا: الاستفهام الإنكاري في خطاب أهل الكتاب بعضهم لبعض**، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة: ٧٦]، فقد كان بعضهم يعترف للمسلمين أن محمدًا ﷺ رسول من عند الله تعالى للعرب فقط، فاستفهم أحبارهم استفهامًا إنكاريًّا توبيخيًّا في مراجعاتهم الداخلية؛ لأن هذا الاعتراف على كل حال محرج لهم[(٢)].

(١) التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير (ص١١١).

(٢) ينظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة (٦/ ١٨٣).

المطلب الرابع

الاستفهام الإنكاري في مخاطبة المنافقين

يركز هذا المطلب على بيان آيات مما ورد في القرآن الكريم ذكرت الاستفهام الإنكاري في مخاطبة المنافقين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢]، حيث استفهم الله تعالى منكرًا على هؤلاء المنافقين وأشباههم عدم تدبرهم للقرآن، وحضهم على تأمل حكمه وأحكامه وهداياته فقال: هلّا تدبَّروا القرآن الكريم بفهم حروفه وتطبيق حدوده وأحكامه؟ فلو كان هذا القرآن من عند أي مخلوق دون الله تعالى لوقع فيه التحريف والخلل والخطأ، ولما استحق هذا التكريم[(١)].

وأنكرت آية أخرى على المنافقين بأداة الاستفهام عدم تدبرهم كتاب الله تعالى، وأن على قلوبهم أقفالًا، فقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤]، «فقد أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن، بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وبيَّن أن قلوبهم عليها أقفال لا تنفتح لخير، ولا لفهم قرآن»[(٢)].

وأمر الله تعالى نبيه محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول للمنافقين الذين يستهزئون بدين الله تعالى مستفهمًا استفهامًا إنكاريًّا غرضه التوبيخ والتقريع، وذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [التوبة: ٦٥]، «فأي ضلال أشدّ من هذا؟! وأي كفر وجحود أشد؟! والاستفهام هنا للاستنكار، إنكار الواقع أي التوبيخ على ما فعلوا»[(٣)].

---

(١) ينظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي (٣/ ٢٣٤).
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي (٧/ ٢٥٦).
(٣) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة (٦/ ٣٣٦٠).

المبحث الثالث

الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الإيمان

يركز هذا المبحث على ذكر الاستفهام الإنكاري وأغراضه في الآيات الواردة في مخاطبة الله تعالى للملائكة، وفي مخاطبة الله تعالى للأنبياء، وفي مخاطبة الله تعالى للمؤمنين.

وقد مثَّل هذا المبحث توضيحًا عمليًّا لذلك، من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

الاستفهام الإنكاري في مخاطبة الملائكة

ويقصد بهذا الاستفهام الإنكاري ما غرضه النفي؛ حيث يستفهم الله تعالى منهم استفهامًا لا يريد منه استعلامًا ولا جوابًا، وإنما ينفي ما جال في خاطرهم مما قصدوه من التعظيم له جَلَّجَلَالُهُ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة: ٣٣]، حيث إن الله تعالى علَّم أبانا آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أسماء الخلق كلهم، ثم حشر الدواب كلها، والسباع والطير، وما خلق في الأرض، ثم قال للملائكة: أخبروني بأسماء هؤلاء إن تدَّعون الصدق في أقوالكم وأفعالكم وأحوالكم. ولا شكَّ أن هذا الأسلوب الشرطي فيه إلهاب وتهييج؛ لأنهم صادقون بطبيعتهم، فعندها نزَّهوا الله تعالى عن كل نقص، وأخبروا الله تعالى بعجزهم عن الجواب؛ فلمَّا طلب من أبينا آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هذا الطلب أجابه، فاستفهم الله تعالى من الملائكة استفهامًا إنكاريًّا؛ لغرض النفي، بقوله: ألم أقل لكم إني أعلم منكم

بالخلق؟ وأن الذي خفي عليكم من الحكمة وما ظهر فأنا أعلم به منكم[(١)].

وقد وردت آية أخرى في سياق الحديث عن الملائكة، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [سبأ: ٤٠]، حيث بيَّنت الاستفهام الإنكاري الذي يقصد به التقريع للمشركين والتوبيخ لهم، وذلك بالقول: أهؤلاء كانوا يعبدونكم في الحياة الدنيا من دون الله تعالى[(٢)]؟

(١) ينظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين (١/ ١٣٢).
(٢) ينظر: المختصر في التفسير، مركز تفسير للدراسات القرآنية (ص٤٣٣).

المطلب الثاني

﴿ الاستفهام الإنكاري في مخاطبة الأنبياء والمرسلين ﴾

ويقصد بالاستفهام الإنكاري في مخاطبة الأنبياء والمرسلين ما كان من الله تعالى في مخاطبتهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فإن نبي الله تعالى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ طلب من الله تعالى أن يريه بالعين الباصرة كيف يتم إحياء الموتى، فاستفهم الله تعالى منه استفهامًا إنكاريًّا تعجبيًّا بقوله: ألستَ آمنتَ بذلك؟! فأجابه: بلى، ولكني أريد أن يطمئن قلبي منتقلًا من علم اليقين إلى عينه وحقيقته، أي: بالمعاينة بعد الإيمان بالغيب(١).

وقد وردت آية أخرى بيّنت الاستفهام الإنكاري من قِبَل الله تعالى في خطابه لأبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ **وزوجته**، حينما أكلا من الشجرة التي نُهيا عنها، وذلك بقوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٢]، أي: فحطَّهما عن درجتهما ساعة وقوع المعصية؛ حيث جرَّأهما على الأكل، فلمَّا ذاقا من ثمر الشجرة بدأت تتساقط الثياب عن الجسم، وانكشفت العورة، وجعلا يرقعان الورق بعضه على بعض، وفي هذه الأثناء ناداهما الله تعالى مستفهمًا استفهامًا إنكاريًّا تقريعيًّا توبيخيًّا بقوله: ألم أنهكما عن الاقتراب من تلك الشجرة، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو واضح العداوة(٢)؟

---

(١) ينظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي (ص١٨٦)، تفسير الراغب الأصفهاني (ص٥٤٦).

(٢) ينظر: إيجاز البيان، أبو القاسم النيسابوري (١/ ٣٢٥).

المطلب الثالث

الاستفهام الإنكاري في مخاطبة المؤمنين

ويقصد بالاستفهام الإنكاري في مخاطبة المؤمنين ما كان من الله تعالى بالخطاب المباشر أو غير المباشر، ويكون غرضه التقريع، والتعجب، والنفي؛ ومن أمثلة الاستفهام الإنكاري التقريعي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨﴾ [التوبة: ٣٨]، حيث ينادي الله تعالى المؤمنين من أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مستفهمًا استفهامًا إنكاريًّا تقريعيًّا يحمل عتابًا، بقوله: أيُّ شيء يمنعكم عن الجهاد في سبيل الله تعالى، ويجعلكم تتثاقلون عنه، ولا تنهضون من أرضكم؟ أم أنكم رضيتم بخفض العيش وزهرة الحياة الدنيا ودعتها ونعيمها بدلًا من الآخرة؟، فإن كنتم كذلك، فاعلموا أن المتاع في الحياة الدنيا في مقياس الآخرة حقير(١).

وقد وردت آية أخرى في سياق الاستفهام الإنكاري التقريعي في خطاب المؤمنين المصابين من غزوة أحد، وهي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٦٥﴾ [آل عمران: ١٦٥]، أي: «أحين أصابكم من المشركين نصفُ ما قد أصابهم منكم قبل ذلك جزِعتم، وقلتم: من أين أصابنا هذا؟ وقد تقدم الوعدُ بالنصر على توجيه الإنكارِ والتقريعِ إلى صدور ذلك القولِ عنهم في ذلك الوقتِ خاصة، بناءً على عدم كونِه مَظِنةً له داعيًا إليه، بل على كونه داعيًا إلى عدمه؛ فإنَّ كونَ مصيبةِ عدوِّهم ضِعْفَ مصيبتِهم، مما يُهوِّن الخطْبَ ويورث السَّلْوةَ، أو أفعلتم ما فعلتم

---

(١) ينظر: فتح البيان، القنوجي (٥/ ٣٠١، ٣٠٢).

ولمَّا أصابتكم غائلته أنى هذا؟ على توجيه الإنكارِ إلى استبعادهم الحادثةَ مع مباشرتهم لسببها»[١].

ومن أمثلة الاستفهام الإنكاري التعجبي النافي قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف: ٣٢]، أي: قل يا أيها الرسول مستفهمًا استفهامًا إنكاريًّا عليهم: من الذي حرَّم زينة الله التي أخرجها لعباده، من اللباس والطيبات المستلذَّات من الرزق؟! قل هي لعموم المؤمنين في الحياة الدنيا بالاستحقاق، وإن شاركهم فيها غيرهم خاصة بهم يوم القيامة، كذلك نُبيِّن الآيات ومثل ذلك التفصيل لقوم يتدبرون؛ فإنهم المنتفعون بها[٢].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود (٢/ ١٠٩).

(٢) ينظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي (ص١٩٧).

الخاتمة

الحمد لله الذي بفضله ونعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن من خلال هذه الدراسة في البحث المسمى (الاستفهام الإنكاري في ضوء القرآن الكريم) ظهرت أهم النتائج والتوصيات، وذلك فيما يأتي:

أولًا: أهم النتائج:

١) **مصطلح الاستفهام الإنكاري** يُعرَف من خلال المعرفة الشاملة التأصيلية لعلم بلاغة القرآن الكريم، لا سيما علم المعاني.

٢) **لم تفِ كتب علوم القرآن المشهورة بتفاصيل هذا العلم من ناحيتيه: النظرية، والتطبيقية**، وكذلك لم يكن موضوع الاستفهام الإنكاري مذكورًا بالحد الكافي في كتب اللغة العربية، من جهة الدراسة القرآنية الشرعية.

٣) **الاستفهام الإنكاري ذُكِر في العهدين: المكي، والمدني**، غير أن لكل عهدٍ ميزاته الخاصة به، من جهة المخاطَبين، ومن جهة أغراض الاستفهام الإنكاري، ومن جهة طبيعة المعالجة.

٤) **الاستفهام الإنكاري يكون - غالبًا - توبيخيًّا تقريعيًّا مباشرةً، إذا كان من الله تعالى؛** ومن ثَمَّ من قِبَل رسله عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ والمؤمنين موجَّهًا في حق الكافرين، ويمكن أن يكون للتعجب كمؤمن آل فرعون، والاستفهام الإنكاري يكون توبيخيًّا تقريعيًّا غير مباشر إذا كان يتعلق بالتلطف مع المكذبين، كمؤمن آل ياسين.

٥) **يلاحظ على الاستفهام الإنكاري في خطاب الله تعالى أن يكون توبيخيًّا تقريعيًّا تعجبيًّا،** أما الاستفهام الإنكاري في خطاب المشركين، فإنه يكون تكذيبيًّا استبعاديًّا نافيًا، والله أعلم.

٦) **الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الكفر من الأمم السابقة** أخذ مساحة أكبر من أهل الكفر جميعًا في عهد النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لما في ذلك من تأثير في نفوس قوم قريش وأهل الكتاب والمنافقين، أن الله تعالى أنكر على الباطل في كل الأمم السابقة، ولم يقتصر ذلك عليهم.

٧) **الاستفهام الإنكاري في مخاطبة أهل الإيمان** تمثل في خطاب مباشر أو غير مباشر من قبل الله تعالى للمؤمنين من الملائكة والنبيين والمرسلين والمؤمنين.

ثانيًا: أهم التوصيات:

١) **الوصية لجميع المعنيين أن يقوموا بدورهم في التدبر في القرآن الكريم،** والتفتيش عن أسراره التي تغرس في قلب المسلم حب القرآن الكريم وملازمته.

٢) **الأمل من الباحثين أن يعطوا علم البلاغة في القرآن الكريم أهمية،** وألَّا يقتصر هذا الدور على أهل العربية، فإن عدد الباحثين سيكون إذن قليلًا.

٣) **رسالة إلى عمادات البحث العلمي في الجامعات،** وكذلك مراكز الأبحاث والدراسات القرآنية والشرعية، أن يجتهدوا في إنشاء موسوعات لها علاقة بعلوم دقيقة، كالاستفهام الإنكاري في ضوء القرآن الكريم.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. «الإتقان في علوم القرآن». السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (المتوفى: ٩١١هـ). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. (د. ط). الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٢. «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار». الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق الغساني المكي (المتوفى: ٢٥٠هـ). تحقيق: رشدي الصالح ملحس. (د. ط). بيروت: دار الأندلس للنشر، (د. ت).

٣. «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم». العمادي، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ). (د. ط). بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت).

٤. «أسرار البلاغة». عبد القاهر الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبدالرحمن بن محمد الفارسي الأصل الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ). قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر. (د. ط). القاهرة: مطبعة المدني، جدة: دار المدني، (د. ت).

٥. «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن». الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني (المتوفى: ١٣٩٣هـ). (د. ط). بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٦. «**أنوار التنزيل وأسرار التأويل**». البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (المتوفى: ٦٨٥هـ). تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. ط: ٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ.

٧. «**إيجاز البيان عن معاني القرآن**». النيسابوري، نجم الدين أبو القاسم محمود بن أبي الحسن بن الحسين (المتوفى: نحو ٥٥٠هـ). تحقيق: الدكتور حنيف بن حسن القاسمي. ط: ١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤١٥هـ.

٨. «**الإيضاح في علوم البلاغة**». الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر أبو المعالي القزويني الشافعي (المتوفى: ٧٣٩هـ). تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط: ٣، بيروت: دار الجيل، (د. ت).

٩. «**بحر العلوم**». السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (المتوفى: ٣٧٣هـ). (د. ط) (د. ن) (د. ت).

١٠. «**البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**». ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: ١٢٢٤هـ). تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الدكتور حسن عباس زكي، (د. ط) القاهرة: (د. ن)، ١٤١٩هـ.

١١. «**البحر المحيط في التفسير**». أبو حيان الأندلسي، أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان (المتوفى: ٧٤٥هـ). تحقيق: صدقي محمد جميل، (د. ط)، بيروت: دار الفكر، ١٤٢٠هـ.

١٢. «**البرهان في علوم القرآن**». الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (المتوفى: ٧٩٤هـ). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: ١، بيروت: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه

(ثم صوَّرته دار المعرفة وبنفس ترقيم الصفحات)، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

١٣. «**البلاغة العربية**». حَبَنَّكَة الميداني، عبد الرحمن بن حسن الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ). ط: ١، دمشق: دار القلم، بيروت: الدار الشامية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١٤. «**البلاغة ٢ المعاني**». جامعة المدينة العالمية، كود المادة: LARB4103، المرحلة: بكالوريوس، (د. ط) (د. ت).

١٥. «**تاج العروس من جواهر القاموس**». الزَّبيدي، أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الملقّب بمرتضى (المتوفى: ١٢٠٥هـ). تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، (د. ط) (د. ت).

١٦. «**التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)**». الطاهر ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ). (د. ط)، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤هـ.

١٧. «**التعريفات**». الجرجاني، السيد الشريف علي بن محمد، ط: ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٨. «**التعريفات الفقهية**». البركتي، محمد عميم الإحسان المجددي، ط: ١، دار الكتب العلمية (إعادة صف للطبعة القديمة في باكستان ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م)، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٩. «**التَّفْسِيرُ البَسِيْط**». الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ). تحقيق: أصل تحقيقه في

(١٥) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، ط: ١، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: عمادة البحث العلمي، ١٤٣٠ هـ.

٢٠. «تفسير الجلالين» المحلِّي، جلال الدين محمد بن أحمد (المتوفى: ٨٦٤هـ)، والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (المتوفى: ٩١١هـ). ط: ١، القاهرة: دار الحديث، (د. ت).

٢١. «تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن». الهرري، الشيخ العلّامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الشافعي. إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، ط: ١، بيروت: دار طوق النجاة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٢٢. «التفسير الحديث» [مرتّب حسب ترتيب النزول]. دروزة، محمد عزت، (د. ط)، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨٣هـ.

٢٣. «تفسير الراغب الأصفهاني». الراغب الأصفهانى، أبو القاسم الحسين بن محمد (المتوفى: ٥٠٢هـ). جزء ١: المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة. تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، ط: ١، جامعة طنطا: كلية الآداب، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.

٢٤. «تفسير القرآن». السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: ٤٨٩هـ). تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، ط: ١، الرياض: دار الوطن، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٢٥. «تفسير القرآن العزيز». ابن أبي زَمَنِين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن

عيسى بن محمد المري الإلبيري المالكي (المتوفى: ٣٩٩هـ). تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، محمد بن مصطفى الكنز، ط: ١، القاهرة: الفاروق الحديثة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٢٦. «**تفسير القرآن العظيم**». ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ). تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط: ٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٢٧. «**التفسير المظهري**». المظهري، محمد ثناء الله. تحقيق: غلام نبي التونسي، (د. ط)، الباكستان: مكتبة الرشدية، ١٤١٢هـ.

٢٨. «**التفسير الميسَّر**». نخبة من أساتذة التفسير، ط: ٢، مزيدة ومنقحة، السعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٢٩. «**التفسير الوسيط للقرآن الكريم**». محمد سيد طنطاوي. ط: ١، الفجالة - القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، (د. ت).

٣٠. «**التوقيف على مهمات التعاريف**». عبد الرؤوف المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ). ط: ١، القاهرة: عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٣١. «**تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**». السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (المتوفى: ١٣٧٦هـ). تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط: ١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٣٢. «جامع البيان عن تأويل القرآن». الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر (المتوفى: ٣١٠هـ). تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط: ١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.

٣٣. «الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)». القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر. تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط: ٢، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٣٤. «الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)». البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط: ١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.

٣٥. «الجواهر الحسان في تفسير القرآن». الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (المتوفى: ٨٧٥هـ). تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، ط: ١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ.

٣٦. «دراسات في البلاغة العربية (من بلاغة القرآن المعاني البيان البديع)»، الدكتور محمد شعبان علوان، والدكتور نعمان شعبان علوان، ط: ٢، الدار العربية للنشر والتوزيع، (د. ت).

٣٧. «دراسات لأسلوب القرآن الكريم». عضيمة، محمد عبد الخالق (ت ١٤٠٤ هـ)، تصدير: محمود محمد شاكر، (د. ط)، القاهرة: دار الحديث، (د. ت).

٣٨. «دستور العلماء (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون)». الأحمد نكري،

القاضي عبد النبي بن عبد الرسول، عرَّب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، ط: ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٣٩. «**زاد المسير في علم التفسير**». أبو الفرج الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: ٥٩٧هـ). تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط: ١، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٢هـ.

٤٠. «**زهرة التفاسير**». أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد (المتوفى: ١٣٩٤هـ)، (د. ط)، دار الفكر العربي، (د. ت).

٤١. «**علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني)**». الدكتور محمد أحمد قاسم، الدكتور محيي الدين ديب، ط: ١، طرابلس - لبنان: المؤسسة الحديثة للكتاب، ٢٠٠٣م.

٤٢. «**علوم البلاغة (البيان، المعاني، البديع)**». المراغي، أحمد بن مصطفى (المتوفى: ١٣٧١هـ). (د. ن) (د. ط) (د. ت).

٤٣. «**علم المعاني**». عبد العزيز عتيق (المتوفى: ١٣٩٦ هـ). ط: ١، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٤٤. «**غرائب القرآن ورغائب الفرقان**». نظام الدين النيسابوري، الحسن بن محمد بن حسين القمي (المتوفى: ٨٥٠هـ). تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، ط: ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ.

٤٥. «**فتحُ البيان في مقاصد القرآن**». القِنَّوجي، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري (المتوفى: ١٣٠٧هـ)، عني بطبعهِ وقدَّم له وراجعه: خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصَاري،

(د. ط)، صَيدا – بيروت: المكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

٤٦. «**فتح القدير**». الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، ط: ١، دمشق: دار ابن كثير، بيروت: دار الكلم الطيب، ١٤١٤ هـ.

٤٧. «**الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية**». الشيخ علوان النخجواني، نعمة الله بن محمود (المتوفى: ٩٢٠هـ). (د. ط)، الغورية، مصر: دار ركابي للنشر، ١٤١٩هـ– ١٩٩٩م.

٤٨. «**القاموس المحيط**». الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (المتوفى: ٨١٧هـ). تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، ط ٨، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٦ هـ– ٢٠٠٥ م.

٤٩. «**كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**». التهانوي، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي (المتوفى: بعد ١١٥٨هـ). تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم. تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، ط: ١، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٦م.

٥٠. «**الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**». الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (المتوفى: ٥٣٨هـ). ط: ٣، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.

٥١. «الكشف والبيان عن تفسير القرآن». الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم (المتوفى: ٤٢٧هـ). تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، ط ١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م.

٥٢. «الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية». الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ). تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، (د. ط)، بيروت: مؤسسة الرسالة، (د. ت).

٥٣. «اللباب في علوم الكتاب». ابن عادل، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ). تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، ط: ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

٥٤. «لسان العرب». ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي. ط: ٣، بيروت: دار صادر، ١٤١٤ هـ.

٥٥. «لطائف الإشارات (تفسير القشيري)». القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (المتوفى: ٤٦٥هـ). تحقيق: إبراهيم البسيوني، ط ٣، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د. ت).

٥٦. «محاسن التأويل». القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (المتوفى: ١٣٣٢هـ). تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط: ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ.

٥٧. «**المحكم والمحيط الأعظم**». بن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي [ت: ٤٥٨هـ]. تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط: ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٥٨. «**المختصر في التفسير (مختصرات محررة ١)**». إشراف مركز تفسير للدراسات القرآنية، الإصدار الثالث عشر، ط ٢، أوقاف نورة الملاحي، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

٥٩. «**مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد**». الجاوي، محمد بن عمر نووي البنتني إقليمًا التناري بلدًا (المتوفى: ١٣١٦هـ). تحقيق: محمد أمين الصناوي، ط: ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ.

٦٠. «**المستدرك على الصحيحين**». الحاكم ابن البيع، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥هـ). تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط: ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١ - ١٩٩٠.

٦١. «**مسند الإمام أحمد بن حنبل**». الإمام أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ). تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط: ١، القاهرة: دار الحديث، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٦٢. «**المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ**». الإمام مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ). تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (د. ط)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت).

٦٣. «**مشارق الأنوار على صحاح الآثار**». ابن عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي (المتوفى: ٥٤٤هـ). (د. ط)، المكتبة العتيقة ودار التراث، (د. ت).

٦٤. «**المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**». الفيومي، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ). (د. ط)، بيروت: المكتبة العلمية، (د. ت).

٦٥. «**معجم مقاييس اللغة**». ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (المتوفى: ٣٩٥هـ). تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (د. ت)، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٦٦. «**معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**». الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (المتوفى: ٧٤٨هـ). ط: ١، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٦٧. «**مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**». الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ). ط ٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

٦٨. «**من بلاغة القرآن**». أحمد بدوي، أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي (المتوفى: ١٣٨٤هـ). (د. ط)، القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٥م.

٦٩. «**نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**». البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر (المتوفى: ٨٨٥هـ). (د. ط)، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، (د. ت).

٧٠. «**الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه**». مكي بن أبي طالب القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: ٤٣٧هـ). تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي جامعة الشارقة، بإشراف أ.د: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة، ط ١، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة الشارقة، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م.

٧١. «**الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**». الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ). تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط: ١، دمشق: دار القلم، بيروت: الدار الشامية، ١٤١٥ هـ.

الفهرس

مجلة تدبر



البحث الثالث:

السُّنَنُ الإِلَهِيَّةُ الكَوْنِيَّةُ وَالاِجْتِمَاعِيَّةُ لَطَائِفُ وَبَصَائِرُ

د. رَشِيدُ كُهُوس

أستاذ التعليم العالي مشارك
ورئيس «فريق البحث في السُّنن الإلهية»
بكلية أصول الدين بتطوان جامعة عبد المالك السعدي - المغرب

- حصل على درجة الماجستير من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول وجدة - المغرب، تخصص: (فقه الأسرة والتحولات المعاصرة)، في موضوع: «القوامة والدرجة والفضل في ضوء القرآن والسنة وأقوال علماء الشريعة».
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول وجدة - المغرب، بأطروحته: (سنة الله في جهاد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

ملخص البحث

إن السُّنن الإلهية هي فلسفة القرآن للكون والحياة، وهي الميزان الذي توزن به أحوال الأمم والحضارات؛ حيث لا تستقيم أحوال الأمة، إلا إذا فهمت هذه السُّنن الإلهية الكونية والاجتماعية، وانسجمت حياتها وتكيفت معها. ومتى أعرضت عنها وتنكبت هديها جهلا أو غفلة أو تهاونا أو عنادا واستكبارا؛ فإنها حتما ستواجه مصير أمثالها، وتلاقي جزاءها دون تخلف أو محاباة.

أهداف البحث:

- **تأكيد** أهمية موضوع السُّنن الإلهية ومكانته في القرآن الكريم.
- **التعريف** بالسُّنن الإلهية الكونية والاجتماعية.
- **إبراز** مراعاة السُّنن الإلهية في حياة الأمة.

منهج البحث:

لم يخرج البحث عن نطاق القرآن الكريم؛ فهو دراسة موضوعية تنطلق من كتاب الله وتعود إليه، وقد اعتمدت المنهج الاستقرائي والتحليلي والاستنباطي، وذلك بتتبع الآيات القرآنية المتعلقة بالسُّنن الإلهية، ثم تحليلها باعتماد أقوال المفسرين، ومن ثمَّ استنباط المعاني والدلالات، وما ترشد إليه الآيات.

أهم نتائج البحث:

- إن القرآن الكريم أبرز السنن الإلهية وبيَّن أهميتها في حياة الأفراد والأمم والحضارات، وأثر العناية بها.

- **إن السُّنن الإلهية** منها ما يتعلق بالكون (وهذا النوع خارج عن إرادة الإنسان واختياره)، ومنها ما يتعلق بسلوك الإنسان - وحركته في المجتمع والتاريخ - وتكليفه الشرعي. وهذان النوعان مرتبطان بينهما، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.
- **إن عدم مراعاة السُّنن الإلهية في الحياة الإنسانية** له آثار وخيمة على الإنسان فردًا أو جماعةً أو أُمةً وحضارةً.

توصيات البحث:

- **إدراج مادة «السُّنن الإلهية»** ضمن المساقات الدراسية بجامعات العلوم الشرعية وكلياتها.
- **تخصيص الرسائل الجامعية** في المعاهد والكليات الشرعية لدراسة السُّنن الإلهية في القرآن الكريم، تنظيرًا وتطبيقًا.

الكلمات المفتاحية:

الاستفهام_ الإنكار_ القرآن_ النفي_ التوبيخ_ التعجب.

مقدمة

الحمد لله الذي خلق المكوَّنات بقدرته، وأبدع الكون بحكمته، أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، جعل للكون والحياة سننا وشرع لعباده من الأحكام ما يكون لهم ذخرا وسندا، وأشهد أن لا إله سواه، ولا معبود عَلاه، جلّ عن الشركاء والأنداد، وتقدّس عن الصاحبة والأولاد، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده المصطفى ونبيه المجتبى، أرسله بالحق اليقين، والحجة الباقية إلى يوم الدين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فيقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

إن السُّنن الإلهية هي الميزان الذي نحكم به على سائر الأمور، والمقياس الذي نقيس به الأحوال كافة، وهي الفلسفة القرآنية التصورية للكون والحياة، الناظمة للعلاقات بين مختلف التجمعات البشرية والأنساق الحضارية، وهي مفاتيح لفهم تدفق الحياة والوجود وحركة التاريخ وتشكُّل المصائر... لذلك توقف صلاح المجتمعات البشرية وفلاحها ونهوضها وسقوطها على مدى اهتدائها بهدايات السنن، وامتثالها بأحكامها، وعملها بمقتضياتها، والسير في طريقها المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا التواء.

ذلك بأن السُّنن الإلهية منها ما هو كونيّ متعلِّق بخَلْقه تعالى، ومنها ما هو دينيّ متعلِّق بأمره تعالى، ومن ثمّ فإنها يخضع لها كل ما في الكون، سواء الكون المادي الطبيعي؛ أي: الكواكب، والأجرام، والذرات، والمجرات... أو الكون الاجتماعي البشري: كالنفس الإنسانية، والسلوك الاجتماعي، وقيام الأمم

وسقوطها، ومصداق ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣].

لكن المُلاحَظ على فقه السُّنن الإلهية (الفقه الحضاري - فقه الحياة) أنه لم ينل تلك العناية الخاصة التي نالتها باقي علوم الإسلام، ومن ثم أصبح من الواجب التوجه نحو القرآن الكريم قراءةً وتدبرًا واستنباطًا؛ للوقوف على المعالم الكبرى والقواعد الأساسية لهذا الفقه الحضاري.

ذلك بأن دعوة القرآن الكريم إلى السير في الأرض لاكتشاف سُنن الله في الكون وتسخيرها لمصلحة الأمة أدلُّ على إثبات عظمة الخالق جَلَّ وَعَلَا وصدق الرسالة القرآنية الخالدة، من مجرد البحث في القرآن الكريم لاكتشاف الآيات التي تثبت ما أنجزه غيرنا!

هذا وقد تكفَّل الوحي (قرآنًا وسنةً) بتقديم بناء متكامل للمنظومة السننية التي تُحقِّق الرقي الروحي والعقلي والأخلاقي والاجتماعي للإنسان - فردًا وجماعةً وأُمةً وحضارةً - وترقى به إلى مرتبة الاستخلاف في الأرض، وإلى مرتبة الإنسان الصالح في الدنيا والآخرة.

لكن على الأمة أن تستقرئ آيات الكتاب المسطور (القرآن)، وآيات الكتاب المنظور (الكون) - كما فعلت مع فقه الأحكام - لاستكناه كلمات الله التامات وعهوده البينات، واستخراجها في قواعد ذات موضوع واحد؛ حتى يُلِمّ الإنسان بجُلّ السُّنن في الموضوع الواحد؛ ليمضي على بينة من ربِّه بكل ثقة وعزم وحزم نحو غاياته الكبرى (عمارة الأرض، والنهوض بأمانة الاستخلاف، وعبادة الله تعالى).

هذا والأمة لا يستقيم حالها، إلا إذا فهمت هذه السُّنن الإلهية، وانسجمت حياتها وتكيفت معها. ومتى أعرضت عنها وتنكبت هديها جهلا أو غفلة أو تهاونا أو عنادا واستكبارا؛ فإنها حتما ستواجه مصير أمثالها، وتلاقي جزاءها دون تخلّف أو محاباة.

حدود البحث:

يقتصر هذا البحث على تحديد مفهوم السُّنن الإلهية الكونية والاجتماعية، وبيان حجيتها، والكشف عن آثار مراعاتها.

أهداف البحث:

- تأكيد أهمية موضوع السُّنن الإلهية ومكانته في القرآن الكريم.
- التعريف بالسُّنن الإلهية الكونية والاجتماعية.
- إبراز أثر مراعاة السُّنن الإلهية في حياة الأمة.

أسئلة البحث:

- ما مفهوم الإلهية؟
- وما مفهوم السُّنن الكونية والاجتماعية؟
- ما هي آثار مراعاة السُّنن الإلهية؟

منهج البحث:

لم يخرج البحث عن نطاق القرآن الكريم؛ فهو دراسة موضوعية تنطلق من كتاب الله وتعود إليه، وقد اعتمدتُ المنهج الاستقرائي والتحليلي والاستنباطي، وذلك بتتبع الآيات القرآنية المتعلقة بالسُّنن الإلهية، ثم تحليلها باعتماد أقوال

المفسرين، ومن ثمَّ استنباط المعاني والدلالات، وما ترشد إليه الآيات.

الدراسات السابقة:

يندرج بحثي هذا في سياق عدد من الدراسات السابقة التي تناولت موضوع السُّنن الإلهية من جوانب مختلفة، أذكر منها:

كتاب «أزمتنا الحضارية في ضوء سُنَّة الله في الخَلْق»، للدكتور أحمد محمد كنعان، وقد جعله في ثلاثة فصول، قدَّم لها بمدخل ناقش فيه العلاقة بين الجهد البشري والسُّنن الإلهية، ثم تعرَّض في الفصل الأول لأسباب اهتمامه بالسُّنن، وبسط القول في دعوة الوحي (قرآنًا وسنةً) إلى السير في الأرض، والنظر في آيات الله؛ للاهتداء بها في التعامل مع مخلوقات الله تعالى، وذكر في هذا الفصل أيضا خصائص السُّنن الإلهية، كما تناول بالتفصيل ظروف تحقق السُّنن الخارقة، كما هي الحال في المعجزات والكرامات.

أما (الفصل الثاني) فقد خصَّصه لمناقشة عدد من القضايا المهمة التي لها علاقة مباشرة بالأزمة الحضارية الراهنة: كقضية الحرية، والعلم، والاجتهاد، وعلم الغيب.

كتاب «مفهوم السُّنن الإلهية من الفهم إلى التسخير دراسة في ضوء القرآن الكريم»، للدكتور رمضان خميس زكي الغريب، وهذا الكتاب دراسة مفيدة ونافعة، قسَّمها الباحث أربعة فصول: تناول في الفصل الأول مفهوم السُّنن الربانية وأهمية دراستها والآثار المترتبة على إهمالها، أما الفصل الثاني فخصَّصه للحديث عن خصائص السُّنن الربانية وصيغ ورودها في القرآن الكريم ومواردها، وصور التعبير عنها، في حين أفرد الفصل الثالث للعلاقة بين السُّنن الكونية والسُّنن الربانية، أما الفصل الرابع فبيَّن فيه منهجية التعامل مع السُّنن الربانية.

كتاب «سنن الطبيعة والمجتمع في القرآن الكريم - دراسة تأصيلية تطبيقية»، للدكتور بكّار محمود الحاج جاسم، وقد قسَّمه الباحث إلى بابين:

جعل الباب الأول دراسة تأصيلية لمصطلحات الكتاب؛ حيث عرَّف بالسُّنن الإلهية، وبيَّن أشكالها وخصائصها وبعض القضايا المرتبطة بها: كالقضاء والقدر، والمشيئة الإلهية، والحتمية والاحتمالية، والغيب والشهادة وغير ذلك، كما عرَّف بالطبيعة وبيَّن منهج القرآن الكريم في الحديث عنها، وضوابط التفسير العلمي في القرآن الكريم، كما عرَّف بالمجتمع وما يتعلق به.

أما الباب الثاني فخصَّصه لنماذج من سُنن الله في الطبيعة والمجتمع: كالحكمة، والهداية، والتسخير، والحياة والموت، والاصطفاء، والتدافع، والاستدراج، والإملاء، وإهلاك الأمم، والاختلاف والتفاضل، والرزق، والابتلاء، وغير ذلك من سننه تعالى في الطبيعة والمجتمع.

وقد استفدت منها جميعا، لكن الجديد الذي أتى به البحث هو ذكر مرادفات السُّنة الإلهية في القرآن الكريم، وكذلك التفصيل في تقسيم السُّنن باعتبار مجال سريانها إلى نوعين: سُنن الله في نظام الكون، وسُنن الله في سلوك الإنسان. فضلا عن الحديث عن آثار مراعاة السُّنن الإلهية في حياة الأمة، وسيرورتها التاريخية، وصيرورتها الحضارية.

محاور البحث:

تحقيقًا للأهداف السابقة سيكون بحثي في مبحثين رئيسين:

- سأخصِّص المبحث الأول للتعريف بالسُّنن الإلهية وبنوعيها الكونية والاجتماعية.

- في حين سأخصِّص المبحث الثاني لآثار مراعاة السُّنن الإلهية في حياة الأُمّة ومسيرتها الحضارية.

المبحث الأول

مفهوم السُّنن الإلهية الكونية والاجتماعية

المطلب الأول

في تعريف السُّنن الإلهية

١) السُّنة لغةً:

للفظة السُّنة دلالات ومعان في سياقاتها المختلفة:

السين والنون أصل واحد مُطَّرِد، وهو جريان الشيء واطِّراده في سهولة، والأصل قولهم: سننتُ الماء على وجهي أَسُنُّه سنًّا، إذا أرسلتُه إرسالًا. وامْضِ على سَنَنِك، أَي وَجْهك وقَصْدك. وسَنّ اللهُ على يدي فلان قضاء حاجتي: أجراه. والسُّنّة: الطريقة والسيرة، حميدة كانت أو ذميمة [١].

ومن التعريف السابق نستطيع القول: إن معنى السُّنَّة في اللغة يدل على الطريقة والسيرة والوجهة والقصد والتوالي والتتابع والاطراد وجريان الشيء، أو الحكم على طريقة واحدة معتادة.

أما معنى سُنَّة الله في اللغة فهي: «أَحكامه وأَمره وَنَهْيُهُ..» [٢]. قال العلّامة الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سُنَّة الله تعالى: قد تقال لطريقة حِكمته، وطريقة طاعته» [٣].

---

(١) لسان العرب، لابن منظور (١٣/ ٢٢٥ - ٢٢٦). مختار الصحاح، لأبي بكر الرازي، مادة (سنن) (ص١٤٣). المصباح المنير، لأحمد الفيومي المقرئ (ص١٥٢). معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٣/ ٦٠). أساس البلاغة، للزمخشري (ص٤١٨).

(٢) لسان العرب، لابن منظور (١٣/ ٢٢٥).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني (ص٤٢٩). بصائر ذوي التمييز من لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (٣/ ٢٦٧).

وخلاصة القول: سُنَّة الله طريقة حكمته في مجازاته لخلقه التي تجري على نسق واحد منذ بدء الخليقة إلى يوم القيامة، وطريقة طاعة الخلق له بما شرعه من أوامر ونواه.

٢) الدلالة على السُّنَّة الإلهية في القرآن الكريم:

(أ) لفظ السُّنَّة في القرآن الكريم:

أنزل الله - تعالى وتقدَّس - القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وكان معجزة خالدة على مر الأزمان والعصور، أعجز الفصحاء والشعراء والأدباء، وبهذا فإن ألفاظه لا تخرج عن معانيها في اللغة العربية إلا بقرينة، فلفظ السُّنَّة في القرآن الكريم أُطلق على ما هو عليه في لغة العرب، أي «الطريقة والخُطَّة المتبعة»(١)، وسُنَّة الرسل: «هي الشرائع الإلهية المنزلة لهداية الأمم»(٢)، والسُّنن جمع سُنَّة، وسُنَّة الله: «ما جرى به نظامه تعالى في خلقه»(٣).

وقد وردت كلمة السُّنَّة في القرآن الكريم بجميع صيغها ست عشرة مرة: بصيغة «سُنَّة» المفرد ثلاث عشرة مرة، بصيغة الجمع (سُنَن) مرتين، بصيغة «سُنَّتنا» مرة واحدة(٤). وهي كالآتي:

- ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ٣٨ ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

- ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢ ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

---

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (١/ ٦٢٤).

(٢) موسوعة الألفاظ القرآنية، لمختار فوزي النَّعال (ص٤١٣).

(٣) القاموس القويم في القرآن الكريم، لإبراهيم عبد الفتاح (١/ ٣٣١).

(٤) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي (ص٤٥١).

- ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفتح: ٢٣].
- ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٨].
- ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر: ٤٣].
- ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر: ٨٥].
- ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٧].
- ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الكهف: ٥٥].
- ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجر: ١٣].
- ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٧].
- ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النساء: ٢٦].

وباستقراء كل هذه الآيات الكريمة يتضح لنا أن المراد بالسُّنَّة في سياق هذه الآيات:

- سُنَّة الأنبياء والمرسلين السابقين وشرائعهم وطرائقهم في الأوامر والنواهي، والتحليل والتحريم...
- سُنَّة الله في نصر عباده المؤمنين من الأنبياء والرسل والصالحين وتأييده لهم والتمكين لهم.

- سُنَّة الله في عقاب الأمم الكافرة وإهلاكها.

ومن ثم فإن الآيات السابقة كلها تتعلّق بالمطيعين والعصاة؛ فسُنَّته في أهل طاعته من المؤمنين: إكرامهم، وسُنَّته في العصاة من الكافرين: إهانتهم وعقوبتهم.

والصيغ السابقة كلها جاءت في سياق واحد هو السياق الاجتماعي (سنن الاجتماع) المتعلق بأمر الله ونهيه ووعده ووعيده.

أما سُنن الله الكونية فقد عبَّر عنها القرآن الكريم بالآيات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤].

والسُّنن في القرآن الكريم لا تقتصر على السُّنن الاجتماعية - السُّنن التي تحكم سلوك الإنسان - فقط، رغم إيهام الاستقراء بذلك، بل هو اقتصار مقصود، حكمته التنبيه على السُّنن الاجتماعية ولفت الأنظار إليها، وكونها أيضا لازمة مثل السُّنن الكونية.

فمصطلح «السُّنن» ورد في القرآن الكريم في سياق الحديث عن السُّنن الاجتماعية، لكنها تبقى عامة تشمل سُنن الطبيعة (الكون) التي لم يسمها القرآن سُنَّة، لكنه أشار إليها طويلا ودعا إلى الكشف عنها عبر النظر في الكتاب المنظور (الكون)، والسير في الأرض الذي عادة ما يرافق إيراد لفظ «السُّنَّة» في القرآن الكريم أو معناها. كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ٤٣ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ٤٤﴾ [فاطر: ٤٣، ٤٤]. وكقوله جَلَّ وَعَلَا في سياق حديثه عن سُنَّته

في الرسل وسُنَّته في المستهزئين بهم: ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١ ﴾ [الأنعام: ١٠، ١١].

فهكذا يربط دائما السياق القرآني بين سُنن الاجتماع البشري وسُنن الكون، لأنها تمثل وحدة متكاملة وإن اختلفت أشكالها؛ فهي صادرة من إله واحد الذي خلق فشرع وأمر.

(ب) مرادفات «مصطلح السُّنَّة» في القرآن الكريم:

إضافة إلى مصطلح «السُّنَّة» تحدَّث القرآن الكريم عن السُّنن الإلهية بمرادفات أخرى، **منها:**

- **كلمة وكلمات الله التامات:**

قال الله تعالى: ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ ﴾ [الأنعام: ١١٥].

والمعنى هنا: «إن الله قد أتم وعده ووعيده، فظهر الحق وانطمس الباطل، وتم وعده لأوليائه بنصرهم، ووعيده لأعدائه بخذلانهم»[(١)]. فلا تغيير لكلماته وسُننه ولا تبديل لها، ولا يلحقها نقض ولا إبطال.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ [هود: ١١٠]، «أي ولولا ما تقدَّم من الله تعالى من كلمة حق في جعل الجزاء الفاصل بين الناس يوم القيامة فإنه يوم الفصل والجزاء، لعجّل لهم العذاب في الدنيا بإهلاك المبطلين، وتعذيب العصاة بسبب اختلافهم، ولقضي بينهم فيما اختلفوا فيه»[(٢)]. فـ«كلمة» في الآية السابقة وغيرها هي سُنَّته تعالى الماضية في خلقه.

(١) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، للهرري (٩/ ١٩).
(٢) التفسير المنير، للزحيلي (١١/ ١٣٦).

وقال تقدَّست كلماته: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وفى هذه الآيات يذكر الله تعالى عباده بكلماته التامات أي بسُننه في خليقته، وأن من سار على نهجها أدى به ذلك إلى السعادة، ومن حاد عنها ضل وكانت عاقبته الشقاء والبوار، وأن الحق لا بد أن ينتصر على الباطل مهما كانت له أول الأمر من صولة، كما وعد الله بذلك على ألسنة رسله[1].

- **عهد الله:**

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧]. قال الشيخ محمد رشيد رضا في معنى الآية: «الخروج عن سُنن الله تعالى في خلقه التي هداهم إليها بالعقل والمشاعر، وعن هداية الدين بالنسبة إلى الذين أوتوه خاصة، فعهد الله تعالى هو ما أخذهم به بمنحهم ما يفهمون به هذه السُّنن المعهودة للناس بالنظر والاعتبار، والتجربة والاختبار، أو العقل والحواس المرشدة إليها وهي عامة، والحجة بها قائمة على كل من وُهِب نعمة العقل وبلغ سن الرشد سليم الحواس، ونقضه عبارة عن عدم استعمال تلك المواهب استعمالا صحيحا حتى كأنهم فقدوها وخرجوا من حكمها... هذا هو القسم الأول من العهد الإلهي وهو العام الشامل، والأساس للقسم الثاني المكمل الذي هو الدين، فالعهد فطري خَلقي، وديني شرعي... والله تعالى قد وثَّق العهد الفطري بجعل العقول بعد الرشد قابلة لإدراك السُّنن الإلهية في الخَلق، ووثَّق العهد الديني بما أيد به الأنبياء من الآيات البينات والأحكام المحكمات، وقد وثَّق العهد الأول بالعهد الثاني

(١) تفسير المراغي، للمراغي (٤/ ٧٥).

أيضا، فمن أنكر بعثة الرسل ولم يهتد بهديهم، فهو ناقض لعهد الله فاسق عن سُننه في تقويم البنية البشرية وإنمائها، وإبلاغ قواها وملكاتها حد الكمال الإنساني الممكن لها»[1].

- **الكتابة:**

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. هو بيان سُنَّة الله المقررة في وراثة الأرض[2].

- **الآيات والأمثال:**

قال الحق جل في علاه: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور: ٣٤]. «لفت كتاب الله أنظار البشرية جمعاء، إلى أن الإنسان بالرغم مما رزقه الله من عقل لا يمكن له أن يستغني عن الاستنارة بنور الله في تدبير شؤونه الخاصة والعامة، وكما أن (الطبيعة) إنما تسير بانتظام وفقا للنواميس والسُّنن التي وضعها الله فيها وأودعها إياها، فلا بد للإنسان وهو كائن مخيَّر إذا أراد أن يسير في حياته سيرا متئدا موفقا سعيدا، من التزام الشرائع الإلهية التي هي بالنسبة إليه مثل النواميس الكونية بالنسبة للطبيعة المسخرة»[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨]. أي وقد مضت سُنَّتنا في المُكذِّبين لرسلهم من قبلكم، ورأيتم ما حل بهم، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم[4].

---

(١) تفسير المنار، لرضا (١/ ٢٠٣).

(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٤/ ٢٤٠٠).

(٣) التيسير في أحاديث التفسير، للناصري (٤/ ٢٧٢ - ٢٧٣).

(٤) تفسير المراغي، للمراغي (٢٥/ ٧٠).

- **شريعة:**

قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨]. «أي على طريقة وسُنَّة ومنهاج من أمر الدين الذي أمرنا به من قبلك من رسلنا ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾، أي تلك الشريعة الثابتة بالدلائل والحجج»[(١)].

- **وعد الله:**

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [فاطر: ٥]. أي ما سَنَّه جَلَّ وَعَلَا من سُنن الثواب والعقاب؛ حيث وعد بالجزاء الأوفى والثواب العميم من صدق في الاتّباع، وبالعقاب الأليم لمن تنكَّب اتباع شرعه ودينه، وهي سُنَّته تعالى في الطائعين والعاصين.

وقال عز من قائل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

تلك سُنَّة الله في عباده المؤمنين من أمة رسول الله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بالاستخلاف في الأرض**، والتمكين لدين الإسلام الذي ارتضاه لهم، وتحقيق الأمن بعد الخوف. «لكن هذا الوعد الإلهي الذي هو حق وصدق - وسنة إلهية مطردة - وعد مقيد لا مطلق، فهو مرتبط بأمرين اثنين: الأمر الأول الإيمان، والأمر الثاني العمل الصالح. والإيمان يستلزم الإيمان بالله وبوحدانيته، وهي تتضمن وحدة الكون عموما، ووحدة النوع الإنساني خصوصا، ووحدة الرسالة الإلهية بالأخص، والإيمان بالله يستلزم الإيمان بدينه وشريعته، والإيمان بعدله

(١) محاسن التأويل، للقاسمي (٨/ ٤٢٩).

وحكمته، والإيمان برقابته والخضوع لمراقبته، والإيمان ببعث ممارسة كل ما فيه خير وبر وصلاح، للفرد والجماعة، ومقاومة كل ما فيه شر وأذى وفساد بالنسبة لهما جميعا.»(١).

- **الميزان والقسط:**

وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: ٢٥]. إنها سُنَّة الله في الرسل والرسالات، وسُنَّته في إقامة العدل في الأرض والمساواة بين الناس: «فكل الرسالات جاءت لتُقِرّ في الأرض وفي حياة الناس ميزانا ثابتا ترجع إليه البشرية، لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال، وتقيم عليه حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة، وتصادم المصالح والمنافع، ميزانا لا يحابي أحدا لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع.

هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التي تحيق بها في معترك الأهواء ومضطرب العواطف، ومصطخب المنافسة وحب الذات، فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: ٢٥] فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته، لا يهتدي الناس إلى العدل، وإن اهتدوا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه، وهي تضطرب في مهبّ الجهالات والأهواء!»(٢).

وقال جل جلاله: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الأعراف: ٢٩]. «وإن السياق يقتضي

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير، للناصري (٤/ ٢٨٨ - ٢٨٩).
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٤٩٤).

أن يكون ما أمر الله به نقيض الفحشاء، فالقسط هنا يفسر بأنه العدل، والعدل كل أمر في ذاته مستقيم تقره العقول ولا ينكره الذوق السليم، فالعدل يشمل العدل في الحكم، والعدل في الأقوال والأفعال، والاعتدال في كل ما يختار في الأمور، فلا يمتد إلى الحرمان، ولا إلى الاعتداء، بله الإفحاش»[(١)].

- **بصائر:**

قال جل ثناؤه: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾ [الجاثية: ٢٠]. بصائر للناس أي معالم للدين بمنزلة البصائر في القلوب.

أي هذا القرآن دلائل للناس فيما يحتاجون إليه من أمر الدين، وبينات وسنن تبصّرهم وجه الفلاح، وتعرّفهم سبيل الهدى، وهو هدى ورحمة لقوم يوقنون بصحته ويعملون بمقتضى سننه، وهو تنزيل من رب العالمين.

وإنما خص الموقنين بأنه لهم هدى ورحمة، لأنهم هم الذين ينتفعون بما فيه دون من كذّب به من أهل الكفر فإنه عليهم عمى[(٢)].

- **المَثُلات:**

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ [الرعد: ٦]. و«(المَثُلات) جمع مَثُلة، وهي العقوبة العظيمة من الله التي تماثل الذنب وتجعل من نزلت به مضرب الأمثال بين الناس»[(٣)]. تُذكِّر اللاحقين بمصائر أسلافهم من بني البشر وبسُنن الله تعالى في إهلاكهم.

ولذلك «فلم يكن ما حل بمن قبلهم من المصادفات، بل هو من السُّنن المطردة

---

(١) زهرة التفاسير، لأبي زهرة (٦/ ٢٨١٣).

(٢) تفسير المراغي، للمراغي (٢٥/ ١٥٢).

(٣) التيسير في أحاديث التفسير، للناصري (٣/ ٢٢٥).

بالمشيئة والاختيار، فلا هوادة فيه ولا ظلم ولا محاباة»[1].

- **الصراط المستقيم:**

قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ۝٤١﴾ [الحجر: ٤١] «هذا صراط، هذا ناموس، هذه سُنَّة. وهي السُّنَّة التي ارتضتها الإرادة قانونًا وحُكمًا في الهدى والضلال»[2].

- **القَدَر:**

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقۡدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]. «أي وكان أمر الله الذي يُقدِّره كائنا لا محالة وواقعا لا محيد عنه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن»[3]. فهو نافذ مفعول، لا يقف في وجهه شيء ولا أحد، وهو مُقدَّر بحكمة وخبرة ووزن، منظور فيه إلى الغاية التي يريدها الله منه، ويعلم ضرورتها وقدرها وزمانها ومكانها. وقد أمر الله رسوله أن يبطل تلك العادة ويمحو آثارها عمليا، ويقرر بنفسه السابقة الواقعية، ولم يكن بد من نفاذ أمر الله.

وسُنَّة الله هذه قد مضت في الذين خلوا من قبل من الرسل»[4].

- **القول:**

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٢٩﴾ [ق: ٢٩]. أي لا يغيّر الله تعالى قضاءه الذي قضاه، ولا يبدل سُنَّته التي مضت في خلقه، ولا يخلف وعده الذي وعد به عباده المؤمنين ووعيده الذي أوعد به الكفار.

---

(١) تفسير المنار، لرضا (٩/ ٢٧).

(٢) في ظلال القرآن، لقطب (٤/ ٢١٤٢).

(٣) تفسير المراغي، للمراغي (٢٢/ ١٦).

(٤) في ظلال القرآن، لقطب (٥/ ٢٨٧٠).

- **هُدى الله:**

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]. وفي الآية الكريمة بيان لسُنَّته تعالى في الهدى والضلال: «وهذا تقرير لينابيع الهدى في هذه الأرض، فهدى الله للبشر يتمثل فيما جاءت به الرسل، وينحصر المستيقن منه، والذي يجب اتباعه، في هذا المصدر الواحد، الذي يقرر الله سبحانه أنه هو هدى الله، وأنه هو الذي يهدي إليه من يختار من عباده، ولو أن هؤلاء العباد المهديين حادوا عن توحيد الله وتوحيد المصدر الذي يستمدون منه هداه، وأشركوا بالله في الاعتقاد أو العبادة أو التلقي، فإن مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم»(١).

- **الحُجَّة البالغة:**

قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٩]. «فإن لله وحده أعلى درجات العلم، وله الحُجّة البالغة على ما أراد من إحقاق الحق وإزهاق الباطل بما بيَّنه في هذه السورة وغيرها من الآيات البينات على أصول العقائد، وقواعد التشريع الموافقة للعقول الحكيمة والفطر السليمة، وسُننه في الاجتماع البشري، ولا يهتدي بهذه الآيات إلا المستعد للهداية المحب للحق الحريص على طلبه، الذي يستمع القول فيتبع أحسنه، دون من أعرض عن النظر فيها استكبارًا عنها، وحسدًا للمبلغ الذي جاء بها، وجمودًا على تقليد الآباء واتباع الرؤساء ﴿فَلَوۡ شَآءَ﴾ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هدايتكم جميعا إلى الحجة البالغة ﴿لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ ولكن لم يشأ هداية الكل، بل هداية البعض.

أو المعنى: ولو شاء سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يهديكم بغير هذه الطريق التي أقام أمر

(١) في ظلال القرآن، لقطب (٢/ ١١٤٤).

البشر عليها؛ وهي التعليم والإرشاد بطريق النظر والاستدلال؛ لهداكم أجمعين، فجعلكم تؤمنون بالفطرة كالملائكة المفطورين على الحق والخير جل شأنه. وفيه دليل على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يشأ إيمان الكافر، ولو شاء هدايته لهداه»(١).

كما استعمل القرآن الكريم الألفاظ الكونية القدرية والدينية الآتية للدلالة على السُّنن الإلهية:

- **القضاء:** ﴿قَضَىٰٓ﴾ [البقرة: ١١٧] ﴿وَقُضِيَ﴾ [البقرة: ٢١٠] ﴿قَضَيۡنَآ﴾ [القصص: ٤٤].
- **والحكم:** ﴿أَحۡكَمُ﴾ [المائدة: ٤٩] ﴿حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣] ﴿يَحۡكُمُ﴾ [البقرة: ١١٣] ﴿حُكۡمِهِۦٓ﴾ [الكهف: ٢٦].
- **والإرادة:** ﴿يُرِيدُ﴾ [البقرة: ١٨٥] ﴿أَرَدۡنَآ﴾ [الإسراء: ١٦] ﴿نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].
- **والكتابة:** ﴿كُتِبَ﴾ [البقرة: ١٧٨] ﴿كِتَٰبَ﴾ [النساء: ٢٤] ﴿وَكَتَبۡنَا﴾ [المائدة: ٤٥].
- **والأمر:** ﴿أَمۡرُهُۥٓ﴾ [يس: ٨٢] ﴿أَمۡرُنَآ﴾ [القمر: ٥٠] ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٤٧] ﴿أَمۡرٗا﴾ [البقرة: ١١٧] ﴿أَمَرۡنَا﴾ [الإسراء: ١٦] ﴿يَأۡمُرُ﴾ [الأعراف: ٢٨] ﴿يَأۡمُرُكُمۡ﴾ [البقرة: ٦٧].
- **والإذن:** ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [فاطر: ٣٢] ﴿أَذِنَ﴾ [يونس: ٥٩] ﴿يَأۡذَنۢ﴾ [الشورى: ٢١].
- **والجعل:** ﴿جَعَلۡنَا﴾ [البقرة: ١٢٥] ﴿وَيَجۡعَلُ﴾ [يونس: ١٠٠] ﴿جَعَلَ﴾ [البقرة: ٢٢].
- **والكلمات:** ﴿كَلِمَتُنَا﴾ [الصافات: ١٧١] ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤٠] ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١١٥].
- **والبعث:** ﴿بَعَثۡنَا﴾ [الأعراف: ١٠٣] ﴿بَعَثَ﴾ [البقرة: ٢٤٧].
- **والإرسال:** ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ [البقرة: ١٥١] ﴿أَرۡسَلَ﴾ [التوبة: ٣٣].

(١) تفسير حدائق الروح والريحان، للهرري (٩/ ١٣٠).

- والتحريم: ﴿حَرَّمْنَا﴾ [النساء: ١٦٠] ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾ [المائدة: ٢٦] ﴿حَرَامٌ﴾ [النحل: ١١٦] ﴿حُرِّمَتْ﴾ [النساء: ٢٣] ﴿حُرِّمَ﴾ [آل عمران: ٥٠] ﴿حَرَّمَ﴾ [البقرة: ١٧٣].
- والإيتاء: ﴿يُؤْتِي﴾ [البقرة: ٢٤٧] ﴿تُؤْتِي﴾ [آل عمران: ٢٦] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾ [النساء: ٥٤] ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٠] ﴿ءَاتَيْنَٰكُم﴾ [البقرة: ٦٣]...

فما كان من هذه الألفاظ كونيّا؛ فهو متعلِّقٌ بربوبيته وخلقهِ تعالى (سُنن الكون)، وما كان منها دينيا؛ فهو متعلِّقٌ بإلهيته وشَرْعه (السُّنن الاجتماعية أو السُّنن الشرعية).

وعلاوة على ذلك، فإن السُّنن الإلهية تستنبط كذلك من دلالات آيات القرآن الكريم وفحواها، وذلك بترتيب نتيجة ما بناءً على شرط معين أو خبر معين، أو بذكرها في سياق قصة قرآنية معينة، أو في الحديث عن شأن من شؤون الكفار أو الأمم الغابرة، أو في سياق الحكم التكليفي الشرعي أو غير ذلك.

٣) في معنى السُّنن الإلهية في الثقافة الإسلامية:

إن سُنن الله تعالى جاءت تفكّ لغز الكون ومغزاه، وتكشف الغبش واللبس، وتحل المعضلات التي عجزت المدارس المادية الوضعية عن حلها؛ إنها بكل بساطة معايير ثابتة الجذور، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تتحقق بإذن ربها وقدره ومشيئته، فهي بناء مرصوص، لا تزعزعه العواصف ولا القواصم، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا ولا تغييرا.

لنقف مليا عند بعض التعريفات المختلفة للسنن الإلهية:

- **الإمام أبو بكر الجصاص (ت: ٣٧٠هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ**: سُنَّة الله هي: «الطريقة المأمور بلزومها واتباعها»[١].

(١) أحكام القرآن، للجصاص (٣/ ٤٨٧).

- **الإمام القرطبي (ت: ٦٧١هـ)** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سُنَّة الله: يعني طريقة الله وعادته»[(١)].

- **شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ):** «السُّنَّة هي العادة في الأشياء المتماثلة»[(٢)]. وقال أيضا: «هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول»[(٣)].

- **الإمام ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ)** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سُنَّة الله: «عادته في خلقه»[(٤)].

- **الإمام ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سُنَّته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: عادته المعلومة»[(٥)].

- **الشيخ محمد عبده (ت: ١٣٢٣هـ)** رَحِمَهُ ٱللَّهُ هي: «الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حَسَبِهَا تكون الآثار، وهي التي تسمى شرائع أو نواميس ويعبر عنها قوم بالقوانين»[(٦)].

- **الشيخ سعيد النورسي (ت: ١٣٧٩هـ)** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القوانين الإلهية الجارية في العالم التي تبين تنظيم الأفعال الإلهية ونظامها، وتُنظّم شؤون الكون، وهي تجلّ كلي للأمر الإلهي والإرادة الإلهية»[(٧)].

- **الشيخ عبد الكريم بن يونس الخطيب (توفي بعد ١٣٩٠هـ)** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سُنَّة الله:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٦/ ٢٨٠).

(٢) جامع الرسائل، لابن تيمية (١/ ٥٥).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٣/ ٢٠).

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٤١).

(٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم (ص٤٠٨).

(٦) انظر: «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية»، محمد عبده، مجلة المنار، ١٦ جمادى الآخرة ١٣٢٠هـ، المجلد الخامس.

(٧) ينظر: الملاحق (ص٦٨)، واللمعات (ص٥٩)، صيقل الإسلام (ص٤٦٣).

أي نظام الله، وتقدير الله، الذي أقام عليه هذا الوجود...»[(١)].

- **العلَّامة محمد المكي الناصري (ت: ١٤١٤هـ)** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: السُّنن الإلهية والنواميس الكونية هي: «التي يسير الكون بمقتضاها سيرًا محكمًا منظمًا»[(٢)].

- **الدكتور عبد الكريم زيدان (ت: ١٤٣٥هـ)** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة»[(٣)].

- **الدكتور شريف الخطيب**: «السُّنن الإلهية منهج الله في تسيير الكون وعمارته وحكمه، ونواميسه في سير الحياة الإنسانية، ونواميسه في إثابة الطائعين وعقاب المخالفين طبق قضائه الأزلي على مقتضى حكمته وعدله»[(٤)].

- **الدكتور أحمد كنعان**: «هي مجموعة القوانين التي سنَّها الله عَزَّوَجَلَّ لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعا على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها»[(٥)].

- **الأستاذ محمد هيشور**: «القوانين التي يسير وفقها الوجود كله، وتتحرك بمقتضاها الحياة، وتحكم جزئياتها ومفرداتها فلا يشذ عنها مخلوق وما في الكون ذرة أو حركة إلا ولها قانون وسُنَّة»[(٦)].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، للخطيب (٩/ ١٣٥١).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير، للناصري (٤/ ١٠٧).

(٣) السُّنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، لزيدان (ص١٣).

(٤) السُّنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، شريف الخطيب (١/ ٥) بتصرف يسير.

(٥) أزمتنا الحضارية في ضوء سُنَّة الله في خلقه، لكنعان (ص٥٢).

(٦) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، لهيشور (ص٢٧).

- **الدكتور بكار جاسم:** «السُّنَّة هي حكم الله المطرد في المكوَّنات.

ذلك أن القول بـ«حكم الله» تأكيد لمرجعية السُّنَّة فهي تجري بحكم الله وأمره، وليست بحكم الطبيعة أو المجتمع أو الأنفس، فالفعل الحقيقي هو «الله تعالى».

والقول «بالمُطّرد» أي: التتابع في جريان الحكم، والاطراد لا يعني الإلزام والجبر؛ بل مجرد التتابع، إذ لا مُلْزِم لحكم الله تعالى».

والقول «في المكونات» شامل للأنفس والمجتمع والطبيعة، فهذه كلها مكوَّنة بقوله: (كُنْ)»[(١)].

- **الدكتور عبد الكريم بكار عن السُّنن الإلهية بأنها:** «عبارة عن أحكام علوية ماضية مستمرة اقتضتها مشيئة الله تعالى وحكمته البالغة»[(٢)].

- **الدكتور رمضان خميس هو:** «القانون الضابط المهيمن، والفعل النافذ الحاكم الذي يجري باطراد وثبات وعموم وشمول، مرتبا على سلوك البشر»[(٣)].

وكل التعريفات السابقة متقاربة، تجمع على أن السُّنن الإلهية هي: طريقته وحكمته جَلَّ وَعَلَا وتدبيره لهذا الوجود وما فيه ومن فيه.

❁ أما التعريف المختار للسنن الإلهية فهو:

السُّنن الإلهية هي إرادة الله الكونية، وأمره الشرعي، وفعله المطلق، وكلماته التامات، ووعوده الحقة، وحكمه في آفاق الكون وتسلسل التاريخ، الجارية بالعباد من المعاش إلى المعاد.

---

(١) سنن الطبيعة والمجتمع في القرآن الكريم دراسة تأصيلية تطبيقية، لبكار جاسم (ص٢٩).

(٢) كيف نفهم الأشياء من حولنا، لعبد الكريم بكار (ص١٠).

(٣) مفهوم السُّنن الربانية، لرمضان خميس زكي (ص٣١).

المطلب الثاني

في تعريف السُّنن الإلهية الكونية والاجتماعية

إنه رغم الكم الهائل من السُّنن التي يزخر بها الكون، إلا أننا عند إمعان النظر نجدها تنضوي تحت نوعين أساسين من السنن:

الأول: يشمل الجانب المادي من هذا الكون، وهو - بلا شك - الأوسع نطاقا، ويُعرف بسنن الكون أو الطبيعة أو سُنن الآفاق، وتعني نواميس الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في تسيير الكون وعمارته، وهي متعلقة بربوبيته وخَلقهِ جَلَّ وَعَلَا.

الثاني: خاص بالإنسان، وهي السُّنن والقواعد التي تحكم الإنسان - فردا وجماعة وأمة - في علاقته بهذا الكون وخالقه، وتسمى سُنن الاجتماع، أو سُنن الأنفس، أو السُّنن الشرعية أو الأمرية، وهذا النوع من السُّنن متعلق بإلهيته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وشرعه.

ودليل ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالخلق: أفعاله وما قضاه وقدره، والأمرُ: دينه وما شرعه لخلقه.

فإلى بيان مفهوم سُنن الكون وسنن الاجتماع.

١) في مفهوم سُنن الكون:

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ ما أخبر الله تعالى به من آياته في السماوات وَالْأَرضين، وذلك من رفع السَّمَاء، وَخلق الْكَوَاكِب، ودوران الفلك، وإضاءة الشَّمْس وَالْقَمَر، وما أشبه ذلك، وكذلك بسط الأَرْض، وَنصب الْجبَال، وتفجير الْأَنْهَار، وغرس

الْأَشْجَار، إِلَى مَا لَا يُحْصى»[١].

قال الرازي: «إِنَّ الْمُرَادَ بِآيَاتِ الْآفَاقِ: الْآيَاتُ الْفَلَكِيَّةُ وَالْكَوْكَبِيَّةُ، وَآيَاتُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَآيَاتُ الْأَضْوَاءِ وَالْإِضْلَالِ وَالظُّلُمَاتِ، وَآيَاتُ عَالَمِ الْعَنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ[٢]، وَآيَاتُ الْمَوَالِيدِ الثَّلَاثَةِ[٣]»[٤]. أي كل الآيات الموجودة في العالم الأعلى والأسفل.

فالآية الكريمة تستوعب المستقبل كله، مستقبل مَنْ عاصر نزول القرآن، ومستقبل مَنْ يأتي بعد إلى قيام الساعة، بل مستقبل مَنْ تقوم الساعة عليه.

فالقرآن الكريم لم ينزله الله ليُفرغ كل أسراره وكل معجزاته في قَرْن واحد، ولا في أمة واحدة، ثم يستقبل القرون والأمم الأخرى دون عطاء، بل نُزل ليظل جديدًا تأخذ منه كل الأمم وكل العصور، وتقف على أسراره ومعجزاته وآياته في الكون والحياة[٥].

وخلاصة القول: سُنن الكون هي: النواميس الحاكمة في الطبيعة وفي العالم المادي وفي نظام الكون وتركيبه وحركته ومجرياته، وتسمى الآيات الكونية، وآيات الآفاق، وسنن الطبيعة. وتسمى بلسان العصر علوم الفلك والفضاء والأرض والبحار والأحياء.

وهذه السُّنن تخضع لها جميع الكائنات الحية في وجودها المادي وجميع الحوادث المادية، ويخضع لها كيان الإنسان المادي وما يطرأ عليه مثل نموه

(١) تفسير القرآن، للسمعاني (٥/ ٦١). تفسير النكت والعيون، للماوردي (٥/ ١٨٩).
(٢) يقصد بالعناصر الأربعة: الماء والأرض والنار والهواء.
(٣) يقصد بالمواليد الثلاثة: المعادن والنبات والحيوان.
(٤) تفسير مفاتيح الغيب، للرازي (٢٧/ ٥٧٣).
(٥) تفسير الشعراوي (١٩/ ١١٥٦٩).

وحركة أعضائه ومرضه وهرمه ولوازم بقائه حيا ونحو ذلك[1].

وهذا النوع من السُّنن لا خروج لأحد عنها؛ لأنها خاضعة للقدر الكوني ومتعلقة بالخلق والمشيئة الكونية؛ فهي تقع حتما، لكنها قابلة للخرق؛ حيث ينقضها الله تعالى إذا شاء بما شاء؛ فتمضي على غير ما اعتاده الناس، وهو ما يسمى بـ«السُّنن الخارقة»؛ كما وقع في قصة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٩]، وكما وقع لعصا كليم الله موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما تحولت - بإذن الله - إلى حية تسعى، ولما انشقّ القمر لنبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وغير ذلك.

وقد وجَّه القرآن الكريم عناية كبيرة لسُنن الله الكونية، وحثَّ الأمة على النظر في الكون والسعي لاكتشافها وتسخيرها؛ قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ [الجاثية: ١٣]. إنها دعوة إلى التفكر في آيات الله الكونية لاكتشافها من أجل الانتفاع بها وتسخيرها، للنهوض بأمانة الاستخلاف، وعمارة الأرض، وترقية الحياة، وتحقيق الشهود الحضاري...

وهكذا نجد سُنن الكون سخرت للبشرية جمعاء، والإسلام أرشد إليها، «وفصل ما تمَسّ إليه الحاجة، وهدانا إلى أن لكل عمل أثرًا لا يتعداه، وأن الأسباب مربوطة بمسبباتها، وكل سبب يفضي إلى غاية، والأمور الدنيوية لا يمنعها الله عن طلابها إذا أتوا البيوت من أبوابها، والتمسوا الرغائب من طرقها وأسبابها، سواء كانوا مؤمنين أم كافرين، وإنما الإيمان شرط للمثوبة في العقبى وكمال السعادة في الدنيا»[2] ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾ [الإسراء: ٢٠].

---

(١) السُّنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، لعبد الكريم زيدان (ص٧).

(٢) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾، محمد رشيد رضا، فاتحة مجلة المنار، المجلد (١)، العدد ٣١، الصادر في ٢ جمادى الآخرة سُنَّة ١٣١٦ (ص٥٩١).

والجدير بالذكر هنا أن سُنن الكون سخَّرها الله تعالى للإنسان، ليقيم حياته ويبني عمرانه ويحقق ما فيه صلاحه في الدنيا والآخرة، فهي تحت سلطة العقل والتجربة والخبرة مباشرة، حيث يمكن للإنسان أن يكتشف الكثير من قوانينها عبر الملاحظة والتجربة، ومن خلال الاستفادة من التجارب البشرية السابقة وخبراتها، ويمتلك القدرة على استثمار معطياتها المتنوعة في تلبية حاجات خلافته في الأرض ومواجهة التحديات التي تعترضها. قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣]، وقال عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ﴾ [لقمان: ٢٠].

لقد أظهر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القرآن الكريم الكثير من سُنن الكون وأخفى الكثير منها كذلك؛ ليكتشف منها الإنسان في كل زمان ما يناسبه، وما يكون دليلًا جديدًا من الأدلة التي تؤكد صدق ما جاءت به الرسالة المحمدية الخاتمة. قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الروم: ٤٨]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٧ – ٤٠].

فكل هذه الآيات الكريمة وغيرها تنبه على سُنن الله المبثوثة في الكون، وتلفت أنظار البشرية إلى خالقها؛ حتى لا تنصرف عن ربها، وتنحرف عن ناموس الوجود.

٢) في مفهوم سُنن الاجتماع البشري:

إن سُنن الاجتماع البشري (أو السُّنن الشرعية) متعلقة بشرع الله تعالى وأمره ونهيه ووعده ووعيده، وهي خاصة بالإنسان، إذ لا تمرد للطبيعة على فاطرها جَلَّ وَعَلَا. وهذا النوع من السُّنن يملك الإنسان معه حرية الاختيار ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]؛ لكن عليه أن يتحمل تبعات اختياره ونتائجه: إكراما أو عقوبة، ونعيما مقيما أو عذابا مهينا.

وقد عرَّفها الشيخ محمد الغزالي (ت: ١٤١٦هـ) بقوله: «هي تلك القوانين المطردة والثابتة التي أودعها الله في الحياة البشرية، والتي تُشكِّل إلى حدّ كبير ميكانيكية الحركة الاجتماعية وتعين على فهمها»[(١)].

وعرَّفها الدكتور عماد الدين خليل: «إنها المبادئ الأساس التي تحكم حركة التاريخ البشري في ماضيه وحاضره ومستقبله»[(٢)].

ومجمل القول: السُّنن الاجتماعية هي: النواميس المتحكمة في الإنسان - باعتباره فردًا وجماعةً وأُمّةً - وفي فكره وسلوكه وحركته في المجتمع وفاعليته في التاريخ، أو هي مجموعة من القواعد والضوابط والمبادئ والأحكام التي رسمها الله تعالى من أجل إصلاح حال الأفراد والجماعات والأمم في شؤونهم الدنيوية والأخروية، والارتقاء بالنفس البشرية إلى المراتب العلوية، وهي سُنن لا تتغيَر ولا تتبدّل ولا تتحوّل.

والقرآن الكريم أَوْلى اهتمامًا كبيرًا لفقه السُّنن الاجتماعية، من خلال حديثه عن مجموعة من السُّنن العامة، وتوجيه الاهتمام للعناية الشديدة بها، من خلال

(١) كيف نتعامل مع القرآن، لمحمد الغزالي (ص٤٩).
(٢) التفسير الإسلامي للتاريخ، لعماد الدين خليل (ص٩٧).

الدراسة السننية للتاريخ الاجتماعي والحضاري للمجتمعات البشرية عامة، قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧]. فالقرآن الكريم «يربط ماضي البشرية بحاضرها، وحاضرها بماضيها، فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها.

وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم، ولم تكن معارفهم، ولم تكن تجاربهم - قبل الإسلام - لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة، لولا هذا الإسلام - وكتابه القرآن - الذي أنشأهم به الله نشأة أخرى، وخلق به منهم أمة تقود الدنيا»(١).

ولذلك فإبراز السُّنن الاجتماعية المبثوثة في القرآن الكريم؛ تُعَرِّفنا حقيقة أنفسنا وسلوكنا وعلاقاتنا، وعلى حقيقة المجتمعات الإنسانية، كما تُمكِّننا من فهم طبيعة المجتمع المعاصر وحاجاته وتحدياته والتحكم فيه من ناحية أخرى، وفهم شروط تحقيق الفعالية في حركة الخلافة والعمران البشري.

وعليه؛ فإن السُّنن الإلهية الكونية هي أشبه ما تكون بقضبان الحديد التي يسير عليها القطار، وتحكم وجهته بصرامة، حيث لا يستطيع أن يعدل عنها، أو يخرج عليها، فإذا حاد عنها تعرض للخطر، بينما السُّنن الاجتماعية التي تحكم قضايا الإنسان هي أقرب لحركة السيارة التي تحدد الاتجاه والهدف، ويمتلك السائق معها حرية الحركة أكثر في الوصول إلى غايته، وكل محكوم باتجاه، وإن اختلفت طبيعة حركته ومداها(٢).

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب (١/ ٤٤٩).

(٢) مراجعات الفكر والدعوة والحركة، لعمر عبيد حسنة (ص٩). علم السُّنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العلمي، لكهوس (ص٢٩).

خلاصة القول:

إن سُنن الكون وسنن الاجتماع تمثل إعجازا قرآنيا خالدا، وناموسا ثابتًا ومطردا، يمثل القواعد الأساس للحياة الإنسانية المستقيمة.

وهي بنوعيها تخرج من مشكاة واحدة؛ ولا يمكن الفصل بينهما، وقد قرن الله في آيات كثيرة من كتابه العزيز بينهما، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج: ٦٠، ٦١].

قال الشيخ الطاهر ابن عاشور (المتوفى: ١٣٩٣هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لهذه الآية: «أي لا عجب في النصر الموعود به المسلمون على الكافرين مع قلة المسلمين؛ فإن القادر على تغليب النهار على الليل حينا بعد أن كان أمرهما على العكس حينا آخر، قادر على تغليب الضعيف على القوي، فصار حاصل المعنى: ذلك بأن الله قادر على نصرهم.

والجمع بين ذكر إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل للإيماء إلى تقلب أحوال الزمان فقد يصير المغلوب غالبا، ويصير ذلك الغالب مغلوبا»[(١)].

وهكذا تربط الكثير من الآيات القرآنية بين السُّنن الإلهية التي يخضع لها نظام الكون، والسُّنن الإلهية التي تحكم سلوك البشر، وليس ذلك عبثا ولا صدفة، ولكن لحكم جليلة، وأسرار بليغة، ولعل من ذلك جعل الإنسان ينصرف من الإعراض والاستكبار عن ذكر ربه إلى الاهتداء بما جاءت به رسالة الإسلام من تشريعات وما دلت عليه من حقائق علمية

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٧/ ٣١٥).

المبحث الثاني

حجية السُّنن الإلهية وأثر مراعاتها والعمل بمقتضاها

المطلب الأول

حجية السُّنن الإلهية

يعتبر القرآن المجيد الآية الأولى لرسول الله ﷺ، ودليله الأعظم على نبوته ورسالته للعالمين، وهو يحمل الدليل من ذاته على أنه كلام الله تعالى، أوحى به لنبيه ﷺ، وإعجازه يثبت مصدره القرآني، وأنه كلام الله تعالى[(١)].

و«**من المعلوم ضرورة في الشرع أن القرآن كله قطعي الثبوت**، حيث نقل بالتواتر المستفيض جيلا عن جيل من حيث التحمل والأداء، فضلا عن أنه جُمع في عصر أبي بكر الصديق رضي الله عنه الجمع الأول ثم استكمل جمعه على ما هو عليه الآن في عصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه»[(٢)]. كتابا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾﴾ [فصلت: ٤١].

وحيث إن السُّنن الإلهية مذكورة في القرآن الكريم ومستمدة ومستنبطة من آياته، فلا غرو أن تكون قطعية الثبوت محفوظة المتن كشأن سائر القرآن، وقطعية الدلالة والاعتبار[(٣)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أمّا الاستدلال بسُنَّته وعادته، فهو أيضًا طريق برهاني ظاهرٌ لجميع الخلق، وهم متفقون عليه؛ من يقول بالحكمة؛

---

(١) إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، لصلاح الخالدي (ص٥).

(٢) السُّنن الإلهية في الأمم والافراد في القرآن الكريم، لمجدي عاشور (ص٤٩).

(٣) المرجع نفسه (ص٤٩ - ٥٠).

ومن يقول بمجرد المشيئة؛ فإنّه قد علم عادته سبحانه في طلوع الشمس والقمر والكواكب، والشهور والأعوام، وعادته في خلق الإنسان وغيره من المخلوقات، وعادته فيما عرفه الناس من المطاعم، والمشارب، والأغذية، والأدوية، ولغات الأمم: كالعلم بنحو كلام العرب وتصريفه، والعلم بالطب وغير ذلك.

كذلك سُنَّته تعالى في الأنبياء الصادقين وأتباعهم، وفيمن كذّبهم، أو كذب عليهم؛ فأولئك ينصرهم ويعزّهم، ويجعل لهم العاقبة المحمودة، والآخرون يهلكهم ويذلهم، ويجعل لهم العاقبة المذمومة؛ كما فعل بقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وفرعون وقومه؛ وكما فعل بمن كذّب محمدًا؛ من قومه قريش، ومن سائر العرب، وسائر الأمم غير العرب؛ وكما فعل بمن نصر أنبياءه وأتباعهم»(١).

وإنما تكون العبرة بالقياس والتمثيل، فإذا عرفت قصص الأنبياء ومن اتبعهم ومن كذَّبهم، وأن متبعيهم كان لهم النجاة والعاقبة والنصر والسعادة، ولمكذبيهم الهلاك والبوار جعل الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي، فعلم أن من صدَّقهم كان سعيدا، ومن كذَّبهم كان شقيا، وهذه سُنَّة الله تعالى(٢).

ولو لم تكن **السُّنن الإلهية قطعية الدلالة** لما أمر الله تعالى بالسير في الأرض والنظر فيمن جرت عليهم سُنَّته، في قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٧، ١٣٨].

ومن هنا فهم العقلاء هذه الحجية للسن الإلهية، فاستدلوا بها وأقاموا من

---

(١) النبوات، لابن تيمية (٢/ ٩٥٨ - ٩٦٠).

(٢) مفهوم السُّنن الإلهية من الفهم إلى التسخير، لرمضان خميس (ص٩٣ - ٩٤).

خلالها الحجة على أقوامهم[١].

وهكذا يتبيَّن لنا أن السُّنن الإلهية قطعية الدلالة على مرادها؛ لأنها لو لم تكن كذلك لما كانت مطردة سارية على الجميع لا تتبدل ولا تتحول ولا تحابي أحدا.

أضف إلى ذلك أن الآيات المتعلقة بالسُّنن الإلهية لم يدخلها النسخ الذي يشمله معنى التبديل، لكونها من قبيل الأفعال والأخبار، وآيات القرآن الكريم الآيات تقرر أن سُنن الله تعالى لا يعتريها التبديل ولا التغيير.

ومن ثم يجب علينا «أن نجعل هذه السُّنن علما من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبيِّنون لها سُنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وقد بيَّنها العلماء بالتفصيل عملا بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه.

والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن سجل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم؛ إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها، ولا يحتج علينا بعدم تدوين الصحابة لها؛ فإن الصحابة لم يدونوا غير هذا العلم من العلوم الشرعية التي وُضِعت لها الأصول والقواعد، وفُرِّعت منها الفروع والمسائل، وإنني لا أشك في كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السُّنن وعالمين بمراد الله من ذكرها. يعني أنهم بما لهم من معرفة أحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم ومن التجارب والأخبار في الحرب وغيرها، وبما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط كانوا يفهمون المراد من سُنن الله تعالى، ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للأمم»[٢].

(١) المرجع نفسه (ص٩١ - ٩٢).
(٢) تفسير المنار، لمحمد رضا (٤/ ١١٤).

وعلاوة على ذلك فإن الله جَلَّ وَعَلَا **لما جعل الإنسان خليفة في الأرض،** لم يتركه سدى، ولم يدعه هملا، بل شرع له شرائع وسنَّ له نواميس، وفصَّل لهم كل شيء تفصيلا، وبيَّن له ما نزل إليه، وما جاء به نبيه الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمره بالتزامها وعدم الحياد عنها، ونبهه إلى مغبة الحياد عن سُنن الحق.

المطلب الثاني

آثار مراعاة السُّنن الإلهية والعمل بمقتضاها

إن الحديث عن السُّنن الإلهية الكونية والاجتماعية يعد منارة للأمة المسلمة اليوم في ظلمات هذا العصر بما فيه من محن وفتن ومعضلات... ذلك بأن الأمة التي تستنير بهدي السُّنن وتستضيء بنورها لن تضل أبدا عن الطريق المستقيم، ولن ينطفئ نورها.

وتتجلى أهمية معرفة السُّنن الإلهية في كونها من الواجبات الدينية والضرورات الشرعية؛ لأن معرفتها تمكننا من إدراك الكثير من الأحكام التكليفية وعللها، وما انبنت عليه الشريعة الغراء من العدل المحض.

يقول عبد الكريم زيدان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن معرفة سُنن الله جزء من معرفة الدين أو لمعرفة جزء من الدين، وأن هذه المعرفة ضرورية، ومن الواجبات الدينية؛ لأنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة حتى لا نقع في الخطأ والعثار والغرور والأماني الكاذبة، وبذلك ننجو مما حذرنا الله منه، ونظفر بما وعد الله عباده المؤمنين المتقين»(١).

كما تتجلى أهميتها في أنها تبعث الطمأنينة والوضوح في نفوس أتباع هذا الدين الإلهي، فضلا عن تقديم رؤية شمولية لتاريخ البشرية من خلال تقديم تفسير صحيح له، وبيان أسباب الرقي والاندثار فيه، حتى يكون الإنسان قادرًا على الاعتبار من التاريخ، والاستفادة من التجارب الناجحة فيه، سعيا للوقاية الحضارية وتحقيق الشهود الحضاري.

(١) السُّنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، لزيدان (ص١٧).

وعليه، فإن مستقبل العمران البشري الذي ترنو إليه الأمة المسلمة وتشرئب له الأعناق لن تصل إليه الأمة إلا بتسخير هذه السُّنن الإلهية التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية والعمل بمقتضاها.. وإن أول طريق يمر عبره هذا التسخير هو الكشف عن السُّنن الإلهية التي نبه عليها القرآن الكريم، وحث على إدراكها ووعيها والإحاطة بها والتوسع في معرفتها بتفاصيلها وجزئياتها، والأخذ بها، والسير على سكَّتها.

ذلك بأن فقه السُّنن الإلهية «لا يشكل لنا وقاية من الأزمات والإصابات التي يمكن أن تلحق بنا بسبب جهلها أو تجاهلها ومحاولة تجاوزها وحسب، وإنما فقه السُّنن يشكل لنا دليلا للتعامل مع الأزمات وكيفية إدارتها بعد وقوعها، وتجنبها قبل وقوعها»[١].

ومن هذا المنطلق فإن تعرُّف السُّنن الإلهية هو السبيل الأمثل لفهم الظواهر الاجتماعية وحركة التاريخ وفاعلية الإنسان فيه، وبقاء الأمم واندثارها، وهو المهيع الصحيح لفهم الحياة المعاصرة، ووضع الخطط الناجحة للخروج من الركود والعجز الحضاري وتصحيح المسار والرقي إلى مكان الصدارة والريادة، وتحقيق الدورة الإنجازية الكبرى والشهود الحضاري.

إن فقه السُّنن الإلهية والتعامل معه بوعي وعلى بصيرة من شأنه أن يخلص الأمة من أغلال الذرائعية، وقيود الاتكال، وآصار الفكر الإرجائي، وأن يسددها على سكة الصواب ويبعث فيها روح الحيوية والانبعاث من جديد.

يقول الأستاذ إبراهيم بن علي الوزير: «إن في تاريخ كل أمة منعطفا يتاح فيه للأمة تغيير مجرى حياتها بتأمل السُّنن وفهمها ودراستها والاستفادة منها

(١) المنهج السنني، لعمر عبيد حسنة (ص٧٤).

للخروج من وهنها وضعفها وضياعها بين الأمم... إلى مكان عزيز منيع ... فإن لم تستفد من هذا المنعطف التاريخي، فإن قوارع الآيات وعجائب النكالات تنزل بها متدفقة عليها من كل جانب، آخذة عليها كل سبيل حتى تنقرض وتزول أو يستقيم ما بنفسها فيصلح أمرها»[(١)].

ولقد دعا بديع الزمان النورسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المسلمين دعوةً صريحة إلى تسخير ما بث الله في هذا الوجود من سُنن؛ من أجل تحقيقِ نهضة حضارية رائدةٍ وانبعاث إسلامي جديد، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينا أثر السُّنن في نهوض الأمم وسقوطها: «فكما أن هناك طاعة وعصيانا تجاه الأوامر الشرعية المعروفة، كذلك هناك طاعة وعصيان تجاه الأوامر التكوينية. وغالبا ما يرى الأول مطيع الشريعة والعاصي لها جزاءه وثوابه في الدار الآخرة، والثاني مطيع السُّنن الكونية والعاصي لها غالبا ما ينال عقابه وثوابه في الدار الدنيا.

فكما أن ثواب الصبر النصر، وجزاء البطالة التقاعس والذل والتّسَفُّل، كذلك ثواب السعي الغنى، وثواب الثبات التغلبُ»[(٢)].

ويضيف في موضع آخر: «إن من يشقُّ طريقا في الحياة الاجتماعية ويؤسس حركةً، لا يستثمر مساعيه، ولن يكون النجاح حليفه في أمور الخير والرقي، ما لم تكن الحركة منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون، بل تكون جميع أعماله في سبيل التخريب والشر»[(٣)]. ويقول أيضا مخاطبا ساسة الأمة ورعاتها: «يا أولياء الأمور! إن أردتم التوفيق فاطلبوه في موافقة أعمالكم للسنن الإلهية في الكون - أي قوانين الله - وإلا فلن تحصدوا إلا الخذلان والإخفاق»[(٤)].

(١) دراسة في السُّنن الإلهية والمسلم المعاصر، لابن علي الوزير (ص١١).
(٢) الكلمات، للنورسي (ص٨٧٢).
(٣) اللمعات، للنورسي (ص٢٥٧).
(٤) صيقل الإسلام، للنورسي (ص٥٣١).

ومن ثم فإن أي محاولة للتغيير الاجتماعي تتنكب سُنن الله تعالى فمآلها الفشل الذريع.

هكذا يجب الربط بين حركة الإنسان نحو التغيير والنهضة الاجتماعية، وسنن الله تعالى في الوجود، هذا الربط الذي من شأنه أن يعمِّق النظر ويرسم المنهاج المستقيم في اكتشاف ما في الكون من سُنن ثابتة ومطردة، وربطها بقوانين التشريع الاجتماعي، لتحقيق النهضة الشاملة لحضارة الإسلام في ظل الواقعِ المعاصر.

وبناء على ما تقدم، فإن الوعي بالسُّنن الإلهية وتسخيرها والسير على هداها هو المدخل الرئيس والمنطلق الصحيح لنهضة الأمة وسياسة الرعية.

ومن ثم فإن على دعاة الإصلاح والتغيير الإحاطة بالسُّنن الإلهية في الإصلاح والتغيير والنهوض قبل العمل والإنجاز، قياسا على سُنن الله التي تحكم حركة الكون بمفرداته كلِّها، وتنظِّمها في ميزان متراصٍّ.

فبدون معرفة بسنن الاجتماع، وسنن الكون، لا يمكن لحركات التغيير الاجتماعي والنهوض الحضاري أن تستأنف عملا إصلاحيا سديدا، بل ستقذف جهودها إلى صحراء العدم.

فلا ريب إذن أن يؤدي عدم التعامل مع سُنن الله بشكل صحيح، وإغفالها وعدم إدراك كنهها، والتقصير المعرفي بها إلى استنزاف الكثير من طاقات المسلمين ومساعيهم، وتعثر خطواتهم في طريق البناء والرقي والصيرورة الاستخلافية والشهود الحضاري.

ولذلك يعتبر الزيغان عن منهاج السُّنن الإلهية، والعدول عن كشف ما تتضمنه من عبر وعظات ونواميس مطردة تأخذ بيد الأمم إلى بر الأمان وشاطئ النجاة، وتنأى بها عن السقوط في المهاوي والزلات، وتوجيه البحوث لدراستها واستنباطها والاستفادة من الوقوف على معطياتها؛ مما أورثنا التأخر عن الركب

الذي نعيشه ونعاني منه.

فالسُّنن الإلهية هي التي تسير حركة التاريخ وتفسر أحداثه، وفق مسالك مقننة لا سبيل للخروج عنها. والمتدبر لآيات القرآن الكريم يجده حافلا بالحديث عن هذه السنن، وقد بينتها السُّنَّة المُطهَّرة الصحيحة في مواطن كثيرة.

فواجب على الإنسان المسلم «أن يفقه سُنن الله فقها شاملا واعيا يهدي إلى سبيل الرشاد، ينفع الأمة ويكشف الغمة، وعلى ضوئها وفي نوره يبني مجتمعه العمراني الإسلامي ويستنبط منهاجه»[(١)].

يقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ داعيا إلى مراعاة السُّنن الإلهية وإعمالها: «فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافًا، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين، بدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول»[(٢)].

ويقول الشيخ محمد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع، أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله، ويبني عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن إلا الشقاء، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه، أو اتصل بالمقربين سببه، فمهما بحث الناظر وفكّر، وكشف وقرَّر، وأتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه،

(١) سنة الله في جهاد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لرشيد كهوس (ص٨).
(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب (١/ ٤٥٠).

ولا تنفر منه، فَلِمَ لا يعظم تسامحها معه»[1].

إذن، فالكون تحكمه سُنن الله تعالى التي يرتبط رقي الإنسان بمعرفتها وتسخيرها، فهو لا يستطيع أن يمارس حريته إلا في نطاق ناموس الوجود المحيط به، كما أنه لا يستطيع أن يغير سننه وقوانينه، وإنما يستطيع أن يستثمرها ويسخرها ويستفيد منها وحسب، والسير في الكون على نظام وفقًا لسنن معينة في تقديراتها الكمية والكيفية، هو القدَر، أو هو من القدَر.

فالله تعالى هو جعل للحياة والكون نظاما وسُننا، وهو مسخِّر الأسباب، والوصول إلى هذه الأشياء بسعي الإنسان، وكل شيء حسن بهذا الاعتبار؛ لأنه مظهر الإبداع والنظام. ولا يقع الإنسان في شيء يسوءه إلا بتقصير منه في استبانة الأسباب وتعرُّف السنن، وقد أوتي قدرة على العمل اختيارا في تقدير الباعث الفطري وما يترتب عليه من درء المضار وجلب المنافع.

فينبغي لمن أصابه سوء أن يبحث عن سببه من نفسه، وألا يكتفي بإسناده إلى غيره؛ لأن السيئة تصيب الإنسان بتقصيره وخروجه عن سُنَّة الله في التماس المنفعة من أبوابها، واتقاء المضار باتقاء أسبابها؛ لأن الأصل في نظام الفطرة البشرية هو ما يجد الإنسان في نفسه من ترجيح الخير لها على الشر، والنافع على الضار[2].

ولعل تدبر **آيات القرآن الكريم وفق هذه الرؤية الشاملة الكاملة** يجعلنا نقف على المنهاج القرآني لكيفية التعامل مع الحياة الإنسانية من جوانبها كلها، ويقصر الطريق أمامنا عن طريق الاستفادة مما وقع للأمم الغابرة من ازدهار وانهيار، وقيام

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، مجلة المنار، ١٦ جمادى الآخرة - ١٣٢٠هـ، المجلد الخامس (ص٤٤٣). أحلام في السياسة وكيف يتحقق السلام، لطنطاوي (ص١٨).

(٢) ينظر: مبدأ السببية في الفكر الإسلامي في العصر الحديث، لمحمود نفيسة (ص٥١٧). وتفسير المنار، لرشيد رضا (٥/ ٢١٨). ونظام الإسلام العقيدة والعبادة، لمحمد مبارك (ص٨٣).

وسقوط؛ من أجل العمل وفق سُنن النهوض، وتجنب سُنن السقوط.

والجدير بالذكر هنا أننا من خلال السُّنن الإلهية يمكن أن «نفسر الإصابات والارتكاسات، وتوالي الهزائم، واستمرار السقوط، والانحدار، والانكسار، والتراجع الذي يمنى به العالم الإسلامي والمسلمون بشكل عام»[1].

ومن شأن هذه السُّنن أيضا أن توقفنا على مقومات النهوض، وأن تساعدنا على إدراك المقاصد وإبصار المخارج، وتحصيل المؤهلات، وامتلاك الوسائل في مسيرتنا العمرانية، ومن شأنها أن تمكننا من تصويب الحاضر وإدراك أسباب تغيير المجتمع إلى الارتقاء أو الارتكاس للاهتداء إليها والاتعاظ بها لبناء المستقبل ولتحقيق الوقاية الحضارية[2].

ذلك، ولو «تأمَّل المسلمون تاريخ أمتهم مليا؛ لأدركوا أن عزتها ومجدها وسمو حضارتها كان مرتبطا بسنن قرآنية وقواعد وضوابط ربانية محددة لا تتخلف إلا بقدر ما يتخلفون هم عنها»٣.

وتأكيدا لضرورة العمل بمقتضى السُّنن الإلهية وتسخيرها، يقول الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصبحنا نسمع بضرورة الإفادة من هذه السنن، بل لعل ذلك أصبح قناعة عند الناس بشكل عام، لكن هذه القناعة لم تجد طريقها إلى الممارسة، ولم تنتقل بمواقعنا إلى مراحل تغييرية (...) ولو أخذت أبعادًا حقيقية لكانت الأمة انتقلت من الفكر إلى الفعل، فالتحول وإعمال السُّنن هو المختبر الحقيقي لإدراكها والقناعة بها. إن هذه القضية لم تُشكِّل مناخا عاما يعيشه

---

(١) من فقه التغيير، لعمر حسنة (ص٩٤).

(٢) رؤية في منهجية التغيير، لعمر حسنة (ص٣٠).

(٣) نحو تجديد منهج النظر في قضايا الفكر الإسلامي آراء وتحاليل، للمصطفى الهند (ص١٩).

المجتمع، أو لم تحفر بعد في واقع الأمة المجرى المطلوب لسيرورتها»[١].

وهكذا فمن «اتخذ سُنن الله مطية في بدايته أشرقت نهايته، وبوركت مسيرته، وثبتت أركان دولته ثبات الكلمة الطيبة التي مثلها القرآن الكريم بشجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. ومن نأى عنها وحاد عن مهيعها؛ استدرجه قدر الله من حيث لا يحتسب، وجاءه حتفه من حيث لا يشعر»[٢].

ومن السُّنن التي يجب مراعاتها مثلا سُنَّة الله في الأسباب ومسبباتها:

ذلك بأن القرآن الكريم حافل بالآيات التي تدعو إلى مراعاة الأسباب والمسببات، ألم يقل سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لأم عيسى مريم البتول عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [سورة مريم: ٢٥]، وهو القادر أن يقول للشيء، كُنْ فيكون، ومع ذلك أمرها باتخاذ الأسباب.

ومن هذه الآيات الكريمة كذلك التي تتحدث عن الأسباب وضرورة الأخذ بها والتعامل معها لتكون عبرة لأولي الأبصار قوله جَلَّ وَعَلَا عن ذي القرنين الذي سخر الله له الأسباب: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ٨٤﴾ [الكهف: ٨٤].

وقوله تعالى في أسباب الرزق: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: ٢٢].

وسنة الله تعالى في الأسباب والمسببات تشغل مساحة واسعة وكبيرة بالنسبة

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن، للغزالي (ص٥٣).

(٢) السُّنن الإلهية في السيرة النبوية، لكهوس (ص١٤٠).

للسنن الأخرى، بل إن السُّنن الأخرى تقوم كلها على سُنَّته تعالى في الأسباب بصورة مباشرة أو غير مباشرة، حتى لتبدو للمتأمل فيها كأنها من مفردات سُنَّة الله في الأسباب وليست سننا مستقلة، وكل السُّنن تبقى مع ذلك قائمة على سُنَّة الله تعالى في الأسباب ومعتمدة عليها.

وما أصاب الأمة الإسلامية اليوم، إلا بسبب كسلها وخمولها، واكتفائها بالأماني المعسولة والأحلام، وعدم الأخذ بأسباب التغيير والبناء، فكان حالها ما نراه اليوم من الخطوب التي تلهب ظهرها بكرة وعشيًّا.

والحاصل أن المسلم يأخذ بسنن الأسباب، ولا يعتقد بأن الأسباب هي المنشئة للمسببات، بل يرد الأمر كله إلى خالق الأسباب، ويتعلق به عَزَّوَجَلَّ وحده بعد الإعداد وتوفير الأسباب، وأداء واجبه في السعي والكدح والعمل طاعة لأمر الله تعالى.

والإيمان بالله تعالى والاعتماد عليه لا ينافي أبدًا الاستفادة من سُنن الله التي جعلها في الكون، ولا يناقض اتخاذ الأسباب.

ولذلك فإن الله تَبَارَكَوَتَعَالَى إذا أراد وقوع شيء في هذا الوجود هيَّأ له أسبابه التي يقع بها، لأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى «جعل نظام هذا الكون مبنيًا على سُنن لا تنخرم، وقوانين لا تنخرق إلا بمشيئته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، كما هو الشأن في المعجزات وخوارق العادات، وهو استثناء من القاعدة التي قام عليها الكون من اعتبار الأسباب حقيقة في الوصول إلى مسبباتها، وقد قيل: إذا أراد الله أمرًا يسَّر أسبابه»[(١)].

فترك الأسباب إذن جهل بالدين؛ لأن سُنَّة الأخذ بالأسباب لها علاقة وطيدة بسنن أخرى: كسنن الرزق، والهدى، والإصلاح، والتغيير الفردي والاجتماعي، والبناء الحضاري، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل.

---

(١) السُّنن الإلهية، لعاشور (ص١٤٩).

فالتقصير في تحصيل سُنن الله التي أمرنا بالسير على هديها تترتب عليه نتائج وخيمة، ومن ثم لا يتأتى على هذا التقصير في تحصيلها مدد من الله، أو خرق لناموسه الكوني الذي قام نظام الحياة فيه على ارتباط النتائج بمقدماتها، وفضل الله لا يتأتى بمعصيته، ولذلك فانتظار خرق الناموس الكوني دون السعي الحثيث واتخاذ الأسباب المطلوبة شرعًا يعد وهمًا مآله الخيبة والخسارة.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ربط الأسباب بمسبباتها شرعًا وقدرًا، وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الديني والشرعي وأمره الكوني، ومحل ملكه وتصرفه، فإنكار الأسباب والقوى والطبائع جحد للضروريات، وقدح في العقول والفطرة، ومكابرة للحس وجحد للشرع والجزاء، فقد جعل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، والثواب والعقاب والحدود والكفارات، والأوامر والنواهي، والحل والحرمة - كل ذلك - مرتبطًا بالأسباب قائمًا بها، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه ، بل الموجودات كلها أسباب ومسببات، والشرع كله أسباب ومسببات، والقدر جار عليها متصرف فيها.

فالأسباب محل الشرع والقدر، والقرآن مملوء من إثبات الأسباب ولو تتبعنا ما يفيد ذلك من القرآن والسنة لزاد على عشرة آلاف موضع حقيقة لا مبالغة(١).

لذلك وجب على الإنسان أن يسعى في تدبير أمور نفسه بحسب ما علمه من السُّنن الإلهية في نظام الأسباب وارتباطها بالمسببات، معتقدًا أن الأسباب لم تكن أسبابًا إلا بتسخير الله تعالى وأن ما يناله باستعمالها، فهو من فضل ربه الذي سخرها وجعلها أسبابًا وعلمه ذلك(٢).

---

(١) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي (١/ ١٨٩). شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن قيم الجوزية (ص٣٩٣).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٥٩٣).

فشأن المؤمن المتوكل في دائرة الأسباب أن يطلب كل شيء من سببه، خضوعًا لسننه تعالى في نظام خلقه، وهو بذلك يطلبها من حيث أمره أن يطلبها أمرًا تكوينيًا قدريًا وتشريعيًا وتكليفيًا(١).

خلاصة القول: إن السير في الدنيا دون الوقوف على شيء من علم السُّنن ضرب في متاهة، ومشي في غياهب الظُلَم بلا دليل يقود، ولا هاد يرشد، ولا صاحب يدل؛ لأنه فَقْدٌ لاستصحاب جزء من المعرفة التي يترتب عليها الإعداد لكل نازلة، أو الإفادة من كل منحة(٢).

وإن السُّنن الإلهية التي سار عليها الرعيل الأول رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وحققوا بها الريادة والصدارة، وكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس، هي نفسها الخالدة في كتاب رب العالمين بشرائطها وموانعها لم تتغير ولم تتبدل، صالحة لكل عصر ومصر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فما على الأمة اليوم إلا أن تجدد النظر في هذا الكتاب الحكيم حتى يتبين لها إعجازه الخالد وأسرار آياته وسُننه، فتسلك طريقه فتحقق بذلك ما عجزت عن تحقيقه الأمم.

وهكذا يبقى القرآن الكريم المعجزة الخالدة، كنز يستفتحه كل عصر بأدواته ليأخذ منه ما تسنى له من جواهره ودرره، ويقتبس من أنواره، ويقف عند فوائده وفرائده، وهو كريم كلما استثير أعطى، وهو منبع العلوم والمعارف ومفتاح الهدى والرشاد، والحل الوحيد لكل المشكلات والمعضلات التي حلَّت بنا اليوم؛ لأنه ليس بمعزل عن الحياة الإنسانية ومشكلاتها وعقباتها وتقلباتها، بل جاء ليهدي الناس جميعا إلى سننه تعالى الكونية والاجتماعية، ويقودهم إلى

---

(١) المرجع نفسه (١٠/ ١٢٧).

(٢) فقه السُّنن الربانية ومدى إفادة المسلمين منها قراء في فكر الإمام محمد عبده، لرمضان خميس (ص٣٩).

طريق الحق واليقين في كل أمر من أمور دينهم ودنياهم، وصدق الله القائل في محكم التنزيل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

خاتمة

من خلال ما سبق نصل إلى النتائج الآتية:

- **إن القرآن الكريم أبرزَ السُّنن الإلهية**، وبيّن أهميتها في حياة الأفراد والأمم والحضارات وأثر العناية بها.

- **إن أصل علم السُّنن الإلهية في القرآن الكريم الذي أسبغ عليه المشروعية**، فالسُّنن الإلهية بذلك قطعية من حيث الثبوت والدلالة والاعتبار.

- **إن السُّنن الإلهية منها ما يتعلق بالكون** (وهذا النوع خارج عن إرادة الإنسان واختياره)، ومنها ما يتعلق بسلوك الإنسان - وحركته في المجتمع والتاريخ - وتكليفه الشرعي. وهذان النوعان مرتبطان بينهما ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

- **إن عدم مراعاة السُّنن الإلهية في الحياة الإنسانية** له آثار وخيمة على الإنسان فردًا أو جماعةً أو أُمّةً وحضارةً.

- **إن التدبر السُّننيّ للقرآن الكريم يعطينا رؤية كلية تكاملية شاملة للكون والحياة**، ويأخذنا في اتجاه جديد صحيح أكثر فعالية وأصالة وتأثيرًا، وينقلنا من حالة ترديد آيات لا ندرك معناها ولا مغزاها ولا كنهها، إلى تدبر سُننيّ واع يعقبه عمل وتطبيق، وينقلنا من النظرة الجزئية الضيقة للنص القرآني، إلى النظرة الكلية المقاصدية السُّننيَّة المنضبطة، التي تكشف لنا ما وراء النص من سُنن وأحكام مطردة، تنفعنا في مسيرتنا العمرانية الاستخلافية نحو المستقبل المنشود، ونحو الحياة الخالدة عند رب العالمين.

توصيات البحث

يوصي الباحث بإدراج مادة «السُّنن الإلهية» ضمن المساقات الدراسية بجامعات العلوم الشرعية وكلياتها.

كما يوصي الباحثين بتخصيص رسائلهم الجامعية في دراسة السُّنن الإلهية في القرآن الكريم، تنظيرًا وتطبيقًا.

والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

١. «أحكام القرآن». الجصاص، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الحنفي (ت: ٣٧٠هـ). تحقيق: محمد صادق القمحاوي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥هـ.

٢. «أحلام في السياسة وكيف يتحقق السلام». طنطاوي، جوهري. مصر: طبع مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م.

٣. «أساس البلاغة». الزمخشري، جار الله فخر خوارزم محمود بن عمر. قدم له وشرح غريبه وعلق عليه: محمد أحمد قاسم، ط١، صيدا - بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٤. «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية». عبده، محمد. مجلة المنار، م(٥)، ج(١٢)، ١٦ جمادى الآخرة ١٣٢٠هـ - ١٩ سبتمبر ١٩٠٢م (ص ٤٤١-٤٦٥).

٥. «أزمتنا الحضارية في ضوء سُنَّة الله في الخلق». كنعان، أحمد محمد. تقديم: عمر عبيد حسنة. كتاب الأمة (٢٦)، ط١، قطر: مركز البحوث والمعلومات برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون بدولة، المحرم ١٤١١هـ.

٦. «إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني». الخالدي، صلاح. ط١، عمان: دار عمار، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٧. «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز». الفيروزآبادي، مجد

الدين محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ). تحقيق: محمد علي النجار، ط٣، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٨. «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد». ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، تونس: الدار التونسية، ١٩٨٤هـ.

٩. «التفسير الإسلامي للتاريخ». خليل، عماد الدين. ط٤، بيروت: دار العلم للملايين، نوفمبر ١٩٨٣م.

١٠. «تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن». الهرري، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الشافعي. إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، ط١، بيروت: دار طوق النجاة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

١١. «تفسير القرآن». السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت: ٤٨٩هـ). تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، ط١، الرياض: دار الوطن، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٢. «تفسير القرآن الحكيم» (تفسير المنار). رضا، محمد رشيد بن علي القلموني الحسيني (ت: ١٣٥٤هـ). (د.ط)، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

١٣. «تفسير القرآن العظيم»، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ). تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط٢، دار طيبة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٤. «**التفسير القرآني للقرآن**». الخطيب، عبد الكريم يونس (ت: بعد ١٣٩٠هـ). (د.ط)، القاهرة: دار الفكر العربي - القاهرة، (د.ت).

١٥. «**تفسير الشعراوي-الخواطر**». الشعراوي، محمد متولي (ت:١٤١٨هـ). (د.ط)، مصر: مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.

١٦. «**تفسير المراغي**». المراغي، أحمد بن مصطفى (ت ١٣٧١هـ). ط١، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.

١٧. «**التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**». الزحيلي، وهبة بن مصطفى. ط٢، دمشق: دار الفكر المعاصر، ١٤١٨هـ.

١٨. «**تفسير النكت والعيون**». الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت: ٤٥٠هـ). تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، (د.ط)، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت).

١٩. «**التيسير في أحاديث التفسير**». الناصري، محمد المكي (ت: ١٤١٤هـ). ط١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٢٠. «**الجامع لأحكام القرآن**». القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين (ت: ٦٧١هـ). تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٢١. «**جامع الرسائل**». ابن تيمية، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم

بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي (ت: ٧٢٨هـ). تحقيق: محمد رشاد سالم، ط١، الرياض: دار العطاء، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢٢. «رؤية في منهجية التغيير». حسنة، عمر عبيد. ط١، بيروت، دمشق، عمان: المكتب الإسلامي، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٢٣. «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني». الألوسي، محمود أبو الفضل. (د. ط)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت).

٢٤. «زهرة التفاسير». أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف (المتوفى: ١٣٩٤هـ). (د. ط)، دار الفكر العربي، (د. ت).

٢٥. «السُّنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية». زيدان، عبد الكريم. ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة. ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٢٦. «السُّنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم: أصول وضوابط». عاشور، مجدي محمد. إشراف: مصطفى محمد الشكعة. تقديم: علي جمعة، ط١، القاهرة: دار السلام، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٢٧. «السُّنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك». الخطيب، شريف الشيخ صالح أحمد. ط١، الرياض: مكتبة الرشد لنشر والتوزيع، عَمَّان: الدار العثمانية، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٢٨. «السُّنن الإلهية في السيرة النبوية». كهوس، رشيد. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٠م.

٢٩. «سنن الطبيعة والمجتمع في القرآن الكريم دراسة تأصيلية تطبيقية». جاسم، بكار محمود الحاج. ط١، دمشق - بيروت: دار النوادر، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٣٠. «سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها». هيشور، محمد. ط١، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية (٣٠)، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٣١. «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل». ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي الجوزية. (د.ط)، بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٣٢. «صيقل الإسلام». النورسي، بديع الزمان (ت: ١٣٧٩هـ). ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط٣، مصر: شركة سوزلر، ٢٠٠٢.

٣٣. «على مشارف القرن الخامس عشر الهجري، دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر». الوزير، إبراهيم بن علي. ط٤، مصر - لبنان: دار الشروق، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٣٤. «علم السُّنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي». كُهُوس، رشيد. ط١، دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

٣٥. «فقه السُّنن الربانية ومدى إفادة المسلمين منها قراءة في فكر الإمام محمد عبده». زكي، رمضان خميس زكي. ط١، القاهرة: دار المقاصد، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

٣٦. «في ظلال القرآن». قطب، سيد إبراهيم حسين الشاربي (ت: ١٣٨٥هـ). ط١٧، بيروت، القاهرة: دار الشروق، ١٤١٢هـ.

٣٧. «القاموس القويم في القرآن الكريم». عبد الفتاح، إبراهيم أحمد. (د. ط)، القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.

٣٨. «الكلمات». النورسي، سعيد. ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط٢، القاهرة: نشر دار «سوزلر»، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٣٩. «كيف نتعامل مع القرآن». الغزالي، محمد. سلسلة قضايا الفكر الإسلامي، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٣، المنصورة: دار الوفاء، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٤٠. «لسان العرب». ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت: ٧١١هـ). ط٣، بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ.

٤١. «اللمعات». النورسي، بديع الزمان. ترجمة: إحسان قاسم الصالحي. (د. ط)، مصر: سوزلر، (د.ت).

٤٢. «مبدأ السببية في الفكر الإسلامي في العصر الحديث: دراسة تأصيلية مقارنة». نفيسة، محمود محمد عيد. ط١، دمشق - بيروت: دار النوادر، ١٤٢١هـ - ٢٠١٠م.

٤٣. «المثنوي العربي». النورسي، بديع الزمان. تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، ط١، مصر: شركة سوزلر للنشر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٤٤. «مجموع الفتاوى». ابن تيمية. تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن

قاسم. (د. ط)، المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٤٥. «**محاسن التأويل**». القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (ت: ١٣٣٢هـ). تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ.

٤٦. «**مختار الصحاح**». الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر. ط١، بيروت: دار الفكر، ١٩٩٧م.

٤٧. «**مراجعات في الفكر والدعوة والحركة**». حسنة، عمر عبيد. منشورات المعهد العالي للفكر الإسلامي، ط٢، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٤٨. «**المصباح المنير**». المقرئ، أحمد بن محمد بن علي الفيومي. ط٣، صيدا - بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٤٩. «**مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير**». الرازي، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي (ت: ٦٠٦هـ). ط٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

٥٠. «**مفردات ألفاظ القرآن**». الأصفهاني، الراغب (ت٤٢٥هـ). تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط٣، دمشق: دار القلم، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٥١. «**مفهوم السُّنن الإلهية في الفكر الإسلامي**». محيي الدين، حازم زكريا. ط١، دمشق - بيروت: دار النوادر، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٥٢. «**مفهوم السُّنن الربانية**». زكي، رمضان خميس. ط١، القاهرة: مكتبة

الشروق الدولية، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٥٣. «**مفهوم السُّنن الربانية من الفهم إلى التسخير**». زكي، رمضان خميس. ط١، القاهرة: دار المقاصد، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

٥٤. «**معجم ألفاظ القرآن الكريم**». الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. ط٢، القاهرة: مجمع اللغة العربية، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

٥٥. «**المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**». عبد الباقي، محمد فؤاد. (د. ط)، القاهرة: دار الحديث. ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٥٦. «**معجم مقاييس اللغة**». الرازي، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ). تحقيق: عبد السلام محمد هارون. (د. ط)، بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٥٧. «**الملاحق في فقه دعوة النور**». النورسي، بديع الزمان. ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ط٣، مصر: سوزلر، ١٩٩٩.

٥٨. «**من فقه التغيير ملامح من المنهج النبوي**». حسنة، عمر عبيد. ط١، بيروت، دمشق، عمان: المكتب الإسلامي، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٥٩. «**المنهج السنني أفق حضاري متجدد**». حسنة، عمر عبيد. ط١، بيروت، دمشق، عمان: المكتب الإسلامي، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٦٠. «**موسوعة الألفاظ القرآنية**». النَّعال، مختار فوزي. تقديم: بكري شيخ أمين، ط١، حلب، اليمامة، دمشق، بيروت: مكتبة دار التراث، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٦١. «**النبوات**». ابن تيمية. تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، ط١،

الرياض: أضواء السلف، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٦٢. «**نحو تجديد منهج النظر في قضايا الفكر الإسلامي آراء وتحاليل**». الهند، مولاي المصطفى. ط١، الرباط: الرابطة المحمدية للعلماء، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٦٣. «**نحو قراءة جديدة للسيرة النبوية: سُنَّة الله في جهاد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**». كهوس، رشيد. ط١، القاهرة: دار الحكمة، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٦٤. «**نظام الإسلام العقيدة والعبادة**»، المبارك، محمد. ط١، دمشق: دار الفكر، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

٦٥. ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾**﴾، رضا، محمد رشيد. (د. ط)، مجلة المنار، م(١)، (٣١)، ٢ جمادى الآخرة ١٣١٦هـ (ص٥٨٥ - ٥٩٢).

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة

البحث الرابع :

سُورَةُ النَّصرِ عِلمٌ وعَمَلٌ

دِراسَةٌ تَدَبُّرِيَّةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ لِسُورَةِ النَّصرِ
باسْتِخْدامِ مَنْهجيَّةِ مَشْرُوعِ (القُرآنُ عِلْمٌ وعَمَلٌ)
والذِي يَرْتَكِزُ عَلَى المَنْهَجِ النَّبَوِيِّ فِي التَّعامُلِ مَعَ القُرآنِ

د . شَرِيفُ بنُ طَه يُونُس

رئيس مجلس إدارة معهد العلم والعمل وأكاديمية المتدبر الصغير

- حصل على ماجستير طب الأطفال - جامعة بني سويف – مصر، وباحث دكتوراه بالمعهد العالي لدراسات الطفولة – جامعة عين شمس – مصر.
- فاز بالجائزة الأولى لقسم المناهج في المسابقة العالمية للهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، عن منهج «المتدبر الصغير - الإيمان قبل القرآن».
- له العديد من الأبحاث، منها: «دور التدبر في تيسير وتحسين تعلم القرآن والعمل به لدى الأطفال»، وشارك به في المؤتمر الدولي الثاني لتطوير الدراسات القرآنية، بالرياض. و«دور عسل النحل في علاج الإسهال عند الأطفال الرضع» (بالعربية والإنجليزية)، وشارك به في المؤتمر العالمي الحادي عشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمدريد بأسبانيا.
- له العديد من المؤلفات، منها: رحلة البحث عن أهل القرآن، رحلة اكتشاف ما يقدمه لنا القرآن، الميلاد الجديد، بالوحي نحيا، كيف نسعد بسورة الفلق، مدارس العلم والعمل، الهروب من الفهم، سباق المحبين، أسعد أيامي، النشرة التعريفية بمنهج المتدبر الصغير، والنشرة التعريفية بمشروع القرآن علم وعمل، المنهج النبوي في تعليم الأطفال القرآن.
- بالإضافة إلى أكثر من عشرة مؤلفات موجهة للأطفال، وأكثر من عشرين مُؤَلَّفًا تحت الطبع.

ملخص البحث

موضوع البحث:

(سورة النصر) علم وعمل، دراسة تدبرية تطبيقية لسورة النصر، باستخدام منهجية مشروع (القرآن علم وعمل)، والذي يرتكز على المنهج النبوي في التعامل مع القرآن.

أهدافه:

تفعيل ما تم تأصيله في مشروع (القرآن علم وعمل) فيما يتعلق بالمنهجية النبوية في التعامل مع القرآن الكريم (علما وعملا)؛ لتقريب مسألة فهم القرآن وتدبره والعمل به والقيام بحقوقه والانتفاع الكامل به، ومساعدة المسلمين على الانتفاع الكامل بسورة النصر على الخصوص (علما وعملا) كمثال يحتذونه في هذا الطريق.

منهجه:

لم أعتمد منهجا واحدا في هذه الدراسة؛ لأن طبيعتها استلزمت في بعض المباحث أن أعتمد المنهج الاستقرائي بصورة أكبر، وفي أخرى أن أعتمد المنهج التحليلي، رغم أنه قد يندر أن يكون مبحث من مباحث الدراسة أو فصولها قد اقتصر على منهج واحد، لكن بصورة إجمالية كان للمنهج الاستقرائي أكبر نصيب، تلاه المنهج التحليلي.

وكانت عنايتي بالمسائل التي تخدم الفهم والتدبر والتطبيق بصورة مباشرة، حتى المباحث المتعلقة بالتفسير وعلوم القرآن التي تناولناها، تناولناها من زاوية مقاصدية، مع التأكيد على انعكاساتها العملية والتطبيقية.

واستخدمت الخرائط والتصميمات والأشكال التوضيحية؛ لتلخيص وإبراز العديد من النقاط.

خطته:

وقد جاءت هذه الدراسة في تمهيد تجهيزي، وثلاثة مباحث، وختام تعزيزي. ثم جاءت الخلاصة مع أهم النتائج والتوصيات.

وحاولنا في هذه الدراسة تناول مجموعة مهمة من المتطلبات، وإجابة مجموعة من التساؤلات المتعلقة بالتدارس الكامل الشامل لسورة النصر، علما وعملا، تأصيلا وتفعيلا، وقد تم تلخيص تلك الأمور في: (النية)، و(المنهجية)، و(الأهمية)، و(الآلية)، و(النماذج الواقعية)، و(الاستمرارية).

أهم النتائج:

أثبتت هذه الدراسة قابلية (منهج العلم والعمل) للتطبيق على سور القرآن الكريم، وأن سُنَّة النبي ﷺ حافلة بالآفاق التدبرية والتطبيقية المتعلقة بالآيات والسور القرآنية، وأن التعامل النبوي مع القرآن قد كان أعمق وأكمل من مجرد القيام بحقوق المباني من القراءة والتجويد وحفظ الرواية. وأن السور قصيرة المباني كسورة النصر، قد ضَمَّنها الله أعظم المعاني التي يحتاجها الإنسان لإصلاح دنياه وأخراه.

أهم التوصيات:

١) **ضرورة اعتماد المنهج النبوي المتكامل في التعليم القرآني** (الإيمان والقرآن، والعلم والعمل) في مؤسسات التعليم القرآني، وتعميمه، وتدريب العاملين في مؤسسات التعليم القرآني على أصوله وقواعده، ودعوة جماهير المسلمين للعودة له.

٢) **بذل قدر أكبر من العناية للسور والآيات التي يستخدمها المسلمون كثيرا،** ويكثر ترددهم لها في حياتهم اليوم؛ لأنها سهلة التناول، وتشتمل على كنوز يحتاج الناس لتقريبها لهم.

٣) **ضرورة تبصير المسلمين (تأصيلا وتفعيلا)** بضرورة مطالعة السُّنَّة النبوية لمطالعة الآفاق التدبرية والتطبيقية للسور والآيات القرآنية؛ والتأكيد على أن تدارس السورة لا ينبغي أن يقتصر على ما جاء في كتب التفسير؛ لأن ذلك يؤدي غرضَ (التدارس العلمي)، لكن يبقى التدارس العملي (تدبرا واتباعا) هو الأهم.

الكلمات الدالة:

نصر، تدبر، علم، عمل، منهج، سُنَّة.

المقدمة

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّدًا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله وأصحابه ومَن اتَّبع هداهم إلى يوم الدين، ثمَّ أمَّا بعد:

فإن الله عَزَّ وَجَلَّ أنزل القرآن ليُعْمَل به، وأخبر أن أهم مقاصد إنزاله (العمل به)، فقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وأمر بالعناية بمعانيه تفهمًا وتدبرًا واتباعًا، فقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وذَمَّ الذين لا يعتنون بمعانيه، والذين تكون علاقتهم بالمعاني منحصرة في تعلمها دون العمل بها، فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، وقال سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥].

ورسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أخبر أن أهل القرآن هم الذين يعملون به، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ، الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا**»(١). وَوَصَّانا بالعناية بمعاني القرآن، ولطالما أكَّد على أن العناية بالمعاني ينبغي أن تكون (علما وعملا)؛ فقال لحذيفة: «تعلَّم كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ واعمل به؛ فهو النجاة»(٢).

وقد كانت سُنَّته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العملية متطابقة مع سُنَّته القولية على مستواه الشخصي، حين كانت علاقته بالقرآن علاقة (تَخَلُّق)، وحين اعتنى بتفهم القرآن وتدبره واتباعه.

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٣ – «٨٠٥»)، ومسند أحمد (١٧٦٧٤)، وسنن الترمذي (٢٨٨٣).

(٢) رواه أحمد (٣٨/ ٣١٧) وحسنه الأرنؤوط، ورواه أبو داود (٤/ ٩٦)، والنسائي (٧/ ٢٦٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٦/ ٢٤٢) بلفظ: «تعلم كتاب الله واتبع ما فيه».

أما على مستوى تعليمه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لغيره، فقد وصفه القرآن بأنه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتلو الآيات، ويُعلِّم الكتاب (المعاني)، والحكمة (أكمل صور العمل)، ويتعاهد المتعلمين في تزكية (تطهير وتطوير) أنفسهم بما تعلَّموه من العلم والعمل.

وَوَصَفَه أصحابه بأنه كان يعتني بتعليمهم المعاني والمباني معا، وكان يُقَدِّم تعليم المعاني على المباني، وكان تعليمه للمعاني علما وعملا، ليس مجرد تفسير لها فحسب(١).

أهمية الدراسة:

ورغم أن ما سلف الحديث عنه أمور قد تظاهرت النصوص عليها، ولولا خشية الإطالة لفَصَّلنا فيها، إلا أن واقع كثير من المسلمين اليوم للأسف يشهد بقصور واضح في تطبيق المنهج النبوي في التعامل مع القرآن الكريم، فالبعض اكتفى بالمباني، والبعض تخطاها إلى المعاني لكن علما فقط، وغيرها من صور القصور عما كان عليه النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التعامل مع القرآن.

إن التفسير ومجهودات المفسرين تهدف بالأساس إلى (بيان المعاني)، وهذا هو الأساس الذي ينبغي الارتكاز عليه والانطلاق منه في كل ما يلي فهم القرآن من حقوق: كالتدبر، والاتباع، وغيرها.

لكن التفسير في المنهج النبوي في التعامل مع القرآن (العلم والعمل) لا يُمَثِّل إلا شق (العلم)، ويبقى الشق العملي التطبيقي بحاجة إلى تناول، وهنا يأتي دور سنة النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو البيان العملي، فنجد في سُنَّته صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيف كان تَخَلُّقه بالآية أو السورة؟ وكيف تدبرها؟ وكيف اعتنى بها عمليا؟ وما لا نجده

---

(١) راجع في كل ما يتعلق بحال النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع القرآن متعلما ومُعَلِّما كتابنا: رحلة البحث عن أهل القرآن (النسخة المنظورة).

مخصوصا، نجد قواعد عامة في المنهج التطبيقي للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تهدينا سواء الصراط.

وتلك الأمور التطبيقية لا نجدها كاملة في كتب التفسير، بل في كتب (السنن)؛ لأنها لم تكن من شرط المفسرين عن تصنيفهم في التفسير، ولذا فإن المطلوب في التعامل مع الآية لن يتم الوصول إليه من كتب التفسير فقط، بل لا بد من مطالعة كتب (السُّنن)؛ لنتعرف من خلالها على آفاق التطبيق والتدبر الأثرية المنضبطة، فإننا نجزم أن مطالعة سُنَّته وسيرته تعتبر كأنها قراءة للقرآن، لكن من زاوية تطبيقية، كما نجزم أنه لا تكاد توجد آية أو سورة إلا وفي سُنَّته وسيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آفاق تطبيقية خاصة، أو قواعد عامة متعلقة بها.

ولو حصل ذلك اكتمل تشبُّع الإنسان بمصدرَي الهداية اللَّذَيْن وعد القرآن المُستهدي بهما - اتباعا لا اطلاعا - بالعصمة من الضلال والشقاء، والأمان من المخاوف والأحزان، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، وقال سبحانه: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقد قرر كثيرٌ من المفسرين أن (الهدى) المقصود هنا يتكون من شقين؛ **الأول**: الرسالة التي أرسلها الله لخلقه (أي: الكتاب السماوي كالقرآن «ونعبر عنه بالنسخة المسطورة من الهدى»)، **والثاني**: الرسول البشري الذي أرسله الله بالرسالة (أي: السُنَّة التي أُثِرَت عن ذلك الرسول «ونعبر عنه بالنسخة المنظورة من الهدى»).

ولعل بعض الفضلاء يرى أنه لا حاجة لنا بذلك، نُفَسِّر الآيات فقط والدارس يتابع بنفسه مسألة العمل والتطبيق، فأحب أن أُذّكِر مَن يرى ذلك من فُضلائنا أن القرآن لما تحدث عن دور المعلم، القرآن أخبر أنه يُعَلِّم (الحكمة)، وأخبر أنه يُزَكِّي المتعلمين، وهذا أمر أكمل من التربية، وأبعد من مجرد العمل. أضِف

إلى ذلك أن الصحابة قد أخبروا أن من أركان المنهج النبوي في التعليم (تعليم العمل).

وإن يكن سلفنا لا يحتاجون لذلك، فواقعنا اليوم يشهد بحاجتنا الماسَّة لتعلم العمل، فما أكثر المنشغلين بالمباني؟ وما أكثر المنشغلين بالعلم؟ لكن هناك أزمة حقيقية في التخلق والعمل والسلوك، لا تخفى على أحد. فكيف وقد وصلَنا أن سلفنا اعتنوا بتعلم العمل؟!

وهذه الدراسة محاولة لتفعيل ما قمنا بتأصيله سابقا في مشروعنا القرآن علم وعمل[(١)]، فيما يتعلق بالمنهجية النبوية في التعامل مع القرآن الكريم (علما وعملا).

وقد وقع اختيارنا فيها على سورة (النصر)، واجتهدنا في التأصيل العلمي لما يتعلق بمباحثها من ناحية التفسير وعلوم القرآن، لكن ما رَكَّزت عليه هذه الدراسة هو تناول تلك المباحث في إطار مقاصدي عملي، مع التأكيد على انعكاساتها

---

(١) والمشروع عبارة عن برنامج عملي مرتب بصورة ميسرة، شعاره (بالوحي نحيا)، ويهدف إلى إحياء المنهج النبوي في التعامل مع القرآن الكريم (العلم والعمل، والإيمان والقرآن)، تعلما وتدبرا وعملا وتعليما، ويسعى لتقريبه لجميع المسلمين (صغارا وكبارا) على كل المستويات.

وفي مشروعنا نضع (العمل) نصب أعيننا؛ وندعو لترتيب الأولويات واستثمار الطاقات في الأهم فالـمُهِمِّ في التعامل مع القرآن في ضوء مراد الله منَّا فيما يتعلق به.

ومشروعنا يعمل في محورين: الأول منهما: مفاهيمي (تأصيلي)، لاستقراء المصطلحات التي تتناول طبيعة العلاقة بالقرآن وتحليلها وتسديدها وتيسير التحقق بها. من خلال رحلة قمنا بها على صفحات النسخة المسطورة من الهدى «الوحي» (نصوص القرآن والسنة «الأقوال»). أما الثاني: فمهاري (تطبيقي) لاستقراء منهج (النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ) في التعامل مع القرآن الكريم، وطبيعة علاقتهم به. وتحليل هذا المنهج وتقريب مهاراته للناس وتدريبهم عليها، من خلال رحلة قمنا بها على صفحات النسخة المنظورة من الهدى «الوحي» (سيرة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ «الأحوال»).

وقد بدأ المشروع منذ ما يربو على عشر سنوات، تم فيها - بفضل الله - تدريب ما يربو على عشرة آلاف متدرب ومتدربة على المشروع بمستويات متباينة من التدريب.

العملية والتطبيقية، والعناية الأكبر بالمسائل التي تخدم الفهم والتدبر والتطبيق بصورة مباشرة. كما تم عقد مباحث تطبيقية تفصيلية لما يتعلق بتدبر السورة واتباعها والقيام بحقوقها كاملة.

منهج الدراسة:

لم أعتمد منهجا واحدا في هذه الدراسة؛ لأن طبيعتها استلزمت في بعض المباحث أن أعتمد المنهج الاستقرائي بصورة أكبر، وفي أخرى أن أعتمد المنهج التحليلي، رغم أنه قد يندر أن يكون مبحث من مباحث الدراسة أو فصولها قد اقتصر على منهج واحد، لكن بصورة إجمالية كان للمنهج الاستقرائي أكبر نصيب، تلاه المنهج التحليلي.

- **حرصت على** أن أثبت أرقام الآيات بجوارها في النص.
- **حرصت على** ألا أستشهد إلا بحديث صحيح أو حسن، وأعرضت عن الضعيف وما دونه، مسترشدا في التصحيح والتضعيف بأحكام العلماء المعتبرين في هذا الفن: كشاكر، والألباني، والأرنؤوط، وغيرهم. ولم أتوسع في التخريج لكيلا تخرج الدراسة عن مقصودها التطبيقي.
- **تجنبت الخوض** في تفاصيل المسائل اللغوية، ومسائل النحو والإعراب وغيرها، وكانت عنايتي بالمسائل التي تخدم الفهم والتدبر والتطبيق بصورة مباشرة، حتى المباحث المتعلقة بالتفسير وعلوم القرآن التي تناولناها، تناولناها من زاوية مقاصدية مع التأكيد على انعكاساتها العملية والتطبيقية.
- **حرصت على** عزو الأقوال لأصحابها من مصادرها.
- **حاولت قدر الطاقة** وبما سمح به المقام التعريج على بعض المنهجيات

التأصيلية لمشروع القرآن علم وعمل، الذي كانت الدراسة أشبه ما تكون بأنموذج تطبيقي له.

* **استخدمت** الخرائط والتصميمات والأشكال التوضيحية، لتلخيص وإبراز العديد من النقاط.

الدراسات السابقة:

وقفت بفضل الله على دراسات كثيرة متعلقة بالشق العلمي (التفسيري) فيما يخص سورة النصر، ودراسات تجاوزت ذلك إلى الحديث عن تدبرها؛ لكنني لم أقف – في حدود علمي واطِّلاعي – على دراساتٍ تطبيقيَّةٍ تتغيًّا تقريب مسألة العمل بسورة النصر وتدبرها وتعلمها والقيام بحقوقها كاملة بصورة منهجيَّةٍ منضبطة ترتكز على المنهجية النبوية في التعامل مع القرآن وتُناسب التطبيق على المستوى الشخصي، أو مستوى حلقات التدارس.

خطة الدراسة:

وقد جاءت هذه الدراسة في تمهيد تجهيزي، وثلاثة مباحث، وختام تعزيزي. ثم جاءت الخلاصة مع أهم النتائج والتوصيات.

وحاولنا في هذه الدراسة تناول مجموعة مهمة من المتطلبات، وإجابة مجموعة من التساؤلات، المتعلقة بالتدارس الكامل الشامل لسورة النصر، علما وعملا، تأصيلا وتفعيلا، وقد تم تلخيص تلك الأمور في: (النية)، و(المنهجية)، و(الأهمية)، و(الآلية)، و(النماذج الواقعية)، و(الاستمرارية).

وقد كان التمهيد التجهيزي بعنوان (النية والمنهجية)؛ وفيه حاولت التعريج على تمهيد لقضية العمل بالقرآن وأهميتها، والتنبيه على تسديد النية في تعلم القرآن، وتسديد المنهجية لتكون موافقة لما كان عليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فيما يتعلق بالعمل بالقرآن كمتعلم وكمعلم.

ثم كان المبحث الأول؛ والذي جاء بعنوان «بين يدي السورة (الأهمية)»، والذي كان يهدف بالأساس لإبراز أهمية السورة، ومناقشة بعض القضايا المهمة المتعلقة بها من زاوية مقاصدية.

وقد جاء هذا المبحث في خمسة فروع؛ الأول: حاجتنا إلى سورة النصر، والثاني: اسم السورة، والثالث: نزول السورة، والرابع: موضوع السورة، والخامس: مقصد السورة.

وفي المبحث الثاني، والذي كان بعنوان «حقوق سورة النصر (الآلية)»، تم تناول الآلية أو الطريقة التي تم الارتكاز فيها على المنهج النبوي في التعامل مع القرآن لتوفية السورة حقوقها، وتم التركيز في الشرح على ما يتعلق بحقوق المعاني، مع التأكيد على حقوق المباني والإشارة إليها.

وقد جاء المبحث الثاني في خمسة فروع؛ كان الأول منها لحق الفهم (من خلال التفسير)، والثاني: لحق استخراج الوصايا العملية، والثالث: لحق التدبر، والرابع: لحق الاتباع، والخامس: لحقي التعليم والدعوة.

أما المبحث الثالث والأخير فقد جاء بعنوان «أهل سورة النصر (النماذج الواقعية)»، وفيه وقفنا على مساحة وجود المعاني التي جاءت بها سورة النصر في حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإخوانه من الأنبياء وأصحابه الكرام.

ثم كان الختام التعزيزي والذي كان بعنوان (الاستمرارية)، واشتمل على جملة من التوصيات المهمة التي من شأنها أن تعزز وتدعم ما مَنَّ الله به من العلم والعمل المتعلق بسورة النصر.

التمهيد التجهيزي (النية والمنهجية)

عَن سُلَيْمَانَ بْنِ يَسارٍ قَالَ: تَفرَّقَ النَّاسُ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ (عند مسلم وأحمد: ناتل الشامي): أَيُّهَا الشَّيْخُ، أَنْشُدُكَ بِحَقٍّ وَبِحَقٍّ لَمَا حَدَّثْتَنِي حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَقَلْتَهُ وَعَلِمْتَهُ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَفْعَلُ، لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ، ثُمَّ نَشَغَ[1] أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً فَمَكَثَ قَلِيلًا، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً أُخْرَى، ثُمَّ أَفَاقَ فَمَسَحَ وَجْهَهُ ... ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ مَالَ خَارًّا عَلَى وَجْهِهِ فَأَسْنَدْتُهُ عَلَيَّ طَوِيلًا، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ. فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو اللهُ بِهِ: رَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ (وعند الترمذي: جَمَعَ القُرْآنَ) ... فَيَقُولُ اللهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟

قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ فِيكَ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، فَكُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ. فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ.

وَيَقُولُ اللهُ لَهُ: بَلْ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: هُوَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رُكْبَتِي فَقَالَ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

---

(١) أَيْ: شَهِق وغُشِيَ عَلَيْهِ. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٥٨).

وَدَخَلَ الشَّامِيَّ عَلَى مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَخْبَرَهُ بِهَذَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: قَدْ فُعِلَ بِهَؤُلَاءِ هَذَا، فَكَيْفَ بِمَنْ بَقِيَ مِنَ النَّاسِ؟ ثُمَّ بَكَى مُعَاوِيَةُ بُكَاءً شَدِيدًا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ هَالِكٌ، وَقُلْنَا: قَدْ جَاءَنَا هَذَا الرَّجُلُ بِشَرٍّ، ثُمَّ أَفَاقَ مُعَاوِيَةُ وَمَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَ: صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦][(١)].

إنه مشهد يتحدث عن أناس سيدخلون النار! ليس هذا فحسب، بل سيكونون أول من يدخل النار! إنه مشهد يتحدث عن أناس سيعذبون في النار! ليس هذا فحسب، بل سَتُسَعَّر بهم! إذن لا بد أن يكونوا زناة أو عصاة، للأسف لا، إنهم - في الدنيا - داخل صف التقاة!

وبالتأمل في الحديث السالف نجد أنه يشير إلى أن ذلك القارئ أو الجامع كان لديه خلل في أمرين: الأول (في النية)، والثاني (في المنهجية)، فلم يعمل بمقتضى (شهادة ألا إله إلا الله) من تخليص عمله كله لله، ولم يتمكن من توحيد المقصود بتعلمه وتعليمه، ولم يعمل بمقتضى (شهادة أن محمدًا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من اتباع منهجية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تعلم القرآن وتعليمه، ولم يتمكن من توحيد الطريق الموصلة إلى المقصود.

وفي الإشارة إلى الخلل الذي في (النية) الذي تجلى عند ذلك العالم يقول ابن القيم: «وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ يَقُولُ: كَمَا أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ الْأَنْبِيَاءُ فَشَرُّ النَّاسِ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ يُوهِمُ أَنَّهُ مِنْهُمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥)، والترمذي (٢٣٨٢)، وأحمد (٨٢٦٠)، وانظر صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب (٢٢).

(٢) الداء والدواء (ص٣٤).

ويقول الشوكاني: «وَهَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ فِعْلَ الطَّاعَاتِ الْعَظِيمَةِ مَعَ سُوءِ النِّيَّةِ مِنْ أَعْظَمِ الْوَبَالِ عَلَى فَاعِلِهِ»[١].

وفي الإشارة إلى الخلل الذي في (المنهجية) الذي تجلى عند ذلك القارئ أو الجامع؛ يقول ابن العربي: «وأعظم ما يَلْقَى به العبدُ رَبَّه يوم القيامة قرآنٌ جُمِعَ ولم يُعَمَل به»[٢]، ويقول الطيبي: «(وقرأ القرآن) أي على ظهر قلبه من غير تأمل في معانيه»[٣].

وقد كان خلل (المنهجية) نتيجة حتمية لخلل (النية)؛ لأن ذلك القارئ لو تعلَّم القرآن وعَلَّمه مخلصا لله حقا؛ لاضطره ذلك لأن يتعلم القرآن ويعلمه بطريقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه يعلم أنه لن يصل لمرضاة الله إلا من طريق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي الإشارة إلى التلازم بين صلاح (النية)، وصلاح (المنهجية) يقول البيضاوي: «ومن عمل صالحا فهو مخلص في عمله، مستقبل بوجهه نحو معبوده، صعد من الحضيض الإنسي إلى الأوج القدسي، واستحق ما أعدّ له من الثواب في دار المآب»[٤].

هذا مشهد لا ينبغي أن يغيب عن خواطرنا أو يمر مرورا عابرا على قلوبنا؛ لأنه ربما كان أحدنا بطله للأسف! فلا تفسح المجال للشيطان ليحرمك من الانتفاع بما أنذرنا به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيصرفك عن التفكر في الحال والمآل.

إن كان ذاك الذي قرأ وأقرأ، وتعلم وعَلَّم، وأنفق من وقته وجهده وفكره

---

(١) نيل الأوطار (٧/ ٢٥٦).
(٢) القبس في شرح موطأ مالك بن أنس (ص٤٠٥).
(٣) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (٢/ ٦٦٦).
(٤) تحفة الأبرار شرح مصابيح السُّنَّة (١/ ٢١).

لأجل القرآن، قد يُفعَل به هذا! فكيف بمَنْ فَرَّط في تعلم القرآن أو تعليمه؟! كيف بمَن بخل على القرآن بوقته أو ماله أو جهده؟! إياك أن تقول: «الحمد لله أنا لم أحفظ أو أعمل في تحفيظ أحد أصلا» لأن مصيبتك مُركَّبة، وربما كانت أكبر.

إياك أن تتوهم أن سلامة النية وسدادها وحدها ينجيك، ستُسأل عن المنهجية التي تتعامل بها مع القرآن، وهل كنت مشغولا باتباعه أم لا؟ وإياك أن تتوهم أن سلامة المنهجية وسدادها وحرصك على العمل بالقرآن سينجيك حتى لو فسدت نيتك.

ويشهد لما جاء في الحديث السابق أن عَبْد اللهِ بْن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ** ... وذكر منها: **وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟**» وفي رواية: «**مَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ**»[(١)].

قال في تحفة الأحوذي (٦/ ٢٠٦): «فِيهِ إِيذَانٌ بِأَنَّ الْعِلْمَ مُقَدِّمَةُ الْعَمَلِ، وَهُوَ لَا يُعْتَدُّ بِهِ لَوْلَا الْعَمَلُ».

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، كلما قُرضت وَفَتْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يا جبريل؟ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَقْرَؤُونَ كِتَابَ اللهِ وَلَا يَعْمَلُونَ به**». **وفي رواية:** «**هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ، الَّذِينَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ؟**»[(٢)].

(١) رواه الترمذي (٤/ ١٩٠) والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٨) وانظر: صَحِيح الْجَامِع (٧٢٩٩)، الصَّحِيحَة (٩٤٦).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ١٧٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٣٩)، وانظر: صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب (١٢٥)، وصَحِيح الْجَامِع (١٢٩).

وكَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لأَصْحابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا» ... فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ: «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالا لِي انْطَلِقْ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ[١] رَأْسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى» ... فلما سألهما عنه قالا: «فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ القُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ المَكْتُوبَةِ».
وفي رواية: «فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرْآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[٢].

قال ابن بطال: «يعنى يترك حفظ حروفه والعمل بمعانيه، فأما إذا ترك حفظ حروفه وعمل بمعانيه فليس برافض له»[٣].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثلُ الذي يُعلِّمُ الناس الخيرَ وينسى نفسَه، مَثَلُ الفَتيلة (وفي رواية: كَمَثَلِ السِّرَاجِ) تُضيءُ على الناس، وتَحرقُ نَفْسَها»[٤].

وقال رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»[٥]، فهل سيكون حجة لنا فعلا؟

قال النووي: «أي: تنتفع به إن تلوته وعملت به، وإلا فهو حجة عليك»[٦].

---

(١) الثَّلْغ: الشَّدْخ. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٢٢٠).
(٢) صحيح البخاري (٩/ ٤٤)، (٢/ ١٠١).
(٣) شرح صحيح البخارى لابن بطال (٣/ ١٣٥).
(٤) رواه أبو الشيخ الأصبهاني في أمثال الحديث (١/ ٣٢٤)، وانظر: صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٦٤)، صَحِيح الْجَامِع (٥٨٣١).
(٥) صحيح مسلم (١/ ١٤٠).
(٦) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٠٢).

وقال الشيخ ابن باز: «والمعنى أنه حجة لك إن عملت به، أو حجة عليك إن لم تعمل به»[١].

(١) مجموع فتاوى ابن باز (٧/ ١٨٦).

أين نحن من هؤلاء؟

* وفي صحيح البخاري (٢٤/ ٣٩٠): «﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ الْقُرْآنُ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ الْمُؤْمِنُ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: هَذَا الَّذِى أَعْطَيْتَنِى عَمِلْتُ بِمَا فِيهِ».

* كَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يَقُولُ: إِنَّمَا أَخْشَى مِنْ رَبِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَدْعُوَنِي عَلَى رُؤوسِ الْخَلَائِقِ، فَيَقُولُ لِي: يَا عُوَيْمِرُ، فَأَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبِّي، فَيَقُولُ لِي: مَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟[1].

* وَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ (عثمان، علي، ابن مسعود، أُبَيّ، زيد) أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ، فلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ»[2].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١١٢)، شعب الإيمان للبيهقي(٣/ ٣٠٢)، جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٧٩)، شرح السُّنَّة للبغوي (١٤/ ٣٣٥)، وانظر: صَحِيح التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب (١٢٩).

(٢) رواه أحمد (٢٣٥٢٩)، وحسنه الأرنؤوط.

وصايا أرحم البشر بنا

* قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ وَاعْمَلُوا بِهِ، وَلَا تَجْفُوا عَنْهُ، وَلَا تَغْلُوا فِيهِ، وَلَا تَأْكُلُوا بِهِ، وَلَا تَسْتَكْثِرُوا بِهِ»[(١)].

* وقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قرأ القرآن وتعلَّم وعمل به؛ أُلبِس والداه يوم القيامة تاجا من نور ضوؤه مثل ضوء الشمس، ويُكسى والداه حُلَّتين لا يقوم لهما الدنيا فيقولان: بم كسينا هذا؟! فيقال: بأخذ ولدكما القرآن»[(٢)].

قال القرطبي: «فمن قرأه قراءة تدبر وفهم، وعمل بمقتضاه؛ فقد حصل له الغاية والفائدة القصوى من تلاوة هذا الكتاب العظيم»[(٣)].

* وفي حديث حذيفة حين أخبره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما سيحدث من اختلاف وفرقة بعده؛ قال حذيفة: فقلت: يا رسول الله؛ فما تأمرني إن أدركت ذلك. قال: «تعلَّم كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، واعمل به فهو المخرج من ذلك». قال حذيفة: فأعدت عليه ثلاثًا، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثًا: «تعلَّم كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ واعمل به فهو النجاة»[(٤)].

وانطلاقا من كل ما سبق آثرنا تناول (سورة النصر) هنا بطريقة يتم فيها التركيز على المنهجية النبوية الشاملة في التعامل مع القرآن (منهجية العلم والعمل)، بل لا نحسب أنه يسعنا تناول السورة منشغلين بالتركيز على (العلم) الذي فيها أو

---

(١) رواه أحمد (٢٤/ ٢٨٨) وصححه الأرناؤوط، وأبو يعلي (٣/ ٨٨)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٨٦)، وانظر: صَحِيح الْجَامِع (١١٦٨).

(٢) رواه أحمد (٣٨/ ٤٢) وحسنه الأرنؤوط، وانظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٨٠).

(٣) التذكار في أفضل الأذكار (ص٦٧)

(٤) رواه أحمد (٣٨/ ٣١٧) وحسنه الأرنؤوط، ورواه أبو داود (٤/ ٩٦)، والنسائي (٧/ ٢٦٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٦/ ٢٤٢) بلفظ: «تعلم كتاب الله واتبع ما فيه».

تفسيرها فقط، بل لا بد من التركيز على تعليم العمل الذي فيها، وكيفية تطبيقه، فلم يكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعلِّم الصحابة (العلم) فقط، وإنما كان يُعلِّمهم (العمل) أيضا.

فالله قد أنزل هذه السورة وغيرها لنعمل بها؛ وفي طريق التخلُّق بالعمل الذي جاء فيها، يحتاج الإنسان إلى المخرجات التعليمية الثلاثة: فيحتاج لتعلم معاني السورة (فهمها بعد قراءتها قراءة صحيحة)، وبذلك يتحقق المخرج (المعرفي)، ثم يتدبرها (إسقاطا وتفكرا وتفاعلا)، وبذلك يتحقق المخرج (الوجداني)، فيتحرك قلبه وتزيد دافعيته، ثم يتعرف على كيفية التزكي بما جاء في تلك السورة (الخطة التشغيلية للاتباع)، وبذلك يتحقق المخرج (المهاري).

وذلك تقريبٌ لما كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوم به في مجالس التعليم القرآني؛ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: ١٢٩].

يقول السعدي: «فجمع لهم بين تعليم الأحكام، وما به تُنَفَّذ الأحكام، وما به تُدْرَك فوائدها وثمراتها»(١).

قوله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾، وَتِلَاوَتُهَا: ذِكْرُهَا الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ لِتَرْسَخَ فِي النَّفْسِ وَتُؤَثِّرَ فِي الْقَلْبِ(٢). وَتِلَاوَتُهَا عِبَارَةٌ عَنْ تِلَاوَةِ مَا فِيهِ بَيَانُهَا وَتَوْجِيهِ النُّفُوسِ إِلَى الِاسْتِفَادَةِ مِنْهَا وَالِاعْتِبَارِ بِهَا(٣)، فهو يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِمْ قِرَاءَةَ تَذْكِيرٍ(٤). فلم يكن ما طلبه الله من رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقتصرا على قراءة الآيات للقراءة،

---

(١) تفسير السعدي (ص١٥٥).
(٢) تفسير المنار (١/ ٣٨٨).
(٣) تفسير المنار (٤/ ١٨٢).
(٤) التحرير والتنوير (١/ ٧٢٣).

وإنما قراءة للتذكير والاتباع (تلاوة) فيشفعها ببيان معانيها والتوجيه إلى تدبرها والعمل بها.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وَتَعْلِيمُ الْكِتَابِ هُوَ تَبْيِينُ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ وَأَمْرَهُمْ بِحِفْظِ أَلْفَاظِهِ، لِتَكُونَ مَعَانِيهِ حَاضِرَةً عِنْدَهُمْ[١].

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: «يُعَلِّمُهُمُ الْخَيْرَ فَيَفْعَلُوهُ، وَالشَّرَّ فَيَتَّقُوهُ، وَيُخْبِرُهُمْ بِرِضَاهُ عَنْهُمْ إِذَا أَطَاعُوهُ وَاسْتَكْثَرُوا مِنْ طَاعَتِهِ، وَتَجَنَّبُوا مَا سَخِطَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ»[٢].

ويقول القرطبي: «وَقِيلَ: ... وَالْكِتَابُ مَعَانِي الْأَلْفَاظِ»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾، **قال ابن عاشور:** «وَالْحِكْمَةُ إِتْقَانُ الْعِلْمِ وَإِجْرَاءُ الْفِعْلِ عَلَى وَفْقِ ذَلِكَ الْعِلْمِ»[٤]، واختار القاري أن الحكمة هي «إِتْقَانُ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ»[٥].

وقال السندي: «قِيلَ ... مَعْرِفَةُ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ وَالْعَمَلُ بِمَا يَنْبَغِي»[٦].

وقال الكرماني: «قيل العلم الوافي والعمل الكافي، وقيل العلم بالسنة»[٧].

وقال ابن رجب: «ويعني بالحكمة: فهم معاني القرآن والعمل بما فيه. فالحكمة هي: فهم القرآن والعمل به، فلا يكتفي بتلاوة ألفاظ الكتاب حتى يعلم معناه ويعمل بمقتضاه، فمن جمع له ذلك كله فقد أوتي الحكمة؛ فالحكمة هي

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٥٩).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٤٤٥).
(٣) تفسير القرطبي (٢/ ١٣١).
(٤) التحرير والتنوير (٣/ ٦١).
(٥) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٩٧١).
(٦) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١/ ٧١).
(٧) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (١٥/ ٢٤).

العلم النافع الذي يتبعه العمل الصالح. ومن قال: «الحكمة: السُّنَّة»، فقوله الحق لأن السُّنَّة تفسر القرآن وتبين معانيه وتحض على اتباعه»[١].

لذا نرى - والله أعلم - أن الأرجح في تفسير الحكمة هو «إتقان العمل بالعلم، الناشئ عن دقة فهمه وحسن التفقه فيه وتدبره، والتأسي بما جاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سُنَّته العملية». فتفسيرات العلماء للحكمة تتظاهر جميعا لتشير إلى أن الحكمة هي (العمل بالعلم)، ولعل سُنَّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العملية تقوي ذلك، حيث لم يكن دوره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما صحَّ عنه يقتصر على تعليم المعاني، بل على تعليم كيفية العمل بها أيضا.

وما الفرق بين العمل والحكمة إذن؟:

ولعله تجدر الإشارة إلى أن الحكمة ليست مجرد عمل؛ بل عمل على مقتضى الحكمة؛ ومادة حكم في لغة العرب؛ تشير إلى معاني: (الحُكم)، (الإحكام بمعنى الإتقان والدقة)، (الإحكام بمعنى الهيمنة والتمكن)، (والحكمة بمعنى وضع الشيء في موضع على مقتضى كمال العلم)، وعليه فإن تعليم تلك الحكمة ليست عملية تلقين معلومات نظرية أو خطاب عقلي أو معرفي محض، بل يتخطى ذلك إلى خطاب وجداني نستهدف به القلب ليتم العمل أحكم ما يكون في أعلى درجات الكمال؛ فيضحى الشخص حينها حكيما، والحكيم رجل يتسم بالعلم والخبرة والتؤدة وغيرها من الصفات التي تجعله يتفكر في عواقب ما سيفعله قبل الإقدام عليه، ويقيِّم مدى حاجته له، ثم يشرع في اتباع مقتضى علمه الكامل. وذلك التفكر في العواقب وتقييم حالة النفس هو «التدبر» باختصار على ما قررنا سابقا. ولذا نقول: إن الحكمة هي أكمل صور العمل التي يتوفر فيها المخرج

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب (ص٨٤).

المعرفي الكامل (العلم)، والمخرج الوجداني الكامل (التدبر)، والمخرج المهاري الكامل (الاتباع)؛ لذا سمى الله كتابه كثيرا (حكمة)، وسمى سنة نبيه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (حكمة).

ويؤكد ما ذهبنا إليه قول ابن عاشور: «مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِهِ وَفَهِمَ خَفَايَاهُ نَالَ الْحِكْمَةَ»[1].

قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، بالتربية على الأعمال الصالحة والتبري من الأعمال الردية، التي لا تزكو النفوس معها[2].

وقال ابن عباس عنها: «أَيْ: يَجْعَلُهُمْ أَزْكِيَاءَ الْقُلُوبِ بِالْإِيمَانِ»[3].

ويقول صاحب المنار: «عَلِمَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَنَّ تَعْلِيمَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لَا يَكْفِي فِي إِصْلَاحِ الْأُمَمِ وَإِسْعَادِهَا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُقْرَنَ التَّعْلِيمُ بِالتَّرْبِيَةِ عَلَى الْفَضَائِلِ، وَالْحَمْلِ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بِحُسْنِ الْأُسْوَةِ وَالسِّيَاسَةِ، فَقَالَ: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أَيْ يُطَهِّرُ نُفُوسَهُمْ مِنَ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ، وَيَنْزِعُ مِنْهَا تِلْكَ الْعَادَاتِ الرَّدِيئَةَ، وَيُعَوِّدُهَا الْأَعْمَالَ الْحَسَنَةَ الَّتِي تَطْبَعُ فِي النُّفُوسِ مَلَكَاتِ الْخَيْرِ، وَيُبَغِّضُ إِلَيْهَا الْقَبِيحَةَ الَّتِي تُغْرِيهَا بِالشَّرِّ»[4].

فالتزكية أمر أبعد من التعليم، إنه (الخطط التشغيلية لتعاهد التربية على ما تم تعلمه أو التخلق به)، لكن القرآن يؤثر استخدام كلمة «تزكية»؛ لأنها أكمل من كلمة «تربية» من وجوه لا يتسع المجال لبسطها، لكن لعل أبرزها أن التطهير - والذي هو الأهم بالنسبة للإنسان - أكثر وضوحا في التربية، كما إن النماء

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٠٩)
(٢) تفسير السعدي (ص٦٦)
(٣) تفسير القرطبي (١٨/ ٩٢)
(٤) تفسير المنار (١/ ٣٨٩).

والتطوير في (التزكية) يكون مرتكزا على قاعدة صلبة من التطهير، أو موازيا لها على الأقل، بخلاف التربية.

أو بعبارة أخرى هي (الخروج من الظلمات إلى النور)، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]؛ وهذا هو غاية إنزال القرآن الكريم، والمقياس الذي نقيس عليه نجاح عملية التعليم القرآني (التزكي بكل آية وسورة فيه للخروج من الظلمات إلى النور)؛ فمَنْ لَمْ يَتَزَكّ، لم يتعلم القرآن.

والخلاصة:

أن القرآن يؤكد ما يؤكده الصحابة؛ من أن دور الرسول في تعليم القرآن لم يكن تعليميا محضا، وإنما كان تعليميا تربويا تأهيليا؛ ويمكننا تلخيصه في:

١- **تلاوة الآيات على الصحابة**: لكنها ليست قراءة للقراءة؛ بل تلاوة تدبرية، يكررها حتى تؤثر في النفس وفي القلب فيحدث التذكير؛ ويشفعها بالتوجيه إلى أن المراد من الآيات المتلوة هو اتباعها. ولقد أشار إلى كل ذلك ابن عاشور ورشيد رضا.

٢- **تعليم الكتاب**: فيعلمهم المباني ويضبطها لهم، ويعلمهم المعاني ويجليها لهم؛ ويحصل لهم بذلك المخرج المعرفي لعملية التعليم القرآني.

٣- **تعليم الحكمة**: وهي إتقان كيفية العمل بالعلم، وذلك يتضمن:

* **تدبرها معهم**؛ ليحصل لهم المخرج الوجداني لعملية التعليم القرآني (وقد سبق شرح ذلك).

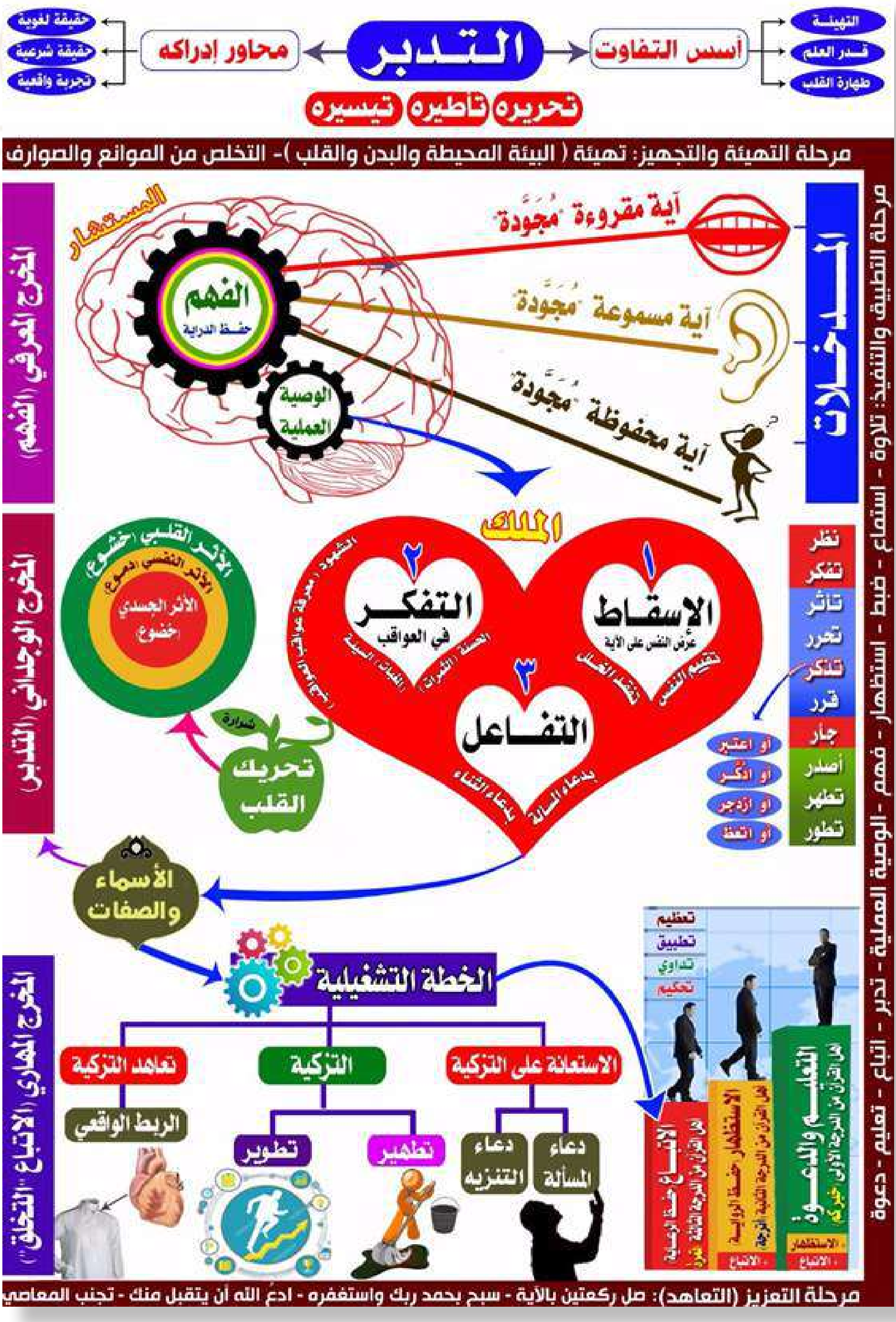
وذلك يبدأ من لحظة التلاوة، حيث يخاطب القلوب ويرتجي بالتلاوة تأثرها وتذكرها، ويفهمهم الآيات، ويعلمهم عاقبة ومآل عملهم بما

تعلموه. ولعل كلام ابن إسحاق السابق يشي بذلك، حيث يقول: «وَيُخْبِرُهُمْ بِرِضَاهُ عَنْهُمْ إِذَا أَطَاعُوهُ وَاسْتَكْثَرُوا مِنْ طَاعَتِهِ، وَتَجَنَّبُوا مَا سَخِطَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ»(١).

* **وتعليمهم أكمل صور التطهر والتطور** (نظريا)، ويعلمهم إياها (عمليا) حين يمتثل ذلك في نفسه.

٤- **التزكية**: يحرص على أن يطهرهم ويطورهم بذلك العلم (يزكيهم)؛ ويتعاهدهم في تزكية أنفسهم به؛ وبذلك يحصل المخرج المهاري لعملية التعليم القرآني (التخلق).

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٤٥)


التدبر
أسس التفاوت
التهيئة
قدر العلم
طهارة القلب
محاور إدراكه
حقيقة لغوية
حقيقة شرعية
تجربة واقعية
تحريره تأطيره تيسيره
مرحلة التهيئة والتجهيز: تهيئة (البيئة المحيطة والبدن والقلب)- التخلص من الموانع والصوارف
المدخلات
آية مقروءة مُجوَّدة
آية مسموعة مُجوَّدة
آية محفوظة مُجوَّدة
المستشار
الفهم
حفظ الدراية
الوصية العملية
المخرج المعرفي (الفهم)
الملك
١ الإسقاط
عرض النفس على الآية
تقييم النفس
تفقد الخلل
٢ التفكر
في العواقب
الحسنة (الثمرات)
السيئة (الفئات)
٣ التفاعل
بدعاء الثناء
بدعاء المسألة
نظر
تفكر
تأثر
تحرر
تذكر
قرر
جأر
أصدر
تطهر
تطور
أو اعتبر
أو اذكر
أو ازدجر
أو اتعظ
الأثر القلبي (خشوع)
الأثر النفسي (دموع)
الأثر الجسدي (خضوع)
شرارة
تحريك القلب
المخرج الوجداني (التدبر)
الأسماء والصفات
الخطة التشغيلية
الاستعانة على التزكية
التزكية
تعاهد التزكية
دعاء المسألة
دعاء التنزيه
تطهير
تطوير
الربط الواقعي
تعظيم
تطبيق
تداوي
تحكيم
الاتباع
الاستظهار
التعليم والدعوة
المخرج المهاري (الاتباع) (التخلق)
مرحلة التطبيق والتنفيذ: تلاوة - استماع - ضبط - استظهار - فهم - الوصية العملية - تدبر - اتباع - تعليم - دعوة
مرحلة التعزيز (التعاهد): صل ركعتين بالآية - سبح بحمد ربك واستغفره - ادعُ الله أن يتقبل منك - تجنب المعاصي

المبحث الأول

بين يدي السورة (الأهمية)

الفرع الأول

حاجتنا إلى سورة النصر

إن الرغبة في الإنجاز وتحقيق الانتصار والنجاح في الحياة رغبة كامنة داخل كل إنسان، والكل يسعى أن ينتصر على كل معوقاته ومكدراته حتى ولو كانت نفسه التي بين جنبيه، إلا أن الأفهام والرؤى تتباين تباينًا واضحًا في حقيقة النصر ومعاييره ومكملاته، فتفرز جميعًا نصرًا مبتورًا أو مكسورًا.

لذا تتجلى نعمة الله علينا حين يُعلمنا كل ما يتعلق بالنصر، ويهدينا إلى الطريق نحو النصر الكامل المنشود في أوجز عبارة وأروع بيان.

وإطلالة أخرى على واقع الإنجاز في حياتنا، تجد الكثير من الإنجازات تزور حياتنا كالنزوات، والأخرى تستعصي علينا رغم كثرة المحاولات، وما ذاك إلا لأننا أهملنا ما ينبغي القيام به بعد النصر والإنجاز من واجبات. فتأتي سورة النصر تحررنا وتُحَصِّنا وترشدنا لما ينبغي علينا فعله بعد النصر والإنجاز؛ لترعى لنا دوام ما تحقق من إنجازات، وتعيننا على تحقيق ما استعصى من الأمنيات.

فتعالوا بنا نُطالع سورة النصر؛ لنتعرف من خلالها على حقيقة النصر ومعاييره ومكملاته؛ لنكون من المنتصرين المفلحين في الدنيا والآخرة.

الفرع الثاني

اسم السورة

١) سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ فِي كَلَامِ السَّلَفِ سُورَةَ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ: «أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ سُورَةُ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ ...» الْحَدِيث.

٢) وَسُمِّيَتْ فِي الْمَصَاحِفِ وَفِي مُعْظَمِ التَّفَاسِيرِ «سُورَةَ النَّصْرِ» لِذِكْرِ نَصْرِ اللهِ فِيهَا، فَسُمِّيَتْ بِالنَّصْرِ الْمَعْهُودِ عَهْدًا ذِكْرِيًّا.

٣) وَهِيَ مُعَنْوَنَةٌ فِي «جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ» «سُورَةَ الْفَتْحِ» لِوُقُوعِ هَذَا اللَّفْظِ فِيهَا، فَيَكُونُ هَذَا الِاسْمُ مُشْتَرَكًا بَينهَا وَبَين سُورَةِ (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا).

٤) وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهَا تُسَمَّى «سُورَةَ التَّوْدِيعِ»[(١)] فِي «الْإِتْقَانِ»[(٢)] لِمَا فِيهَا مِنَ الْإِيمَاءِ إِلَى وَدَاعِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اهـ. يَعْنِي مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى اقْتِرَابِ لِحَاقِهِ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى كَمَا سَيَأْتِي عَنْ عَائِشَةَ[(٣)].

لقد ناقشت تلك السورة الوجيزة المبنى العظيمة المعنى قضية النصر والإنجاز، وتحدثت عن كل ما يتعلق به، وخصوصا مُكَمِّلاته (واجبات ما بعد النصر). لذا فقد جاء الاسم معبراً عن مقصد السورة وفكرتها أكمل تعبير، فهو حقا الكلمة المحورية في السورة.

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٢٩).

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ١٩٦).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٨٧).

الفرع الثالث

نزول السورة

* **زمان نزولها:** وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ[(١)].

* **وَاخْتُلِفَ فِي وَقْتِ نُزُولِهَا**[(٢)]:

فَقِيلَ: نَزَلَتْ مُنْصَرَفَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ خَيْبَرَ (أَيْ فِي سَنَةِ سَبْعٍ).

وَعَنْ قَتَادَةَ: نَزَلَتْ قَبْلَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَنَتَيْنِ.

وروي أَنَّهَا نزلت أَوَاسِطَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ (أَيْ عَامَ حِجَّةِ الْوَدَاعِ)، وَضَعَّفَهُ ابْنُ رَجَبٍ[(٣)].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَاشَ بعد نُزُولِهَا نَحوًا من ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ، وَعَلَيْهِ تَكُونُ (إِذَا) مُسْتَعْمَلَةً لِلزَّمَنِ الْمَاضِي؛ لِأَنَّ الْفَتْحَ وَدُخُولَ النَّاسِ فِي الدِّينِ قَدْ وَقَعَا.

ورجح ابن عاشور القول الأول، وقال: «وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ الطَّبَرِيُّ وَالطَّبَرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ نَزَلَتْ إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ جَاءَ نَصْرُ اللهِ، وَجَاءَ الْفَتْحُ، وَجَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ قَوْمٌ نَقِيَّةٌ قُلُوبُهُمْ لَيِّنَةٌ طَاعَتُهُمْ، الْإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْفِقْهُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ**»[(٤)]، وَمَجِيءُ أَهْلِ الْيَمَنِ أَوَّلَ مَرَّةٍ هُوَ مَجِيء وَفد الْأَشْعَرِيِّينَ عَامَ غَزْوَةِ خَيْبَرَ. وَلَمْ يَخْتَلِفْ أَهْلُ التَّأْوِيلِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَتْحِ فِي الْآيَةِ هُوَ فَتْحُ مَكَّةَ، وَعَلَيْهِ فَالْفَتْحُ مُسْتَقْبَلٌ وَدُخُولُ النَّاسِ فِي الدِّينِ أَفْوَاجًا مُسْتَقْبَلٌ أَيْضًا وَهُوَ الْأَلْيَقُ

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٢٩).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٨٧-٥٨٩).
(٣) تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ٦٤٠).
(٤) صحيح ابن حبان (١٦/ ٢٨٧)، وصححه الألباني والأرناؤوط.

بِاسْتِعْمَالِ (إِذَا) وَيُحْمَلُ قَوْلُ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ عَلَى أَنَّهُ اسْتِعْمَالُ الْمَاضِي فِي مَعْنَى الْمُضَارِعِ لِتَحَقُّقِ وُقُوعِهِ أَوْ لِأَنَّ النَّصْرَ فِي خَيْبَرَ كَانَ بَادِرَةً لِفَتْحِ مَكَّةَ»[1].

قُلت: وكلام العَلَّامة ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ يُشْكِل عليه ما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ دَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاطِمَةَ فَقَالَ: «**قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي**»، فَبَكَتْ، فَقَالَ: «**لَا تَبْكِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لِحَاقًا بِي**»، فَضَحِكَتْ، فَرَآهَا بَعْضُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْنَ: يَا فَاطِمَةُ، رَأَيْنَاكِ بَكَيْتِ ثُمَّ ضَحِكْتِ؟ قَالَتْ: إِنَّهُ أَخْبَرَنِي أَنَّهُ قَدْ نُعِيَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ فَبَكَيْتُ، فَقَالَ لِي: «**لَا تَبْكِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لَاحِقٌ بِي**» فَضَحِكْتُ[2].

وزاد في رواية المشكاة: «إذا جاء نصر الله والفتح، وجاء أهل اليمن هم أرق أفئدة، والإيمان يمان، والحكمة يمانية».

ويرى ابن عاشور أن قوله «لما نزلت» مُدْرَج من كلام الراوي، لكن ليس هناك دليل على كونه مدرجا - فيما نعلم - وقد جاء في روايات أخرى أن ذلك كان قُرب وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ويؤيده أيضا أن السورة آخر ما نزل كسورة كاملة، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ، قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: تَعْلَمُ - وَقَالَ هَارُونُ: تَدْرِي - آخِرَ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ، نَزَلَتْ جَمِيعًا؟ قُلْتُ: «نَعَمْ، إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ»، قَالَ: صَدَقْتَ[3].

أما ربط الأمر بمجيء أهل اليمن لا دليل عليه؛ فإنه يخبر أن كل ما جاء في السورة

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٨٧-٥٨٩)

(٢) مشكاة المصابيح (٣/ ٢٩٩) وحسنه الألباني، وهو في سنن الدارمي (١/ ٢١٦) وصححه حسين أسد.

(٣) صحيح مسلم (٤/ ٢٣١٨).

قد حصل، فقد نصره الله وفتح عليه مكة، وجاء أهل اليمن من قبل فتح مكة وبعده يدخلون في دين الله أفواجا.

ويحسم المسألة تقريبا هذا الحديث: عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي»، بأنه مقبوض في تلك السنَة[١].

وعليه يكون الأرجح القول الرابع: أن النزول كان قبل الوفاة بثلاثة أشهر. والله تعالى أعلم.

ترتيب نزولها:

١) **وَعَدَّهَا جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ السُّورَةَ الْمِائَةَ وَالثَّلَاثَ فِي تَرْتِيبِ نُزُولِ السُّوَرِ، وَقَالَ:** نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْحَشْرِ وَقَبْلَ سُورَةِ النُّورِ. وَهَذَا جَارٍ عَلَى رِوَايَةِ أَنَّهَا نَزَلَتْ عَقِبَ غَزْوَةِ خَيْبَرَ.

٢) **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ** فَتَكُونُ عَلَى قَوْلِهِ السُّورَةَ الْمِائَةَ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ بَرَاءَةَ وَلَمْ تُنَزَّلْ بَعْدَهَا سُورَةٌ أُخْرَى[٢].

---

(١) مسند أحمد (٢/ ٤٣٥) وصححه الشيخ أحمد شاكر.

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٨٩)، تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٢٩)

الفرع الرابع

موضوع السورة

لا يُتَصور - حتى في دنيا الناس - أن يُسْمَى نصٌ باسم، أو يُوْضَع له عنوان ولا يكون معبرا عن مضمونه، أو متعلقا به. وبما أن هذه السورة الكريمة، سَمَّاها الله سورة النصر؛ لذا فإن موضوعها ولا شك الحديث عن (النصر بمفهومه الشامل الكامل).

لكن قضية (النصر) أو الإنجاز قد تم تناولها كثيرا في القرآن، فما الذي تميزت به سورة النصر إذاً؟

لن نحتاج لكثير تأمل لندرك أن سورة النصر قد تم التركيز فيها على (واجبات ما بعد النصر) أو مُكَمِّلاته ومُعززاته (التسبيح «فسبح» - الصلاة «فسبح» - الحمد والشكر ونسبة الفضل إلى الله «بحمد ربك» - الانكسار والاستغفار «واستغفره» - تجديد التوبة «إنه كان توابا»).

في الوقت الذي لم تُغفل فيه السورة الإشارة إلى قضايا أخرى متعلقة بالنصر: كاحتمالية حدوثه ﴿جَآءَ﴾، ومصدره (﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾، ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾)، ووجهته ﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾، ومقاييس كماله (حقيقة لا خيال ﴿جَآءَ﴾، ﴿وَرَأَيۡتَ﴾، فتح القلوب والدروب ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، الاستمرارية والديمومة ﴿يَدۡخُلُونَ﴾، صلاح الدين والدنيا ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، الاستقامة على الحق ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، الجماعية والنظام ﴿أَفۡوَاجٗا﴾).

الفرع الخامس

مقصد السورة

تتحدث السورة عن النصر والإنجاز بتمام الروعة والإيجاز. وتُوَسِّع مفهوم النصر ليشمل كل أمر نجح الإنسان في تحقيقه، أو كل فوز حققه، كالتعبد في مواسم الخيرات، والتخلص من بعض المنكرات والمكدرات، واكتساب بعض المزايا والمهارات.

سورة النصر تعيد تشكيل ثقافة جديدة للأمة المسلمة فيما يتعلق بالنصر، مفادها أن نُعْرِض بعد النصر عن الفخر والاغترار، ونترقى في معارج أسمى حيث التواضع والانكسار والشكر والاستغفار، وأن لحظات النصر والتمكين أقل بكثير من سنوات الجهد التي يعيشها الداعية الأمين.

سورة النصر تعلن أنه: «لا يكتمل الانتصار إلا بالتحرر من العُجب والأوزار»، وتؤكد أن: «الانكسار ينبغي أن يكون رديف الانتصار»، وتبين أن: «التسبيح والانكسار، والشكر والاستغفار، أهم صور التفاعل مع نعمة الانتصار»، وتُنَبِّه المنتصر: «لا تنشغل بالنصر عن النصير، ولا بالفتح عن الفتَّاح، ولا بالإنجاز عمن أنجز لك، ولا بالنعمة عمن أنعم عليك».

المبحث الثاني

حقوق سورة النصر علينا (الآلية)

تلك السورة العظيمة لها علينا العديد من الحقوق، ولو أردنا أن نوفيها حقوقها، وأن نكون من أهلها، ليكتمل انتفاعنا واستمتاعنا بها، فينبغي أن نتعامل معها بطريقة «العلم والعمل» ومنهجية «الإيمان قبل القرآن».

ما هي أهدافنا بالنسبة لهذه السورة؟:

هدفنا الاستراتيجي الأكبر فيما يتعلق بهذه السورة، يتلخص في أن نكون من أهلها المؤمنين بها (من الدرجة الأولى «خيركم أو الرباني»)، وذلك يحصل إن حققنا ثلاثة أهداف مرحلية: الأول (اتباعها «العمل بها»)، والثاني (ضبط مبانيها وحفظها رواية «تعلم مبانيها»)، والثالث (تعليم مبانيها ومعانيها).

فبتحقيق الهدف الأول نصل إلى الدرجة الثالثة من درجات أهل القرآن (مرتبة «التمرة»)، وبتحقيق الهدف الثاني نترقى من الدرجة الثالثة إلى الثانية (مرتبة «الأترجة»)، وبتحقيق الهدف الثالث نترقى من الدرجة الثانية إلى الأولى (مرتبة «خيركم»). ولكل مرحلة من هذه المراحل أهداف تشغيلية، بتحقيقها نتمكن من تحقيق أهداف المرحلة.

كيف نحقق الأهداف السابقة؟:

ونستطيع الوصول لتحقيق هدفنا الاستراتيجي من خلال تدارس الآية بالترتيب التالي:

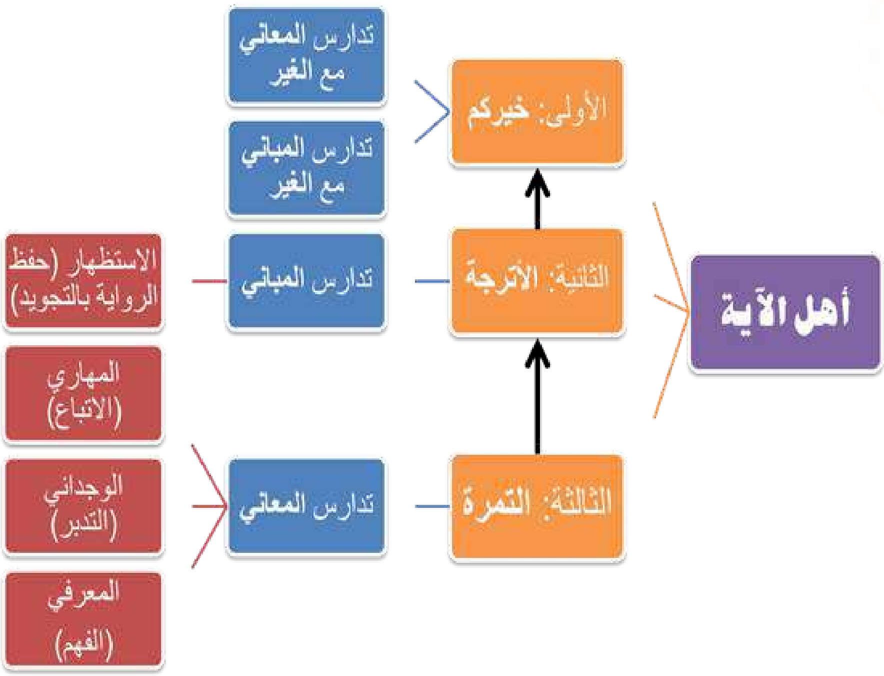
* **تدارس المعاني** (تدارس الفهم، وتدارس التدبر، وتدارس الاتباع).
* **تدارس المباني** (تدارس الضبط، وحفظ الرواية).

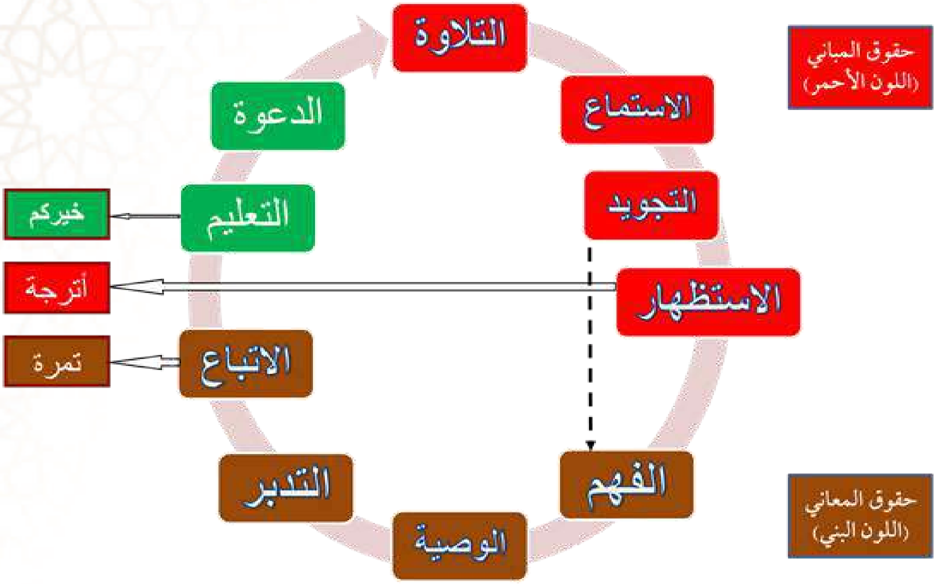
* **تدارس التعليم للغير** (للمباني والمعاني).

ويحصل ذلك بتوفية الآية حقوق مبانيها ومعانيها العشرة (الحقوق العلمية والعملية): التلاوة، الاستماع، التجويد، الاستظهار، الفهم. ثم استخراج الوصايا العملية: التدبر، الاتباع، التعليم، الدعوة.

كيف نقيس نجاحنا في تحقيق الأهداف السابقة؟:

ويمكننا قياس النجاح في تحقيق أهدافنا من خلال وسائلها بالتالي: تفهُّم الآيات فهما صحيحا (مخرج معرفي)، وتحرُّك القلب ونشاطه لاتباعها (مخرج وجداني)، ووجود خطة تشغيلية محددة للاتباع (مخرج مهاري)، وإتقان تجويد الآيات واستظهارها، وتعليم معانيها ومبانيها.




التلاوة
الاستماع
التجويد
الاستظهار
الفهم
الوصية
التدبر
الاتباع
التعليم
الدعوة
خيركم
أترجة
تمرة
حقوق المباني
(اللون الأحمر)
حقوق المعاني
(اللون البني)

الفرع الأول

الحق الخامس (الفهم من خلال كتب التفسير)

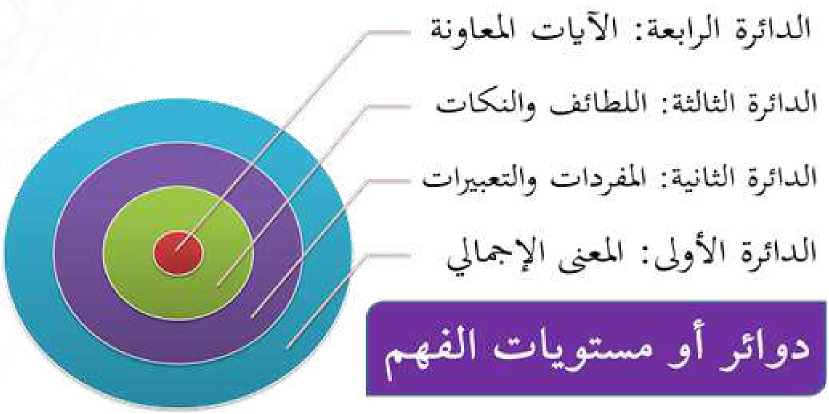
فهم الآيات فرض عين على كل قادر(١)؛ أما تفسيرها فهو فرض كفاية لا يقوم به إلا المتخصصون من المفسرين، وعليه يكون التفسير هو الوسيلة التي يستخدمها أي مسلم للفهم، فهو لا يستقل بالفهم بنفسه، بل يطالع كتب المفسرين المعتمدين أو يراجع المتخصصين؛ ليفهم من خلال ذلك كلام الله، وإن انعقد له فهم في آية قبل المطالعة أو المراجعة، فلا يعتمده حتى يطمئن لصحة فهمه بمطالعة كتب المفسرين المعتمدين، أو مراجعة المتخصصين.

لكنَّ الفهم مستويات، وفهم واحد من المتخصصين لا شك يكون أعمق من فهم واحد من جماهير المسلمين؛ لذا فإننا نُقَسِّم خطوة الفهم في مشروعنا إلى دوائر أو مستويات تتدرج في العمق، فنجعل الدائرة الخارجية (للمعنى الإجمالي أو الجملي) والتي تليها للداخل (للمفردات والتراكيب)، والتي تليها للداخل (للطائف والنكات)، والتي تليها للداخل (للآيات والكلمات المعاونة في السياق القرآني).

وتجدر الإشارة إلى أن ما يحتاجه الإنسان لمباشرة التدبر والاتباع، والجواز إلى المراحل التالية في تدارس الآيات، هو الدائرة الأولى (الفهم الإجمالي)، وعلى أكثر التقديرات الدائرة الثانية (المفردات والتراكيب)، لأن التدارس أولا لا بُدَّ أن يكون للتدبر والعمل كخطوات في طريق التحقق بالربانية، أما تفاصيل الفهم العميق والعالمية فتأتي بعد ذلك.

(١) لأن كل الأوامر بالتعقل والتفكر والتدبر والتذكر والاعتبار والاتباع أوامر ضمنية بالفهم، وهو من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ لذا فإنه أكثر ما أمر الله به فيما يتعلق بالتعامل مع القرآن.

ولا ننكر أن تلك التفاصيل الدقيقة في الفهم تُجَوِّد التدبر والعمل (ولا نراها تدبرا أو عملا)، لذا أوردناها هنا؛ لكن ننبه أن الأنسب لجماهير المسلمين الاكتفاء بدائرة (المعنى الإجمالي) وتركيز الجهد على ما بعد الفهم الصحيح من التدبر والعمل، كما نحذر المتخصصين من الاكتفاء بها والوقوف عندها.



دائرة الفهم الأولى: المعنى الإجمالي (للجماهير):

يوصينا الله عَزَّوَجَلَّ بالمسارعة بالتسبيح والصلاة والتحميد والاستغفار شكرا له سبحانه إذا امتن علينا سبحانه بانتصار أو إنجاز حقيقي.

فيخبر سبحانه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويخبرنا معه أنه إذا تحقق النصر والفتح الذي كنت تتمناه، والذي هو في الحقيقة من عند الله، ورأيت من الناس جماعات كثيرة تستجيب لدعوتك وتدخل في دين الله، فلا تتأخر حينها عن المبادرة بتسبيح الله ذكرا وصلاة، وعن تحميده جل في علاه، وعن استغفاره وطلب رضاه، وأبشر فإنه سبحانه تواب سيوفقك لما يحب ويقبلك.

دوائر الفهم التالية: المفردات واللطائف والسياقات (للمتخصصين):

* ﴿إِذَا﴾: شرطية؛ لتؤكد الصلة بين النصر ومُكملاته.

وقيل: إنها تشير إلى الاستقبال فقط، فتعبر عن أمر لم يحدث بعد، وربما كان هذا هو الأكثر، لكنها تشير أحيانا للحاضر والماضي.

قال ابن عاشور: «(إذا) اسْمُ زَمَانٍ مُطْلَقٌ، فَقَدْ يُسْتَعْمَلُ لِلزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِ غَالِبًا. وَلِذَلِكَ يُضَمَّنُ مَعْنَى الشَّرْطِ غَالِبًا، وَيَكُونُ الْفِعْلُ الَّذِي تُضَافُ إِلَيْهِ بِصِيغَةِ الْمَاضِي غَالِبًا لِإِفَادَةِ التَّحَقُّقِ، وَقَدْ يَكُونُ مُضَارِعًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾ [الشورى: ٢٩]. وَيُسْتَعْمَلُ فِي الزَّمَنِ الْمَاضِي وَحِينَئِذٍ يَتَعَيَّنُ أَنْ تَقَعَ الْجُمْلَةُ بَعْدَهُ بِصِيغَةِ الْمَاضِي، وَلَا تُضَمَّنُ إذا مَعْنَى الشَّرْطِ حِينَئِذٍ وَإِنَّمَا هِيَ لِمُجَرَّدِ الْإِخْبَارِ دُونَ قَصْدِ تَعْلِيقٍ نَحْوَ: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ [الجمعة: ١١]. وإذا هُنَا مُضَمَّنَةٌ الشَّرْطَ لَا مَحَالَةَ لِوُجُودِ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ [النصر: ٣]»(١).

ويترتب على ذلك الفصل بين الأقوال المتباينة حول نزول السورة، فَمَن يرى أن السورة نزلت قبل فتح مكة، يتبنى أن تكون «إذا» للاستقبال، وتكون السورة بشارةً وتكليفا. أما مَنْ يرى أن السورة نزلت بعد فتح مكة، يتبنى كون «إذا» بمعنى «قد»(٢)، وتكون السورة تذكيرًا وتكليفًا.

وفي الحالتين التكليف (بالتسبيح بحمد الله واستغفاره) متحقق، والإشارة إلى قرب انتهاء المهمة وضرورة الاستعداد للرحيل حاصلة.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٠)

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٠)

قال ابن عاشور: «وَالْغَرَضُ مِنْهَا الْوَعْدُ بِنَصْرٍ كَامِلٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ أَوْ بِفَتْحِ مَكَّةَ، وَالْبِشَارَةُ بِدُخُولِ خَلَائِقَ كَثِيرَةٍ فِي الْإِسْلَامِ ... وَالْإِيمَاءُ إِلَى أَنَّهُ حِينَ يَقَعُ ذَلِكَ فَقَدِ اقْتَرَبَ انْتِقَالُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْآخِرَةِ»[1].

* ﴿جَآءَ﴾: أفادت تحقق النصر[2]، وأوحت بأن النصر ليس صعبًا أو مستحيلًا، وبثت الأمل في النفوس اليائسة. كما توجه إلى أن النصر لا ينبغي أن يُزيَّف؛ فالنصر الحقيقي له علامات ومقاييس.

* ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾: والنصر؛ الْعَوْنُ ... ثُمَّ قِيلَ: الْمُرَادُ بِهَذَا النَّصْرِ نَصْرُ الرَّسُولِ عَلَى قُرَيْشٍ، وَقِيلَ: نَصْرُهُ عَلَى مَنْ قَاتَلَهُ مِنَ الْكُفَّارِ[3].

لماذا قال «نصر الله» ولم يقل «النصر»؟:

١) **ليؤكد على** أن النصر من عند الله، فلا بد أن نتعلق به أولًا.

٢) **ليكون ذلك** أكثر عونا على التسبيح والتحميد والاستغفار وممهدا له، حين يستحضر العبد أن الله هو الذي نصر؛ فيستبرئ من الإعجاب بنفسه ونسبة الفضل إلى شخصه.

يقول سيد قطب: «فهو نصر الله يجيء به الله: في الوقت الذي يقدِّره، في الصورة التي يريدها، للغاية التي يرسمها. وليس للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا لأصحابه من أمره شيء، وليس لهم في هذا النصر يد ... إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم. وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم، وأن يقيمهم عليه حراسا، ويجعلهم عليه أمناء. هذا هو كل حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس في دين الله أفواجا. وبناء على هذا

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٨٩).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٠).
(٣) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٢٩)، النكت والعيون (٦/ ٣٥٩).

الإيحاء وما ينشئه من تصور خاص لحقيقة الأمر يتحدد شأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه بإزاء تكريم الله لهم، وإكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم. إن شأنه - ومن معه - هو الاتجاه إلى الله بالتسبيح وبالحمد والاستغفار في لحظة الانتصار»[(١)].

٣) **ليشير إلى** أن النصر لا يكون نصرًا إلا إذا أثمر حالًا أرضى لله؛ فهذا تنبيه على معيار من معايير النصر الكامل.

٤) **ليوجه أيضا إلى** الوجهة السديدة للرغبة في تحقيق النصر، وهي أن يكون ابتغاء مرضاة الله ولتكون كلمته هي العليا.

٥) **ليشير إلى** عظمة ذلك النصر وشرفه وكماله وتمامه.

قال ابن عاشور: «فَإِضَافَةُ نَصْرُ إِلَى اللهِ تُشْعِرُ بِتَعْظِيمِ هَذَا النَّصْرِ وَأَنَّهُ نَصْرٌ عَزِيزٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ»[(٢)]، وقال في أضواء البيان: «وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الْإِضَافَةَ هُنَا لَهَا دَلَالَةُ تَمَامٍ وَكَمَالٍ ... فَهُوَ مُشْعِرٌ بِالنَّصْرِ كُلَّ النَّصْرِ، أَوْ بِتَمَامِ النَّصْرِ كُلِّهِ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(٣)].

لماذا لم يتم تقييد النصر بشيء (كالحروب أو المناظرات أو غيرهما)؟:

وربما يشير إلى عدم تقييد النصر بشيء إلى أن نصر الله لعبده لا يكون في زاوية واحدة، لكنه يعم كل الزوايا، وأن العبد مطالب بالسعي في تحقيق كل صور ومظاهر نصرة الله والدين؛ وكل ذلك يزيد العبد يقينا في الله، وإقبالا وأملا في تحقيق النصر الكامل الذي يتمناه.

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٠).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٩/ ١٣٨).

* ﴿ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾: والْفَتْحُ؛ امْتِلَاكُ بَلَدِ الْعَدُوِّ وَأَرْضِهِ[١]. وقد يشير إلى الفتح بالعلم أو الفهم أو الإنجاز[٢].

أما الفتح المقصود هنا: فقد قيل: إنه عام لسائر البلدان، وقيل: إنه خاص؛ وقيل: إن ذلك الخاص «فتح مكة»، وهو القول الأشهر مطلقا، وقيل: «فتح القصور والمدائن»[٣].

وَالتَّعْرِيفُ فِي «الْفَتْحِ» لِلْعَهْدِ ... وَقَدِ اتَّفَقَتْ أَقْوَالُ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ فَمَنْ بَعْدَهُمْ عَلَى أَنَّ الْفَتْحَ الْمَذْكُورَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ هُوَ فَتْحُ مَكَّةَ إِلَّا رِوَايَةً عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ هُوَ فَتْحُ الْمَدَائِنِ والقصور، يعنون الْحُصُونَ[٤].

لماذا لم يتم الاقتصار على النصر فحسب؟:

١) **لأنه قد يحدث النصر ولا يحدث معه الفتح،** فالفتح زاد النصر تماما وكمالا.

٢) **وكلمة (الفتح)** تشير إلى أن النصر المنشود ليس توسعًا في اكتساب الأراضي والدروب، بل لا يكتمل النصر الذي يحبه الله إلا بالفتح الإيماني للنفوس والقلوب.

وكذلك كان «فتح مكة» اكتسابا للإنسان قبل البنيان، وحيازة للوجدان قبل العمران. فالصحابة الذين نافحوا عن الأصنام طيلة حياتهم، ها هم أولاء يكسرونها بأيديهم وأدواتهم، بعد أن تكسرت أولا نتيجة للفتح الإيماني

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٠).

(٢) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٠)، النكت والعيون (٦/ ٣٦٠)، ويرى في أضواء البيان (٩/ ١٣٨) أن الفتح للعموم أيضا.

(٣) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٠).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩١).

الذي لامس قلوبهم. وأولئك الذين فروا منه زمانا طويلا بأجسادهم، إذا بهم اليوم يفرون إليه بقلوبهم قبل أجسادهم. لقد كان النبى صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعى مفهوم النصر المنشود لذا وفقه الله لتحقيقه.

لماذا لم يتم تقييد الفتح بشيء (كالحروب ونحوها)؟:

ربما أشار ذلك إلى أن الإنسان ينبغي أن يكون حريصا على الأخذ بكل الأسباب التي تفتح له أكبر قدر يستطيعه من أبواب الخير، وأن فتحه سبحانه لعباده يعم كل صور ومظاهر الفتح، فيزيد ذلك العبد يقينا في الله وأملا في تحقيق الفتح الكامل الذي يتمناه.

* ﴿وَرَأَيْتَ﴾: وَالرُّؤْيَةُ ... يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ عِلْمِيَّةً، أَيْ وَعَلِمْتَ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ... وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ رُؤْيَةً بَصَرِيَّةً بِأَنْ رَأَى أَفْوَاجَ وُفُودِ الْعَرَبِ يَرِدُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ وَذَلِكَ سَنَةَ تِسْعٍ[(١)].

وفيها تأكيدٌ على أن النصر لا يُزَيَّف ولا يُبنى على الأوهام، النصر «حقيقة لا خيال».

* ﴿ٱلنَّاسَ﴾: المراد بالناس العموم على قول الجمهور، وعن مقاتل: أنهم أهل اليمن[(٢)].

وَالتَّعْرِيفُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلِاسْتِغْرَاقِ الْعُرْفِيِّ، أَيْ جَمِيعَ النَّاسِ الَّذِينَ يَخْطُرُونَ بِالْبَالِ ... فَالْمَعْنَى: وَرَأَيْتَ نَاسًا كَثِيرِينَ أَوْ وَرَأَيْتَ الْعَرَبَ[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٢)، الكشاف (٤/ ٨١١)، النكت والعيون (٦/ ٣٦١)، تفسير أبي السعود (٩/ ٢٠٨).

(٢) تفسير سورة النصر لابن رجب (ص٢٣).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٢).

فليس النصر اكتساب تأييد المحبين والمعارف والأصدقاء والأقارب، وإنما النصر انتشار الحق الذي تحمل بين جميع الناس لا سيما من يناصبونك العداء.

* ﴿ يَدۡخُلُونَ ﴾: اسْتُعِيرَت للتعبير عن «يُسلِمون».

لماذا تم اختيار الفعل «يدخلون» ولم يأتِ غيره «يعتنقون» أو نحوه؟:

ربما ليشير أنه لا ينبغي أن نقنع بمن يتكلمون ويعلنون بألسنتهم؛ لا بُدَّ أن نتأكد من دخولهم في حظيرة الإسلام، كمن يدخل بيتا أو قصرا.

لماذا جاء بناء الفعل على المضارعة ولم يأتِ بصيغة الماضي «دخلوا»؟:

١) ربما لتشير إلى أن النصر ليس تمكن الفكرة لدى الناس أو فتح البلدان فترة من الزمان ثم يعود الناس أدراجهم، بل النصر الحقيقي ذاك الذي يثمر زيادة مضطردة في المنضمين إليه والمنطوين تحت رايته، فالأصل أن يثمر النصر الحقيقي استمرار الازدهار والانتشار، وإن حدث خللٌ كان الانحدار والانحسار.

قال البقاعي: «﴿يَدۡخُلُونَ﴾ شيئًا فشيئًا متجددًا دخولهم مستمرًا»[١].

٢) وربما أشارت إلى أنه ليس كل من دخل الدين من هذه الأفواج قد تمكن الدين من قلبه تماما، فلربما دخل بعضهم في دين المنتصر رغبة فيما عنده؛ لذا ما ينبغي أن تقنع تماما وتطمئن مطلقا لأولئك الذين ينضمون إليك في حال الرخاء، لا بد أن تجتهد في ترسيخ البناء.

* ﴿ فِي ﴾: تؤكد على أنه ليس نصرا ذاك الذي يغير الظواهر ولا يغير الجواهر، بل النصر إصلاح المخبر والمظهر، وليس النصر انتصار الفكرة مبتورة

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٣١٦).

أو مكسورة، بل النصر «الدخول في السلم كافة» بالتلبس به والانضواء الكامل تحت كنفه.

* ﴿ دِينِ ﴾: تشير إلى أن النصر الحقيقي هو الذي يثمر إصلاح الدين ثم الدنيا، لا الدنيا فحسب.

ودور جهاد السيف والسنان التمهيد والتوطئة لجهاد الحجة والبيان، وفتح قلوب العباد، وتطهير البلاد. والنصر المنشود دينونة الناس وخضوعهم لما معك من الحق لذا عبَّر بـ«دين».

* ﴿ٱللَّهِ ﴾: تشير إلى أن غاية النصر ووجهته أن «تكون كلمة الله هي العليا» وللتمكين لدين الله، لا للأشخاص أو الطوائف أو الجماعات. ومقياس النصر هو انصياع الناس للمنهج الذي ارتضاه الله للناس «دين»، وعبر بـ«اللهِ» ليؤكد أن تحقيق التوحيد - لا سيما توحيد الألوهية - هو مقياس عملية النصر الحقيقية.

* ﴿أَفْوَاجًا ﴾: جَمْعُ فَوْجٍ وَهُوَ الجماعة الكثيرة إثر الجماعة[(١)].

تشير إلى أن من علامات النصر المنشود السليم، الإقبال الشديد عليه حال التمكين، ونصرٌ يفرز كل عام شخصًا أو شخصين نصر مُزيف يحتاج إلى إعادة تقييم؛ لأن من شأن الحق أن ينتشر، فإن لم يوجد أي تقصير ممن يحملون هَمَّ النصر تكون سنة الله قد اقتضت ذلك، ولا لوم، كما حصل مع خير خلق الله «بعض الأنبياء» من قلة الأتباع أو استخدامهم.

* ﴿ فَسَبِّحْ ﴾: والفاء للسرعة والمبادرة.

وفي المراد بالتسبيح هنا قولان؛ أحدهما: أن المراد به الصلاة، **والثاني:**

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٣)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥٣٢).

التسبيح المعروف[1].

والخطاب هنا للنبى ﷺ لا للأمة مباشرة، إشارة إلى أنه لا ينبغي أن ينسَ قادة النصر أنهم أول المخاطبين بواجبات ما بعد النصر ومكملاته، وهم أولى الناس بها.

وتنزيه الرب يكون عن النصر بلا أسباب أو المحاباة، أو الغفلة عن التقصير الحاصل، أو عن الرضى والحب لهزيمة أوليائه وما يصيبهم من الأذى، أو عن محبة أن يكون لأعدائه على أوليائه سبيل.

قال القاسمي: «فنزه ربك عن أن يهمل الحق ويدعه للباطل يأكله، وعن أن يخلف وعده في تأييده»[2].

۞ لماذا يؤمر النبي ﷺ بالتسبيح والتحميد والاستغفار، رغم أنه لم يكن مقصرا ألبتة فيهم؟:

يحتمل أن يكون المراد هنا «تَذْكِيرَهُ ﷺ بِتَسْبِيحٍ خَاصٍّ لَمْ يَحْصُلْ مِنْ قَبْلُ فِي تَسْبِيحَاتِهِ وَبِاسْتِغْفَارٍ خَاصٍّ لَمْ يَحْصُلْ مِنْ قَبْلُ فِي اسْتِغْفَارِهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّسْبِيحُ الْمَأْمُورُ بِهِ تَسْبِيحَ ابْتِهَاجٍ وَتَعَجُّبٍ مِنْ تَيْسِيرِ اللهِ تَعَالَى لَهُ مَا لَا يَخْطُرُ بِبَالِ أَحَدٍ أَنْ يَتِمَّ لَهُ ذَلِكَ، فَإِنَّ سُبْحَانَ اللهَ وَنَحْوَهُ يُسْتَعْمَلُ فِي التَّعَجُّبِ ... فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَخْلُو عَنْ تَسْبِيحِ اللهِ فَأُرِيدَ تَسْبِيحٌ يُقَارِنُ الْحَمْدَ عَلَى مَا أُعْطِيَهُ مِنَ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ وَدُخُولِ الْأُمَّةِ فِي الْإِسْلَامِ ... فَكَانَ تَعْلِيقُ الْأَمْرِ بِالتَّسْبِيحِ وَبِالِاسْتِغْفَارِ عَلَى حُصُولِ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ إِيمَاءً إِلَى تَسْبِيحٍ وَاسْتِغْفَارٍ يَحْصُلُ بِهِمَا تَقَرُّبٌ لَمْ يُنْوَ مِنْ قَبْلُ، وَهُوَ التَّهَيُّؤُ لِلِقَاءِ اللهِ، وَأَنَّ حيَاته

---

(١) زاد المسير (٩/ ٢٥٦)، النكت والعيون (٦/ ٣٦١)، تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣١)، واستظهر القول الأول.
(٢) محاسن التأويل (٩/ ٥٦٠).

الدُّنْيَوِيَّة أَو شكت عَلَى الِانْتِهَاءِ»[١].

لماذا تقدم التسبيح والتحميد على الاستغفار؟:

١) **تَمْهِيدٌ لِإِجَابَةِ اسْتِغْفَارِهِ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ** فِي تَقْدِيمِ الثَّنَاءِ قَبْلَ سُؤَالِ الْحَاجَةِ[٢].

٢) **التَّسْبِيحَ** رَاجِعٌ إِلَى وَصْفِ اللهِ تَعَالَى بِالتَّنَزُّهِ عَنِ النَّقْصِ وَهُوَ يَجْمَعُ (نفي) صِفَاتِ السَّلْبِ (كلها)، فَالتَّسْبِيحُ مُتَمَحِّضٌ لِجَانِبِ اللهِ تَعَالَى، وَلِأَنَّ الْحَمْدَ ثَنَاءٌ عَلَى اللهِ لِإِنْعَامِهِ، وَهُوَ أَدَاءُ الْعَبْدِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ لِشُكْرِ الْمُنْعِمِ فَهُوَ مُسْتَلْزِمٌ إِثْبَاتَ صِفَاتِ الْكَمَالِ لِلَّهِ الَّتِي هِيَ مَنْشَأُ إِنْعَامِهِ عَلَى عَبْدِهِ فَهُوَ جَامِعٌ بَيْنَ جَانِبِ اللهِ وَحَظِّ الْعَبْدِ، وَأَمَّا الِاسْتِغْفَارُ فَهُوَ حَظٌّ لِلْعَبْدِ وَحْدَهُ لِأَنَّهُ طَلَبُهُ اللهَ أَنْ يَعْفُوَ عَمَّا يُؤَاخِذُهُ عَلَيْهِ[٣].

٣) **بما أن المقام مقام إنجاز وانتصار، فالأليق به البدء بالتسبيح لا البدء بالاستغفار**، وإلى هذا الملمح شيخ الإسلام قد أشار؛ فقد قال ابن القيم: «وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يومًا: سئل بعض أهل العلم أيهما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار؟ فقال: إذا كان الثوب نقيًا فالبخور وماء الورد أنفع له، وإذا كان دنسًا فالصابون والماء الحار أنفع له. فقال لي رحمه الله تعالى: فكيف والثياب لا تزال دنسة؟»[٤]. حيث نجد شيخ الإسلام هنا يؤكد أن كل حال له ما يناسبه، فلما كان الحال هنا حال (الثوب النقي)، فالتسبيح أولى له من الاستغفار.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٣)، روح المعاني (١٥/ ٤٩٥).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٤)، روح المعاني (١٥/ ٤٩٥).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٤)، روح المعاني (١٥/ ٤٩٥).
(٤) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص٩٢).

* ﴿بِحَمْدِ﴾: وفي الباء في «بحمد» قولان:

- أحدهما: أنها للمصاحبة فالحمد مضاف إلى المفعول، أي فسبحه حامدًا له، والمعنى: أجمع بين تسبيحه وهو تنزيهه عما لا يليق به من النقائص، وبين تحميده وهو إثبات ما يليق به من المحامد.
- والثاني: أنها للاستعانة، أي: سبحه بما حمد به نفسه إذ ليس كل تسبيح بمحمود[1].

والتسبيح والحمد (يكونان) على ما أولاهم من منة، بأن جعلهم أمناء على دعوته حراسا لدينه. وعلى ما أولى البشرية كلها من رحمة بنصره لدينه، وفتحه على رسوله ودخول الناس أفواجا في هذا الخير الفائض العميم، بعد العمى والضلال والخسران[2].

ما سرّ المطالبة بالتحميد دون الشكر؟:

١) فالشكر يكون في مقابل نعمة معلومة، أما الحمد فلا يرتبط بالنعم، فالرب محمود دوما على كل الأحوال، وفي ذلك إشارة إلى أنه على العبد أن يحمد ربه سواء رأى آثار عون الله في النصر أم لم يرَ؛ لأن هناك ما لم يره العبد وما لم يعلمه وهو أكثر مما رآه وعلمه.

٢) وفي الوصية بالحمد تأكيد على ضرورة التحدث بنعمة الله وإظهارها، فالشكر قد يكون قوليًا أو عمليًا، لكن الحمد لا يكون إلا قوليًا. فيكفي ربنا فضلًا أنه ارتضانا للعمل لدينه وعبادته.

قال النووي: «وَقَوْلُهُ (وَبِحَمْدِكَ) أَيْ: وَبِحَمْدِكَ سَبَّحْتُكَ. وَمَعْنَاهُ: بِتَوْفِيقِكَ

(١) تفسير سورة النصر لابن رجب (ص٢٧).
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩٦).

لِي وَهِدَايَتِكَ وَفَضْلِكَ عَلَيَّ سَبَّحْتُكَ لَا بِحَوْلِي وَقُوَّتِي. فَفِيهِ شُكْرُ اللهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَالِاعْتِرَافُ بِهَا، وَالتَّفْوِيضُ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَأَنَّ كُلَّ الْأَفْعَالِ لَهُ»[(١)].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «وَيَظْهَرُ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ إِبْقَاءُ مَعْنَى الْحَمْدِ عَلَى أَصْلِهِ وَتَكُونُ الْبَاءُ بَاءَ السَّبَبِيَّةِ وَيَكُونُ مَعْنَاهُ: بِسَبَبِ أَنَّكَ مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ سَبَّحَكَ الْمُسَبِّحُونَ وَعَظَّمَكَ الْمُعَظِّمُونَ»[(٢)].

* ﴿رَبِّكَ﴾: الذي خلقك ورزقك ويدبر أمرك ويرعاك ويعتني بك، والربوبية هنا (خاصة).

لماذا وصف الله نفسه هنا بالربوبية دون غيرها من الصفات؟:

ليتذكر العبد دومًا أن النصر إنعام من الله، ومظهر من مظاهر تربيته لعباده المؤمنين ورعايته لهم وعنايته بهم[(٣)]. فمع مقاييس النصر ومعايير النصر كان الوصف بالألوهية؛ فقال تعالى: ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾، ﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾، ومع واجبات ما بعد النصر كان الوصف بالربوبية؛ فقال تعالى: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾، لأن النصر نعمة والربوبية ألصق بالنعم.

لماذا كان التعبير «بربك» ولم يكن «الرب»؟:

و**«الكاف» في ﴿رَبِّكَ﴾ تُشْعِر العبد بالخصوصية والاصطفاء،** وتبين أن الأمر يلزمه ولا يؤديه عنه غيره.

قال ابن عاشور: «فِي صِفَةِ (رَبّ) وَإِضَافَتِهَا إِلَى ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِ مِنَ الْإِيمَاءِ

---

(١) شرح النووي على مسلم (٤/ ٢٠٢).

(٢) نيل الأوطار (٢/ ٢٨٦)، وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم (٢/ ٣٩٩).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٩/ ١٤١).

إِلَى أَنَّ مِنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ وَدُخُولِ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ نِعْمَةً أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْهِ إِذَا حَصَلَ هَذَا الْخَيْرُ الْجَلِيلُ بِوَاسِطَتِهِ فَذَلِكَ تَكْرِيمٌ لَهُ وَعِنَايَةٌ بِهِ وَهُوَ شَأْنُ تَلَطُّفِ الرَّبِّ بِالْمَرْبُوبِ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ السِّيَادَةُ الْمَرْفُوقَةُ بِالرِّفْقِ وَالْإِبْلَاغِ إِلَى الْكَمَالِ»[١].

* ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾: اطلب منه المغفرة، وهي ستر الذنوب والوقاية من شرورها. فلا ينبغي أن ينسى العبد في زحمة الفرح بفضل الله في النصر ذنوبه وتقصيره القديم، ولا ينبغي أن ينسى أي قصور عن بلوغ الكمال بَدَر منه أثناء مباشرة سعيه للنصر.

لماذا خاطب الله تعالى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا ولم يخاطب جماهير المسلمين؟:

١) **قال البقاعي**: «لتقتدي بك أمتك في المواظبة على الأمان الثاني لهم، فإن الأمان الأول – الذي هو وجودك بين أظهرهم – قد دنا رجوعه إلى معدنه في الرفيق الأعلى»[٢].

٢) **قال الشوكاني**: «وَقِيلَ: إِنَّمَا أَمَرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ تَنْبِيهًا لِأُمَّتِهِ وَتَعْرِيضًا بِهِمْ، فَكَأَنَّهُمْ هُمُ الْمَأْمُورُونَ بِالِاسْتِغْفَارِ. وَقِيلَ: إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ لِأُمَّتِهِ لَا لِذَنْبِهِ»[٣].

٣) **قال ابن الجوزي**: «فأُمِر بالتسبيح والاستغفار ليختم له عمره بالزيادة في العمل الصالح»[٤].

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٦).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٣١٨).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٦٢٤).

(٤) زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٥٠١).

۞ لماذا جمع سبحانه بين التسبيح والاستغفار ولم يكتفِ بأحدهما؟:

قال الزمخشري: «والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين: من الجمع بين الطاعة والاحتراس من المعصية، وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفا لأمته»[(١)].

۞ لماذا وَصَّى الله بالاستغفار تحديدا بعد النصر والإنجاز؟:

١) **لأن الاستغفار** بعد الطاعات أحب إلى الله من الاستغفار بعد المعاصي والمنكرات.

٢) **لأن الاستغفار** يدفع العبد لمزيد من العمل، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ [الشرح: ٧]، وفيه يُذَكِّره الله تعالى بأن هناك ديونًا لا بد أن يسددها.

٣) **لأن الاستغفار** يكسر النفس ويكون خطوة وقائية واحترازية في مواجهة العُجب والغرور الذي قد يُحبط العمل.

يقول القرطبي عن معنى ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُۚ﴾: «وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى: كُنْ مُتَعَلِّقًا بِهِ، سَائِلًا رَاغِبًا، مُتَضَرِّعًا عَلَى رُؤْيَةِ التَّقْصِيرِ فِي أَدَاءِ الْحُقُوقِ، لِئَلَّا يَنْقَطِعَ إِلَى رُؤْيَةِ الْأَعْمَالِ»[(٢)]، يقول في الظلال: «وهناك لطيفة أخرى للاستغفار لحظة الانتصار، ففيه إيحاء للنفس وإشعار في لحظة الزهو والفخر بأنها في موقف التقصير والعجز. فأولى أن تطامن من كبريائها، وتطلب العفو من ربها، وهذا يصد قوى الشعور بالزهو والغرور»[(٣)].

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٨١١).
(٢) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٣).
(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩٦).

٤) **لأن الاستغفار** يمثل تخلصا وتوقيا «للزهو الذي قد يساور القلب أو يتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح، وفرحة الظفر بعد طول العناء، وهو مدخل يصعب توقيه في القلب البشري، فمن هذا يكون الاستغفار»(١).

٥) **لأن الاستغفار** «يضمن كذلك عدم الطغيان على المقهورين المغلوبين؛ ليرقب المنتصر الله فيهم، فهو الذي سلطه عليهم، وهو العاجز القاصر المقصر، وإنما سلطة الله عليهم تحقيقا لأمر يريده هو، والنصرُ نصْرُه، والفتح فَتْحُهُ، والدين دينه، وإلى الله تصير الأمور»(٢).

٦) **لأن الاستغفار** يمثل تخلصا وتوقيا «لما قد يكون ساور القلب أو تدسس إليه في فترة الكفاح الطويل والعناء القاسي، والشدة الطاغية والكرب الغامر، من ضيق بالشدة، واستبطاء لوعد الله بالنصر، وزلزلة»(٣)، قال القاسمي: «اسأله أن يغفر ما كان من القلق والضجر والحزن، لتأخر زمن النصر والفتح»(٤).

٧) **لأن الاستغفار** يعالج «التقصير في حمد الله وشكره، فجهد الإنسان مهما كان، ضعيف محدود، وآلاء الله دائمة الفيض والهملان»(٥).

٨) **لأن الاستغفار** يكمل النقص والتقصير الحاصل في الانتصار والإنجاز ويرأب صدعه.

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩٦).
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩٧).
(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩٦).
(٤) محاسن التأويل (٩/ ٥٦٠).
(٥) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩٦).

قال ابن رجب: «والاستغفار: هو خاتمة الأعمال الصالحة؛ فلهذا أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجعله خاتمة عمره ... وسبب هذا أن العباد مقصرون عن القيام بحقوق الله كما ينبغي، وأدائها على الوجه اللائق بجلاله وعظمته، وإنما يؤدونها على قدر ما يطيقونه، فالعارف يعرف أن قدر الحق أعلى وأجلّ من ذلك، فهو يستحي من علمه ويستغفر من تقصيره فيه كما يستغفر غيره من ذنوبه وغفلاته، وكلما كان الشخص بالله أعرف كان له أخوف، وبرؤية تقصيره أبصر»[١].

* ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾: التواب صيغة مبالغة للدلالة على كثرة قبوله سبحانه للتوبة وعونه وحبه لأربابها.

وفي الجملة أَرْبَعُ مُؤَكِّدَاتٍ هِيَ: (إِنَّ «والضمير»، وَكَانَ، وَصِيغَةُ الْمُبَالَغَةِ فِي التَّوَّابِ، وَتَنْوِينُ التَّعْظِيمِ فِيهِ)[٢]؛ لتبث البشرى والتفاؤل في نفس المستغفر؛ فتزيده إقبالا على الاستغفار.

إنها تفتح أبواب الأمل أمام من غفل عن واجبات ما بعد النصر، أو غفل عن مقاييس ومعايير النصر المنشود، أو أهمل وجهة النصر وغايته.

إنها دعوة مُبَشِّرَة للمبادرة بإصلاح الخلل وتسديد المسار، وتجديد التوبة والانكسار، قال ابن عطية: «وقوله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ يعقب ترجية عظيمة للمستغفرين»[٣].

قال ابن عاشور: «أَفَادَتِ الْجُمْلَةُ إِشَارَةً إِلَى وَعْدٍ بِحُسْنِ الْقَبُولِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى حِينَمَا يَقْدُمُ عَلَى الْعَالَمِ الْقُدْسِيِّ ... لِأَنَّ مَنْ عُرِفَ بِكَثْرَةِ قَبُولِ تَوْبَةِ التَّائِبِينَ شَأْنُهُ

(١) تفسير سورة النصر لابن رجب (ص٣٤،٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٦).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥٣٣).

أَنْ يُكْرِمَ وِفَادَةَ الْوَافِدِينَ الَّذِينَ سَعَوْا جُهُودَهُمْ فِي مَرْضَاتِهِ بِمُنْتَهَى الِاسْتِطَاعَةِ»[١].

وَفِعْلُ كَانَ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ فِي لَازِمِ مَعْنَى الِاتِّصَافِ بِالْوَصْفِ فِي الزَّمَنِ الْمَاضِي. وَهُوَ أَنَّ هَذَا الْوَصْفَ ذَاتِيٌّ لَهُ لَا يَتَخَلَّفُ مَعْمُولُهُ عَنْ عِبَادِهِ[٢].

لماذا جاء «توابا» ولم يأتِ «غَفَّارا»؟:

قال ابن عاشور: «عُدِلَ عَنْ ذَلِكَ تَلَطُّفًا مَعَ النَّبِيءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّ أَمْرَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ لَيْسَ مُقْتَضِيًا إِثْبَاتَ ذَنْبٍ ... (لأن) وصف (تواب) جَاءَ مِنْ تَابَ عَلَيْهِ الَّذِي يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى وَفَّقَهُ لِلتَّوْبَةِ إِيمَاءً إِلَى أَنَّ أَمْرَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ إِرْشَادٌ إِلَى مَقَامِ التَّأَدُّبِ مَعَ اللهِ تَعَالَى»[٣].

«فالتواب» فيه مزيد ترغيب وتبشير وتحفيز؛ فالمنتصر ربما لا يكون متحفزا للاستغفار؛ لأنه في حالة إحسان لا إساءة في الغالب، أو يكون مستبعدا لأن يغفر الله له تقصيره؛ وفي كلتا الحالتين كان الوعد بشكر عمله القليل «الاستغفار»، بما هو أعظم من الأجر الجزيل «التوبة».

وفي ذلك الإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يكون عدم تذكر الإنسان لذنب فعله وهو في رحلته لتحقيق النصر مانعا له من الاستغفار وطلب التوبة؛ فربما أذنب العبد وهو لا يشعر، والاستغفار بعد الطاعة أحب إلى الله من الاستغفار بعد المعصية، فالأمر أشبه بتأمين العبد لنفسه وأخذه بالاحتياط ليبقى دوما نقيا من الخطايا والذنوب.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٧).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٧).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٧).

الفرع الثاني

الحق السادس (استخراج الوصايا العملية)

الوصية الرئيسية (ما هو أبرز ما ينبغي عليّ فعله؟):

أن أبادر بالقيام بواجبات ما بعد النصر (التسبيح «ذكر وصلاة»، التحميد، الاستغفار والتوبة، الاستعداد للموت والعمل للآخرة).

فالسورة بالأساس تتحدث عن المبادرة بالقيام بواجبات ما بعد النصر، وإن كانت تشير إلى أمور أخرى متعلقة بالنصر، ﴿فَسَبِّحْ﴾ والفاء للتعقيب والسرعة، وتلك الواجبات تنقسم إلى منطوقة (الإكثار من التسبيح والتحميد والاستغفار)، ومفهومة (الاستعداد للموت وزيادة العمل للآخرة).

ومما يؤيد ما سبق أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جعل القيام بواجبات ما بعد النصر وصيته الرئيسية، فيما يتعلق بهذه السورة، فقد قال: «**فَأَمَرَنِي ... أَنْ أُسَبِّحَهُ، وَأَحْمَدَهُ، وَأَسْتَغْفِرَهُ**»[(١)]، وقال: «**نُعيتْ إليّ نفسي**»، بأنه مقبوض في تلك السنةَ[(٢)]، وأَخَذَ فِي أَشَدِّ مَا كَانَ اجْتِهَادًا فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ[(٣)].

بل لقد فهم الصحابة أن القيام بواجبات ما بعد النصر، هو الوصية الرئيسية لهذه السورة، فقال أشياخ بدر: «أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا»[٤]، وقال ابن عباس ووافقه عمر: «هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ

---

(١) صحيح ابن حبان (١٤/ ٣٢٣) وصححه الألباني والأرناؤوط.

(٢) مسند أحمد (٢/ ٤٣٥) وصححه الشيخ أحمد شاكر.

(٣) السنن الكبرى للنسائي (١٠/ ٣٤٩)، المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٣٢٨)، المطالب العالية لابن حجر (١٢/ ٢٨٨)، الأحاديث المختارة للمقدسي (١٢/ ٢٩١)، قال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣/ ١٧٢): «أما حديث هلال بن خباب؛ فحسن الإسناد».

(٤) صحيح البخاري (٥/ ١٤٩).

الله لَهُ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١] فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر: ٣]»[1].



الوصايا الأخرى:

للآية الأولى:

❋ أن أنسب الفضل دومًا إلى الله في تحقيق النصر والفتح والنجاح ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾.

❋ أن أعتبر النصر دومًا هو الانتقال إلى حال أرضى لله ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾.

❋ أن أعمل على فتح القلوب أولًا قبل فتح الدروب ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾.

للآية الثانية:

❋ ألا أخدع نفسي أو غيري بادعاء نصر غير حقيقي ﴿وَرَأَيۡتَ﴾.

(١) صحيح البخاري (٥/ ١٤٩).

* أن أجتهد في أن يكون انتصاري نجاحًا شاملًا، يحقق نفعًا عامًّا ﴿ٱلنَّاسَ﴾.
* أن أعمل على الحفاظ على استمرارية النصر والنجاح ﴿يَدۡخُلُونَ﴾.
* أن ألتزم حال سعيي لتحقيق النصر وبعده بشرع الله ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾.
* أن يكون هدفي من الانتصار خدمة ديني لا خدمة نفسي، وانتصار منهج ربي لا منهجي الشخصي ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾.
* أن أزيد معدل الشكر والانكسار والتسبيح والاستغفار كلما زاد معدل الإنجاز والانتصار ﴿أَفۡوَاجٗا﴾.

للآية الثالثة:

* أن أبادر إلى الشكر والانكسار والتسبيح والاستغفار عقب كل انتصار «فَ».
* أن أعمل على ألا تشغلني الفرحة بالانتصار عن ربي الذي تفضل عليّ بالنصر ﴿رَبِّكَ﴾.
* أن أتحدث بنعمة الله عليّ بالنصر وأنسب الفضل إليه أمام الغير ﴿بِحَمۡدِ﴾.
* أن أجدد لله التوبة عقب كل انتصار؛ لأنني ربما أكون قد قصرت في واجبات ما بعد الانتصار في أمور كثيرة وأنا لا أشعر ﴿تَوَّابَۢا﴾.
* أن أستعد للموت وأعمل له، فقد يكون ذلك هو التمام الذي يعقبه نقصان.

الفرع الثالث

الحق السابع التدبر «التفكر في الحال والمآل»

(نتخير أهم وصايا السورة وهي «أن أبادر بالقيام بواجبات ما بعد النصر» ونتدبرها)

الدائرة الأولى: الإسقاط والتقييم (التفكر في الحال):

* **أين أنت** مما أوصت به السورة؟ ما مدى تطبيقك له؟ ما مدى حاجتك إليه؟

* **هل كنت تحصر الانتصارات والفتوحات** التي تتناولها السورة في الحروب فحسب، أم كنت تدرك أنها تشمل كل إنجاز في الحياة، حتى إنه قد يكون تعلم أمر أو آداءً لصلاة؟

* **كم مرة** أنجزت أمرا فزادك إعجابا وكبرا؟!!

* **هل كل إنجاز أو انتصار تحققه يزيدك انكسارا لله،** أم يعقبه إعجاب بنفسك؟

* **كم مرة** أنجز الله لك أمرا أو نصرك نصرا فاجتهدت في التحديث عن فضله لا عن نفسك؟

* **هل كل إنجاز أو انتصار يذكرك بالموت** ويزيدك اجتهادا للآخرة؟

* **هل إنجازاتك وانتصاراتك** تنتشر أم تنحسر؟

* **كم مرة** أردت إنجاز أمر ثم لم يتحقق، أما فكرت أن السبب ربما كان عدم مراعاتك لما أرشد الله إليه في هذه السورة؟

* **كم مرة** أنجزت أمرا ثم انحسر، بل اندثر؟! أما فكرت أن السبب ربما كان عدم مراعاتك لواجبات ما بعد النصر والإنجاز التي أرشد الله إليها في هذه السورة؟

* **كم مرة** انشغلت بالنصر عن النصير، وبالفتح عن الفتاح، وبالإنجاز عمن أنجز لك؟

* **تلك الإنجازات والانتصارات** التي امتن الله بها عليك، هل قمت بواجبات ما بعدها؟

* **ما هي** مساحة التسبيح والتحميد والاستغفار في حياتك؟

* **ما هو** قدر عنايتك بتجويد عبادات التسبيح والتحميد والاستغفار؟

* **هل كل إنجازات تكون لله**، ولرفعة دين الله؟

* **هل تراعي** فيما تنشده من إنجازات أن تتوفر فيه المعايير والمقاييس الشرعية للنصر؟

* **كم مرة** استولى على قلبك اليأس من الإنجاز أو الانتصار؟!

* **كم مرة** أوهمت نفسك بأنك أنجزت أو انتصرت ولم تكن كذلك؟!

* **كم مرة** كان الفتح المادي لك على حساب الفتح القلبي، فربحت بنيانا وخسرت إنسانا؟

* **نحتاج إلى أن نتفكر في حالنا، ونفسح المجال لهذه السورة لتقرأنا**؛ فتفتشنا وتفاتشنا، وتكشفنا وتكاشفنا، وتوقفنا على حقيقة حالنا؛ ونتعرف - من خلالها - على وضعنا الحالي؛ لندرك - على الحقيقة - أين نحن مما أوصت به؟

* **نحتاج إلى أن نَزِن حالنا بحال النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونُقَيِّم أنفسنا في ضوء هذين المعيارين:

الأول: (الحاجات)؛ هل نحن أحوج لما أوصت به سورة النصر أم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

الثاني: (الحواجز)؛ هل لدينا من الشواغل والصوارف والهموم أكثر مما كان لدى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

لا شك أننا أحوج لاتباع ما جاءت به سورة النصر؛ فنحن مقصرون غافلون، وشواغلنا – ولا شك – أقل من شواغل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورغم ذلك ما فَرَّط صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أوصاه الله به في هذه السورة رغم أنه كان على حال كاملة، بل اجتهد أن يزداد كمالا إلى كماله.

* **نحتاج إلى أن نعرض أنفسنا على هذه السورة،** ونعتبرها كالمرآة التي سنرى فيها مواطن الخلل التي لدينا، فنتعرف على الحالة الموجودة التي نحن عليها، والحالة المنشودة التي ينبغي أن نكون عليها.
* **فآمل أن تصنف نفسك،** فيما يتعلق بحجم استجابتك لما أوصى به الله في سورة النصر؛ لتحدد مشكلتك، وتعرف موقعك؛ وتتمكن من الوصول إلى الوجهة التي تريد.

الدائرة الثانية: التفكر في العواقب (الثمرات والمغبات «المآل»):

وذلك التفكر القلبي المنشود لا يكفي فيه مجرد معرفة العواقب، بل يكون بتحديد العواقب، ثم شهودها بالقلب ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾؛ فيتصور الإنسان كأن هذه العاقبة قد حَقَّت ووقعت، وهو ينظر إليها بعين قلبه بل ويعايشها كأنه فيها الآن؛ إنها نقلة قلب لحالة مستقبلية، واستحضار للحالة الشعورية التي سيكون عليها حينها؛ ليدرك العواقب والمآلات من الآن كأنما ينظر إليها بعين قلبه؛ فيتأثر قلبه ويتحرك رغبة أو رهبة؛ ويشعر بأهمية الوصية ويزداد إقباله عليها.

فمثلا: يحدد ما هي عاقبة الحرص على أداء النوافل؟ فيعرف أن منها (الفوز بمحبة الله)، فلا يكتفِ بالمعرفة فقط؛ لأنها لا تكفي في تحفيزه وزيادة دافعيته

وإقباله على النوافل ليأتي بها أكمل ما تكون، بل يبدأ تفكره القلبي بشهود تلك العاقبة، فيتصور نفسه كأن قد فاز الآن بمحبة الله له، ويعايش تلك الحالة كأنه فيها الآن، ويستحضر الحالة الشعورية التي سيكون عليها، كأنما ينظر بعين قلبه الآن إلى تلك العواقب الحسنة لمحبة الله له، فيجد من التأثر القلبي ما يزيده رغبة في الحرص على النوافل، ويشعره بأهميتها ويزيده إقبالا عليها.

فلو نجح الإنسان في التذكر (القلبي) يكون إن شاء الله قد نجح في التدبر، قال ربنا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، والطريق لحصول التذكر قد وصفه ربنا حين قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

والتذكر ينعقد لمن تولدت لديه الخشية أو الرهبة، والتدبر هو الذي يحرك القلب رغبةً بالتفكر في الثمرات، ورهبةً بالتفكر في المغبات؛ قال تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى: ٨ - ١٠].

ولا عجب لأن المرء إذا اجتهد في التدبر يتذكر، ويجد الأمر بداخله قد تيسر، قال ربنا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥ - ٧].

فالتدبر إنما يهدف إلى تحريك القلب، وزيادة الدافعية للاتباع؛ فقد ذكر الله عن المنافقين أنهم قد شق عليهم اتباع ما أوصى الله به في سورة محكمة من القتال في سبيل الله؛ رغم أنهم قد فهموا ما ينبغي عليهم فعله، ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ﴾ [محمد: ٢٠]. ثم ذكر أن السبب في ذلك وغيره من سلوكياتهم الفاسدة وضعف دافعيتهم واستثقالهم للطاعة، وهو أنهم لا يتدبرون القرآن ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

وقال الله تعالى لبعض خلقه: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [المؤمنون: ٦٦، ٦٧]، ثم ذكر سبب ذلك الخلل في الاتباع وكمال الانتفاع، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، فلو تدبروا، لتذكروا، وتطهروا.

۞ من ثمرات «المبادرة بالقيام بواجبات ما بعد النصر»:

- ثمرات متعلقة بنصره وإنجازه (مستويات الإنجاز)
  - سد الثغرات وإزالة الآفات
  - ثبات الإنجازات والانتصارات
  - زيادة الإنجازات ذاتها (الازدهار والانتشار)
  - انجازات أخرى مصاحبة (تسبيح - تحميد - استغفار)
  - انجازات أخرى خارجة عنها (إقبال عام على الطاعات)
- ثمرات متعلقة بشخصه
  - زيادة القرب من الله
  - الأمل والتفاؤل

■ ١. إكمال النقص الحاصل في ذلك الإنجاز أو الانتصار وسد الخلل المتعلق به:

فربما كان في الإنجاز تقصيرا أو نقصا من شأنه أن يحد أو يوقف مَدّ الإنجاز أو الانتصار، لكن ذلك يتبدد بالانكسار الناشئ عن التسبيح والتحميد والاستغفار.

فالنوافل تجبر النقص الحاصل في الفرائض، وقد شرع الله الانكسار، بالذكر والاستغفار، عقب العبادات الكبرى لوقايتها من الآفات والأخطار. ومن ذلك أن أول ما نقوله بعد الصلاة «أستغفر الله» ويعقبها تسبيحات وتحميدات وتكبيرات وتهليلات ودعوات.

■ ٢. المزيد من الانتصار والإنجاز ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾:

فقد قال الله: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧﴾ [إبراهيم: ٧]، فما يَمُن الله به عليك من إنجاز أو فتح أو انتصار، بشكره تحصل الزيادة والانتشار، وبكفره والتفريط في شكره يحدث الانحسار، بل ربما تلاه الاندثار.

وتأمل حال ذلك الذي لم يقم بواجبات ما بعد الإنعام والانتصار، بل أعقبه بالكفران والعناد والإصرار، ثم طمع في الزيادة والانتشار، يقول سبحانه عنه: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾ [المدثر: ١٥ – ١٧].

لكن الله قد زاد فضله وفاض أجره، على أولئك الذين أنجز لهم وفتح عليهم بنعمة القرآن، فقاموا بواجبات ما بعد هذا الإنجاز والإنعام، قال سبحانه يمدحهم ويبشرهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

٣. الدخول في زمرة المسبحين وما أعده الله لهم:

- **التسبيح سبب في تفريج الكروب:**

* **قال تعالى عن يونس** عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

- **التسبيح طريق لتحصيل الرضا والسعادة:**

* **قال تعالى:** ﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠]

- **كل تسبيحة بعشر أو عشرين حسنة، وتحط عشر أو عشرين سيئة:**

* عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فَقَالَ: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟»، فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: «يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، تُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ»[(١)].

* وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «... فَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ؛ كَتَبَ اللهُ لَهُ عِشْرِينَ حَسَنَةً، أَوْ حَطَّ عَنْهُ عِشْرِينَ سَيِّئَةً ...»[(٢)].

- **كل تسبيحة تمثل فرصة عتق من النيران، وتتسبب في أجر عتق رقبة:**

* عَنْ أُمِّ هَانِئٍ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَرَّ بِي ذَاتَ يَوْمٍ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ وَضَعُفْتُ وَبَدُنْتُ، فَمُرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ وَأَنَا جَالِسَةٌ، قَالَ: «سَبِّحِي اللهَ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَإِنَّهَا تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ رَقَبَةٍ تُعْتِقِينَهَا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ...»[(٣)].

٤. الدخول في زمرة الحامدين الشاكرين وما أعده الله لهم:

فلقد وَصَّى الله بالشكر بعد النعمة والإنجاز، فقال: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾ [الأنفال: ٢٦].

---

(١) صحيح مسلم (٣٧/ ٢٦٩٨)

(٢) رواه أحمد (٨٠٧٩)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (١٧١٨)

(٣) رواه أحمد (٢٦٩٥٦)، انظر الصَّحِيحَة (١٣١٦)

- بَشَّر الله الشاكرين بالجزاء الجزيل:

* قال تعالى: ﴿وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

- وَعَدَ الله الشاكرين بقبول الصالحات، والتجاوز عن السيئات، وسكنى الجنات:

* فقال تعالى عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾ [الأحقاف: ١٦].

- والشكر سبب للنجاة من العقوبة والعذاب:

* قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ٣٥﴾ [القمر: ٣٤، ٣٥].

- «الحمد لله» هي أفضل الدعاء والشكر:

* وَعَنْ جابر بْن عَبْد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الْحَمْدُ للهِ»، وفي رواية: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الشُّكْرِ: الْحَمْدُ للهِ»(١).

- التحميد سبب في امتلاء الميزان بالحسنات:

* عَنْ أَبِي مَالِك الْأَشْعرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالْحَمْدُ للهِ، تَمْلَأُ الْمِيزَانَ»(٢).

- وكل تحميدة تعدل أجر تجهيز فرس أكمل تجهيز والجهاد عليه في سبيل الله:

* وَعَنْ أُمِّ هَانِئٍ بِنْت أَبِي طَالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَرَّ بِي ذَاتَ يَوْمٍ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ وَضَعُفْتُ وَبَدُنْتُ،

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٨٣)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (١١٠٤)، الصَّحِيحَة (١٤٩٧).

(٢) صحيح مسلم (١/ ٢٢٣)، سنن ابن ماجه (٣٥١٧).

فَمُرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ وَأَنَا جَالِسَةٌ، قَالَ: «... وَاحْمَدِي اللهَ مِائَةَ تَحْمِيدَةٍ، تَعْدِلُ لَكِ مِائَةَ فَرَسٍ مُسْرَجَةٍ مُلْجَمَةٍ تَحْمِلِينَ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللهِ ...»(1).

- **وكل تحميدة تستجلب ثلاثين حسنة، وتحط ثلاثين سيئة:**

* **وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «... وَمَنْ قَالَ: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، كُتِبَتْ لَهُ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً، وَحُطَّ عَنْهُ ثَلَاثُونَ سَيِّئَةً»(2).

بعض ما تقدمه لنا (سبحان الله وبحمده):

- **الفوز بمحبة الرحمن، وتثقيل الميزان (أحب الكلام إلى الله):**

* **وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»(3).

* **وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْكَلَامِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟ قَالَ: «مَا اصْطَفَاهُ لِمَلَائِكَتِهِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، ثَلَاثًا تَقُولُهَا»(4).

* **وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»(5).

---

(١) رواه أحمد (٢٦٩٥٦)، وهو في السنن الكبرى للنسائي (٩/ ٣١١)، انظر: الصَّحِيحَة (١٣١٦).
(٢) رواه أحمد (٨٠٧٩)، وصححه الأرناؤوط، وانظر: صَحِيح الْجَامِع (١٧١٨).
(٣) متفق عليه: البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (٣١/ ٢٦٩٤).
(٤) صحيح مسلم (٨٤/ ٢٧٣١).
(٥) السنن الكبرى للنسائي (١٠٦٨٥)، انظر: الصَّحِيحَة (٢٥٩٨).

- **جبران وتعويض النقصان الحاصل في أمهات العبادات:**

❊ وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ هَالَهُ اللَّيْلُ أَنْ يُكَابِدَهُ، وَبَخِلَ بِالْمَالِ أَنْ يُنْفِقَهُ، وَجَبُنَ عَنِ الْعَدُوِّ أَنْ يُقَاتِلَهُ، فَلْيُكْثِرْ أَنْ يَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ جَبَلِ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ يُنْفَقَانِ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»(١).

- **غراسٌ يستجلب لنا غراس نخل في الجنة:**

❊ وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»، وفي رواية: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»(٢).

- **حَطُ الخطايا وغفرانها:**

❊ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»(٣).

- **خاتم يستجلب لنا القبول، ويستنزل لنا المغفرة:**

❊ وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، فَقَالَهَا فِي مَجْلِسِ ذِكْرٍ، كَانَتْ كَالطَّابَعِ يُطْبَعُ عَلَيْهِ، وَمَنْ قَالَهَا فِي مَجْلِسِ لَغْوٍ، كَانَتْ كَفَّارَةً لَهُ»(٤).

---

(١) رواه الطبراني (٨/ ١٩٤)، وصححه الألباني في صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب (١٥٤١).

(٢) رواه الترمذي (٣٤٦٤)، والبزار (٢٤٦٨)، وصححه الألباني في صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب (١٥٣٩، ١٥٤٠).

(٣) متفق عليه: البخاري (٦٠٤٢)، مسلم (٢٨/ ٢٦٩١).

(٤) السنن الكبري للنسائي (٩/ ١٦٢)، والدعاء للطبراني (١/ ٥٣٧) والمعجم الكبير (٢/ ١٣٨)، والمستدرك علي الصحيحين للحاكم (١/ ٧٢٠)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (٦٤٣٠)، الصَّحِيحَة (٨١).

- **مفتاح الخير والرزق والبركة:**

* عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إِنَّ نَبِيَّ اللهِ نُوحًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لابْنِه: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ، آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنِ اثْنَتَيْنِ، آمُرُكَ بلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعْنَ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ، لَرَجَحَتْ بِهِنَّ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً لَقَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنْهَاكَ عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ»[1].

بعض ما تقدمه لنا «سبحان الله والحمد لله» معا:

- **برهان إجلال لله، ومعراجٌ للفوز بذكر الله لنا دوما برضوانه ورحمته:**

* عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللهِ، مِنْ تَسْبِيحِهِ وَتَحْمِيدِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَهْلِيلِهِ، يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، تُذَكِّرُ بِصَاحِبِهَا، أَلَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ لَا يَزَالَ لَهُ عِنْدَ اللهِ شَيْءٌ يُذَكِّرُ بِهِ؟»[2].

- **طريق سهل للفوز بمحبة الله لنا وما يترتب عليها من خير:**

* عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ»[3].

---

(١) رواه أحمد (٦٥٨٣)، وصححه الألباني والأرناؤوط.

(٢) رواه أحمد (١٨٣٨٨)، وابن ماجه (٣٨٠٩)، انظر: الصَّحِيحَة (٣٣٥٨).

(٣) صحيح مسلم (١٢/ ٢١٣٧)

- **فضل وأجر، وخير وَبر، أفضل من الدنيا وما فيها:**

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»[(١)].

- **غراس يغرس الله لنا به شجرا في الجنة:**

* عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»[(٢)].

* وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مَرَّ بِهِ وَهُوَ يَغْرِسُ غَرْسًا، فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا الَّذِي تَغْرِسُ؟»، قُلْتُ: غِرَاسًا لِي، قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى غِرَاسٍ خَيْرٍ لَكَ مِنْ هَذَا؟»، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «قُلْ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، يُغْرَسْ لَكَ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ»[(٣)].

- **امتلاء ميزان الحسنات بما يعادل مساحة وحجم السماوات والأرض وما بينهما:**

* عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، تَمْلَآنِ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، وفي رواية: «وَالتَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ، يَمْلَأُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ»[(٤)].

---

(١) صحيح مسلم (٣٢/ ٢٦٩٥)

(٢) رواه الترمذي (٣٤٦٢)، وأحمد (٢٣٥٩٨)، انظر: الصَّحِيحَة (١٠٥).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٨٠٧)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (٢٦١٣).

(٤) صحيح مسلم (١/ ٢٢٣)، سنن ابن ماجه (٣٥١٧).

* وَعَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَخٍ بَخٍ خَمْسٌ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ، يُتَوَفَّى لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فَيَحْتَسِبُهُ»(١).

- **الوقاية والستر من النار:**

* وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خُذُوا جُنَّتَكُمْ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مِنْ عَدُوٍّ حَضَرَ؟ قَالَ: «لَا، بَلْ مِنَ النَّارِ»، قُلْنَا: مَا جُنَّتُنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُقَدِّمَاتٍ، وَمُعَقِّبَاتٍ، وَمُجَنِّبَاتٍ، وَهُنَّ (وفي رواية: مِنَ) الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ»(٢).

- **تكفير الخطايا والسيئات:**

* عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِشَجَرَةٍ يَابِسَةِ الْوَرَقِ، فَضَرَبَهَا بِعَصَاهُ فَتَنَاثَرَ الْوَرَقُ، فَقَالَ: إِنَّ سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، تَنْفُضُ الْخَطَايَا كَمَا تَنْفُضُ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا»(٣).

* وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، كُفِّرَتْ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»(٤).

---

(١) رواه أحمد (١٥٧٠٠، ١٨١٠١)، وابن حبان (٨٣٣)، انظر: الصَّحِيحَة (١٢٠٤).

(٢) السنن الكبرى للنسائي (١٠٦٨٤)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (٣٢١٤)، الصَّحِيحَة (٣٢٦٤).

(٣) رواه الترمذي (٣٥٣٣)، وأحمد (١٢٥٥٦)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (١٦٠١).

(٤) رواه أحمد (٦٩٥٩) إسناده حسن، لكن اختلف في رفعه ووقفه، والوقف أصح، انظر: صَحِيح الْجَامِع (٥٦٣٦).

■ ٥. الدخول في زمرة المستغفرين والتائبين وما أعده الله لهم:

* فقد دعا الله تعالى عباده إلى الاستغفار، وَرَغَّبَهم فيه، وَوَعَدَهم بأن يغفر لهم مغفرة لا تخطر لهم على بال؛ فعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «قال الله: يا ابن آدم، إنَّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أُبالي! يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عَنان (سحاب) السماء ثمَّ اسْتغفرتني غفرت لك ولا أُبالي! يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب (ما يقارب ملأها) الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا؛ لأتيتك بقرابها مغفرةً!»[(١)].

* وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قال إبليسُ: وعَزَّتك لا أبرح أُغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال: وعِزَّتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما اسْتغفروني»[(٢)].

وليس هذا فحسب، بل إن سبحانه قد طَالَبَنَا بالمسابقة والمسارعة في الاستغفار، فقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

- الفوز بالمغفرة خير من الدنيا وما فيها:

* قال تعالى: ﴿لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧].

- بَشَّرَ اللهُ المستغفرين بجنات تجري من تحتها الأنهار:

* فقد قال الله عن المستغفرين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٤/ ٣١٥)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٣١)، وهو في سنن الترمذي (٥/ ٥٤٨)، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٢٧٠).

(٢) رواه أحمد (١٧/ ٣٣٧) وحسنه الأرناؤط، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٩٠)، وانظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٢٧٠).

﴿مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٦].

- **ووعد الله المستغفرين بالعيش الطيب في الدنيا والآخرة:**

* **ففي الحديث:** «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا»(١). وَعَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسُرَّهُ صَحِيفَتُهُ، فَلْيُكْثِرْ فِيهَا مِنَ الاسْتِغْفَارِ»(٢).

- **الاستغفار يستجلب صنوفا من خيرات وبركات السماء والأرض:**

* **فقال تعالى:** ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

- **الاستغفار يزيد قوة الإنسان:**

* **قال تعالى:** ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: ٥٢].

- **الاستغفار يُنَقِّي القلب ويُقوِّيه، ويحميه من الران:**

* **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ هُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾»(٣).

* (نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ) وَالنُّكْتَةُ: أَثَرٌ قَلِيلٌ كَالنُّقْطَةِ، شِبْهُ الوَسَخِ فِي المِرآةِ والسَّيفِ،

---

(١) سنن ابن ماجه (٢/ ١٢٥٤)، الدعاء للطبراني (١/ ٥٠٦)، وانظر: صَحِيح الْجَامِع (٣٩٣٠).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٢/ ١٥٢)، والطبراني في الدعاء (١/ ٥٠٦)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (٥٩٥٥)، الصَّحِيحَة (٢٢٩٩).

(٣) رواه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وانظر: صَحِيح الْجَامِع (١٦٧٠).

ونحوهما، مِنَ النكْتِ وهو في الأصل أن تضرب في الأرض بقضيب فيؤثر فيها[١]. وشَبَّه تأثر النفس باقتراف الذنوب بالنكتة السوداء من حيث إنهما يضادان الجلاء والصفاء[٢].

* **(صُقِل قلبه) أي:** صقلت الملائكة قلبه وأذهبت ما فيه من الأثر[٣]. وصَقلَه جلَّاه ... والمعنى نَظُفَ وَصَفِيَ مِرْآةُ قَلْبِهِ، لِأَنَّ التَّوْبَةَ بِمَنْزِلَةِ الْمِصْقَلَةِ تَمْحُو وَسَخَ الْقَلْبِ وَسَوَادَهُ حَقِيقِيًّا أَوْ تَمْثِيلِيًّا[٤]. وَالْحَمْلُ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَوْلَى مِنْ جَعْلِهِ مِنْ بَابِ التَّمْثِيلِ وَالتَّشْبِيهِ حَيْثُ قِيلَ: شَبَّهَ الْقَلْبَ بِثَوْبٍ فِي غَايَةِ النَّقَاءِ وَالْبَيَاضِ، وَالْمَعْصِيَةَ بِشَيْءٍ فِي غَايَةِ السَّوَادِ أَصَابَ ذَلِكَ الْأَبْيَضَ، فَبِالضَّرُورَةِ أَنَّهُ يَذْهَبُ ذَلِكَ الْجَمَالُ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ الْإِنْسَانُ إِذَا أَصَابَ الْمَعْصِيَةَ صَارَ كَأَنَّهُ حَصَلَ ذَلِكَ السَّوَادُ فِي ذَلِكَ الْبَيَاضِ[٥].

* **(وَإِنْ زَادَ) أَيْ:** فِي الذَّنْبِ أَيْ: بِعَيْنِهِ أَوْ بِغَيْرِهِ مِنَ الذُّنُوبِ (زَادَتْ) أَيِ النُّكْتَةُ السَّوْدَاءُ أَوْ يَظْهَرُ لِكُلِّ ذَنْبٍ نُكْتَةٍ (حَتَّى تَعْلُوَ) أَيِ: النُّكَتُ (قَلْبَهُ) أَيْ: تُطْفِئُ نُورَ قَلْبِهِ فَتُعْمِي بَصِيرَتَهُ، فَلَا يُبْصِرُ شَيْئًا مِنَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ وَالْحِكَمِ الرَّائِعَةِ، وَتَزُولُ عَنْهُ الشَّفَقَةُ وَالرَّحْمَةُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى سَائِرِ الْأُمَّةِ، وَيَثْبُتُ فِي قَلْبِهِ آثَارُ الظُّلْمَةِ وَالْفِتْنَةِ وَالْجَرَاءَةِ عَلَى الْأَذِيَّةِ وَالْمَعْصِيَةِ[٦].

- **الاستغفار أمان من العذاب والمخاطر، وتعويض للخسائر:**

* **فقال تعالى:** ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١١٤)، مرعاة المفاتيح (٨/ ٤٢).
(٢) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (٦/ ١٨٤٨)، مرقاة المفاتيح (٤/ ١٦٢٢).
(٣) التنوير شرح الجامع الصغير (٣/ ٥١٠).
(٤) مرعاة المفاتيح (٨/ ٤٢).
(٥) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٦٢٢).
(٦) شرح المصابيح لابن الملك (٣/ ١٤٥)، مرقاة المفاتيح (٤/ ١٦٢٢).

* وَعَنْ أَبِي يَسَارٍ زَيْدٍ مَوْلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ»، وفي رواية: «مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ثَلَاثًا، غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ، وَإِنْ كَانَ فَارًّا مِنَ الزَّحْفِ»[1].

- **وبلغ من بركة الاستغفار أن الاستغفار للغير باب عظيم من أبواب الحسنات الهائلة:**

* عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً»[2].

٦. زيادة الإقبال على الطاعة والخير ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧﴾:

حيث يتحرر الإنسان من إعجابه بنفسه الذي يقعده ويحرمه التوفيق، ويدرك العبد أنه حتى وإن أحسن فلا زال مدينا وبحاجة إلى الإحسان، فيفرغ من طاعة وينصب في أخرى.

وبذلك يكون المسلم أكثر الناس استفادة من الإنجاز؛ فيضيف إلى إنجازه إنجازات أخرى بتعبده وقيامه بواجبات ما بعد النصر، وبذلك يضيف إلى مكاسب النصر مكاسب عبادات آخرى، كالتوبة والشكر والاستغفار وتزكية النفس، ثم يترتب على ذلك أن يكرمه الله بإنجاز آخر.

٧. القرب من الرب والتعلق به:

فالقيام بواجبات ما بعد النصر والإنجاز يزيد العبد لربه حبا ومنه قربا، قال

(١) رواه الترمذي (٣٥٧٧)، وأبو داود (١٥١٧)، والحاكم (٢٥٥٠)، انظر: الصَّحِيحَة (٢٧٢٧).

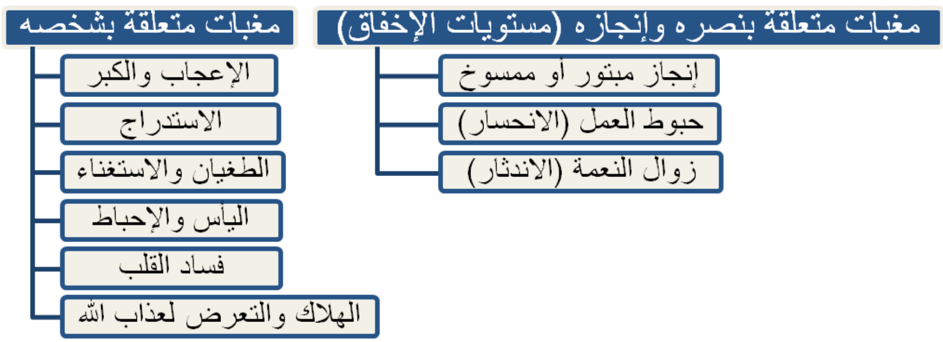
(٢) مسند الشاميين للطبراني (٢١٥٥)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (٦٠٢٦).

تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢].

٨. التفاؤل والأمل:

فالإنجازات والانتصارات ترفع همته وتزيد من عزيمته وتشجعه على مواصلة الإنجاز والتحرر من أسر العجز والكسل والابتزاز.

- **من مغبات التقصير في «تحقيق النصر الكامل»:**



١. **الإعجاب بالنفس والكبر (الاغترار والافتخار):** فمن أخطر ما يهدد الإنسان بعد الإنجاز هو الإعجاب بنفسه؛ لأنه يهلك العبد، ويوقفه عن مواصلة الإنجاز، وفي الحديث: «**فَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ: فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ**»(١).

٢. **الاستدراج:** فلما غفل عن أداء واجبات ما بعد النصر، يفتح الله له استدراجا، ولا يزال الله يملي له حتى إذا أخذه لم يفلته، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا

(١) الزهد لأبي داود (١/ ١٠١)، جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٦٨)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (٣٠٣٩)، صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب (٥٣).

﴿ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ۝٤٤﴾ [الأنعام: ٤٤].

عَنْ حُمَيْضَةَ بِنْتِ يَاسِرٍ، عَنْ جَدَّتِهَا يُسَيْرَةَ - وَكَانَتْ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ - قَالَتْ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا نِسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ عَلَيْكُنَّ بِالتَّهْلِيلِ، وَالتَّسْبِيحِ، وَالتَّقْدِيسِ (أَيْ: قَوْلِ سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ أَوْ سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ) وَلَا تَغْفُلْنَ (أي: عن الذكر) فَتَنْسَيْنَ الرَّحْمَةَ، وَاعْقِدْنَ بِالْأَنَامِلِ، فَإِنَّهُنَّ مَسْئُولَاتٌ، مُسْتَنْطَقَاتٌ»(١).

قَالَ الْقَارِي: «وَالْمُرَادُ بِنِسْيَانِ الرَّحْمَةِ نِسْيَانُ أَسْبَابِهَا، أَيْ: لَا تَتْرُكْنَ الذِّكْرَ، فَإِنَّكُنَّ لَوْ تَرَكْتُنَّ الذِّكْرَ لَحُرِمْتُنَّ ثَوَابَهُ فَكَأَنَّكُنَّ تَرَكْتُنَّ الرَّحْمَةَ. قَالَ تَعَالَى ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ [البقرة: ١٥٢] أَيْ بِالطَّاعَةِ ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢] أَيْ بِالرَّحْمَةِ»(٢).

٣. **الطغيان والاستغناء عن الله**: قال الله: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ [الليل: ٨ - ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦، ٧].

٤. **الإصابة بالإحباط واليأس**: من جراء تكرار الإخفاق؛ لأن النصر لم يؤد صاحبه واجبات ما بعده، فلا يتكرر إلا استدراجا.

٥. **فساد القلب وانشغاله عن الله**: بالهم والغم والأحزان.

٦. **الهلاك والتعرض لعذاب الله**: فقد مر بنا أن الإعجاب واحد من المهلكات، وأن التفريط في الشكر يستوجب العذاب.

٧. **أن يكون النصر مبتورا وقاصرا وممسوخا**، ولن يؤدى دوره في الحياة.

---

(١) رواه أحمد (٢٧١٣٤)، والترمذي (٣٥٨٣)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (٤٠٨٧).

(٢) تحفة الأحوذي (٨/ ٤٨٠).

٨. **حبوط العمل**: فالإعجاب بالنفس، ونسيان فضل الرب يحبط أعمال الإنسان.

٩. **زوال النعمة**: فإن من سنة الله أن من لم يؤد شكر نعمة يعرض نفسه لتبديدها وتبديلها.

بعض المخرجات الوجدانية لتدبر الوصية

إذا أحسن المسلم تفهم وصية الله له وتدبرها جيدا؛ فإنه يجد لذلك أثرا في قلبه، ويفيض ذلك الأثر على وجدانه، بل وكل كيانه.

* **فيشعر بنعمة الله عليه** ورحمته به حين نبهه إلى وجهة النصر ومعاييره ومكملاته.
* **ويشعر بالتقصير** في واجبات ما بعد الانتصار، فهناك الكثير من الانتصارات والنجاحات التي ربما تكون يومية ورغم ذلك يغفل عن واجباتها.
* **ويشعر بضرورة** المواظبة على التوبة والافتقار والشكر والانكسار، فالنجاحات والانتصارات أكثر من أن تحصى، فهي من أمثلة نِعَمه وكرمه سبحانه الذي لا يُحد ولا يُعد، يكفي انتصارا أنه أنعم على العبد بأنه لا زال يعبده ويوحده.
* **ويشعر بالأمل والتفاؤل** ولا يستصعب أو يستبعد نصرًا أو نجاحًا بعد ذلك أبدا.
* **ويشعر بالندم** على غفلته عن تدبر هذ السورة العظيمة؛ لأن تدبرها كان سيوفر كثيرا من الوقت ويسدد الكثير من الجهد.
* **ويشعر بالندم** على نظرته السطحية السابقة لتلك السورة؛ حين كان يتصور أنها تناقش فقط فتح مكة، وأنها رسالة خاصة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
* **ويشعر بعظمة القرآن،** ففي تلك العبارات الموجزات، يلخص ويبين قضية من أعظم المهمات.
* **ويزداد إحساسه** بأهمية الشكر والانكسار والتسبيح والاستغفار ولا سيما عقب الانتصار.

* **ويشعر أن** الحفاظ على النصر لا يقل أهمية عن السعي لتحقيقه إن لم يكن أهم.

* **ويشعر أنه** ليس المهم أنني انتصرت أم لا؟ المهم هل هذا النصر هو الأرضى لله أم لا؟

* **ويشعر بالندم** على تلك الفترة التي كان يتخبط فيها بحثًا عن النجاح والنصر.

* **ويشعر بالفرح**؛ لأن الله هداه لتدبر هذه السورة.

الأسماء والصفات التي تجلت في الآيات

القرآن كلام الله، وأكثر ما تكلم عنه القرآن هو (الله)، وأعظم ما يقدمه القرآن للإنسان أن يُعَرِّفَه بالله، وأهم ما ينبغي أن يخرج به الإنسان من تدارس القرآن أن يزداد ارتباطا بالرحمن، وهذا هو المقصد الأكبر للقرآن، تأسيس وتكميل وتدعيم الإيمان، وخصوصا الإيمان بالله.

لذا فإنه ما ينبغي أن نتدارس آية أو سورة إلا ونتوقف مع ما جاء فيها من أسماء وصفات وقفة لائقة؛ فنستخرج الاسم أو الصفة، ونفهم المعنى، ونستخرج آثار ذلك الاسم في السورة أو الآية، ونتفكر في تلك الآثار، ونشهد منة الله وعظمته، وقوته ورحمته، وعزته وقيوميته.

فإن كل اسم ذُكِر في آية أو سورة، تكون تلك الآية أو السورة بمثابة شرح لذلك الاسم، وإبراز لآثاره وسماته المميزة.

بقي أن نقول: إن تدارس الأسماء والصفات، من أقوى المحفزات، ومن أكثر ما يدفع الإنسان للاستجابة للآيات.

إننا حين نتأمل في الآيات من زاوية الأسماء والصفات، نجدها تتحدث عن شواهد وآثار لأسماء الله وصفاته على صفحات «التاريخ المأثور» (نصر الله لنبيه والفتوحات التي امتن بها عليه)، كما تتحدث عن شواهد وآثار أخرى على صفحات «التشريع المسطور» (التوصية بواجبات ما بعد النصر وما في ذلك من الحكمة والرحمة والنعمة والعظمة).

ومن الأسماء والصفات التي تجلت في هذه السورة:

١ . **النصير**: حيث نصر رسولنا ومَكَّن له في الأرض.

٢. **الفتاح**: حيث فتح لرسولنا من أبواب الخير وفتح عليه مكة وغيرها.

٣. **السبوح**: الذي تنزه عن النقائص، ويستحق التسبيح.

٤. **الحميد**: الذي يستحق المحامد كلها على ذاته وصفاته.

٥. **التواب**: فهو الذي يفتح لعباده باب التوبة، ويدعوهم إليها، ويقبلها منهم دوما.

٦. **الودود**: الذي تودد إلينا بإرشادنا لما يحفظ علينا الإنجازات والانتصارات.

٧. **الرحيم**: الذي رحمنا من الغفلة عن واجبات ما بعد الإنجازات فهدانا لما ينبغي فعله.

الفرع الرابع

الحق الثامن (الاتباع)

أولا: الخطة التشغيلية للتزكي بالسورة



أولا: التزكية (تطهيرا وتطويرا):

■ **التطهير:**

نُعِدُ سجلا (للمنجزات)، ونبدأه بتحديد ثلاثة منجزات في حياتنا لم نقم بواجبات ما بعدها، فنتوب إلى الله ونستغفره من تقصيرنا، ونبدأ في القيام بواجبات ما بعدها.

التطوير (١): نقوم بتحديد شيء كنا قد يئسنا من إنجازه، ثم نبدأ في السعي لإنجازه، بنفسية جديدة مع مراعاة مقومات النصر التي جاءت في السورة، وانتواء القيام بواجبات ما بعد الإنجاز، فنقوم بوضع خطة للنجاح والنصر، ونستعين بالوحي لإرشادنا إلى: «الوجهة، الهدف، معايير ومقاييس النصر، واجبات ما

بعد النصر (المكملات أو المثبتات)».

التطوير (٢): صلاة الضحى أو النوافل كلون من ألوان الواجبات العملية التي قام بها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد النصر. ففي الصحيحين أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**صَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ سُبْحَةَ الضُّحَى**»[(١)] يوم فتح مكة.

فإذا اعتبرنا صلاة الضحى تسبيحا - وقد كانت تُسَمَّى «**سُبْحَةَ الضحى**» - على القول الذي يُفَسِّر التسبيح بصلاة النافلة، يكون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد سَبَّح بحمد ربه عند النصر أو الفتح أو الإنجاز (ذكرا وصلاة)، بل لقد أتم ما وصاه الله به بالاستغفار والتوبة؛ فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الضُّحَى ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**»، حَتَّى قَالَهَا مِائَةَ مَرَّةٍ[(٢)].

التطوير (٣): الاجتهاد في العمل للآخرة استعدادا للموت، وقصر الأمل (نتعبد عبادة مودِّع، ولنبدأ «**بصلاة مودِّع**»). روي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، قَالَ: نُعِيَتْ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفْسُهُ حِينَ أُنْزِلَتْ، فَأَخَذَ فِي أَشَدِّ مَا كَانَ اجْتِهَادًا فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ[(٣)].

التطوير (٤): نكثر من التسبيح والتحميد والاستغفار في أكبر قدر ممكن من المواطن؛ فقد صح عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تسبيحه وتحميده واستغفاره قد زاد بشكل بارز بعد نزول السورة.

---

(١) متفق عليه: البخاري (١/ ٨١)، (١١٠٤)، ومسلم (١/ ٤٩٨).

(٢) الأدب المفرد (ص٢١٧)، وصححه الألباني؛ وليس في الحديث ما يحدد زمن ذلك (قبل نزول السورة أم بعدها؟).

(٣) السنن الكبرى للنسائي (١٠/ ٣٤٩)، المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٣٢٨)، المطالب العالية لابن حجر (١٢/ ٢٨٨)، الأحاديث المختارة للمقدسي (١٢/ ٢٩١)، قال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣/ ١٧٢): «أما حديث هلال بن خباب؛ فحسن الإسناد».

* فَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ قَبْلَ مَوْتِهِ أَنْ يَقُولَ: «سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِه، أَسْتَغْفِرُ الله، وَأَتُوبُ إِلَيْه» قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ لَتُكْثِرَ مِنْ دُعَاءٍ، لَمْ تَكُنْ تَدْعُو بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «إِنَّ رَبِّي جَلَّ وَعَلَا أَخْبَرَنِي أَنَّهُ سَيُرِينِي عِلْمًا فِي أُمَّتِي، فَأَمَرَنِي إِذَا رَأَيْتُ ذَلِكَ الْعِلْمَ أَنْ أُسَبِّحَهُ، وَأَحْمَدَهُ، وَأَسْتَغْفِرَهُ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُهُ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، فَتْحُ مَكَّةَ»[1].

* وعَنْ عَبْدِ الله (ابن مسعود)، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي»، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، قَالَ: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ»[2].

ويُستحب أن يأتي بعد الصيغ المأثورة المخصوصة في هذا المقام بالصيغ الجامعة المأثورة مطلقا:

١) فَعَنْ ابْنِ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عِنْدِ جُوَيْرِيَةَ، بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: «مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟»، قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِه، عَدَدَ خَلْقِه، وَرِضَا نَفْسِه، وَزِنَةَ عَرْشِه، وَمِدَادَ كَلِمَاتِه»، وفي رواية: «سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِه، سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِه، سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِه، سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِه»[3].

---

(١) صحيح ابن حبان (١٤/ ٣٢٣) وصححه الألباني والأرناؤوط.

(٢) مسند أحمد (٧/ ٧) وحسنه شعيب الأرناؤوط.

(٣) صحيح مسلم (٧٩/ ٢٧٢٦).

٢) فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَآنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا أُحَرِّكُ شَفَتَيَّ فَقَالَ: «مَا تَقُولُ يَا أَبَا أُمَامَةَ؟»، قُلْتُ: أَذْكُرُ اللهَ، قَالَ: «أَفَلا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ أَوْ أَفْضَلُ مِنْ ذِكْرِكَ اللَّيْلَ مَعَ النَّهَارِ، وَالنَّهَارَ مَعَ اللَّيْلِ؟ أَنْ تَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ، وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ مَا خَلَقَ، وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ مَا فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَتَقُولُ: الْحَمْدُ للهِ مِثْلَ ذَلِكَ»، ثُمَّ قَالَ: «تُعَلِّمُهُنَّ عَقِبَكَ مِنْ بَعْدِكَ»(١).

٣) وَعَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ رَجُلٌ: الْحَمْدُ للهِ كَثِيرًا، فَأَعْظَمَهَا الْمَلَكُ أَنْ يَكْتُبَهَا، وَرَاجَعَ فِيهَا رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقِيلَ لَهُ: اكْتُبْهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي كَثِيرًا»(٢).

٤) وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أُقِيمَتْ الصَّلَاةُ، فَجَاءَ رَجُلٌ يَسْعَى، فَانْتَهَى وَقَدْ حَفَزَهُ النَّفَسُ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الصَّفِّ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ للهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ قَالَ: «أَيُّكُمُ الْمُتَكَلِّمُ بِالْكَلِمَاتِ؟»، فَسَكَتَ الْقَوْمُ، فَقَالَ: «أَيُّكُمُ الْمُتَكَلِّمُ بِهَا؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ بَأْسًا؟»، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، أَسْرَعْتُ الْمَشْيَ، فَانْتَهَيْتُ إِلَى الصَّفِّ، وَقَدْ حَفَزَنِي النَّفَسُ، فَقُلْتُهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ اثْنَيْ عَشَرَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَرْفَعُهَا»، وفي رواية: «لَقَدِ ابْتَدَرَهَا اثْنَا عَشَرَ مَلَكًا، فَمَا دَرَوْا كَيْفَ يَكْتُبُونَهَا حَتَّى سَأَلُوا

(١) رواه الطبراني (٧٩٣٠)، وابن حبان (٨٣٠)، انظر: الصَّحِيحَة (٢٥٧٨)

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٠٦١)، انظر: الصَّحِيحَة (٣٤٥٢)

رَبَّهُمْ عَزَّوَجَلَّ؟ فَقَالَ: اكْتُبُوهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي»[١].

٥) وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[٢].

٦) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ»[٣].

ثانيا: تعاهد التزكية (الربط الواقعي):

بما أن إنجاز (الصلاة) هو أكبر إنجاز يومي، نضع في مكان الصلاة بالمنزل ورقة مكتوب عليها «وصية سورة النصر الرئيسية»، أو عبارات تذكرنا مثل: «الصلاة (إنجاز كبير) تعامل معه كما لو كان آخر إنجاز لك، ولا تغفل عن أداء واجبات ما بعده».

وإذا تأملت في أذكار (ما بعد الصلاة) التي نرددها تجدها تدور في فَلَك ما أوصتنا به سورة النصر، وتذكرنا به على الأقل خمس مرات في اليوم والليلة بذلك ليكون منهجية لنا في التعامل مع أي نصر أو إنجاز، فأول ما نبدأ به بعد الصلاة (الاستغفار)، ثم نجد في تلك الأذكار (التسبيح، والتحميد). أما صلاة الفريضة في حد ذاتها فقد كانت (تسبيحا)، فإذا تنفلت بصلاة بعد الفريضة كانت (تسبيحا) أيضا.

---

(١) صحيح مسلم (١٤٩/ ٦٠٠)، ورواه أحمد (١٢٠٥٣، ١٣٠١١)، وأبو داود (٧٦٣)، وانظر: الصحيحة (٣٤٥٢).

(٢) متفق عليه: البخاري (٦٠٣٥)، ومسلم (٧٠/ ٢٧١٩).

(٣) صحيح مسلم (٢١٦/ ٤٨٣).

وكأن صلاة الفريضة، وهي من أحب الأعمال إلى الله، وما تلاها من استغفار وتجديد للتوبة وتسبيح وتحميد، كانت توسلات إلى الله بالأعمال الصالحة؛ ليعين العبد على أن يدوم على القيام بواجبات ما بعد النصر من الذكر والشكر وحُسن التعبد.

ولعلنا إن استحضرنا ذلك، ندرك مدى حاجتنا لما كان يردده رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد الصلاة من أذكار، بل وندرك أهمية الوصية التي وَصَّى بها معاذا حين قال: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ... أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدَعَنَّ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: (اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ)**»(١).

أضف إلى ما سبق أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نزلت عليه سورة النصر ربطها بالصلاة، فتأول منها دعاءً جعله في ركوعه وسجوده، ولما حصل له الفتح النصر جعل من واجبات ما بعد النصر أن يزيد في الصلاة، فصلى الضحى ثماني ركعات(٢)، رغم أن أغلب صلاته لها كانت أربعا.

لذا تَذَكَّر دوما سورة النصر مع الصلاة، واستحضر كم هو فتح كبير فتحه الله عليك أن أكرمك بالصلاة، واعتبر صلاتك وما بعدها قياما بواجبات لإنجازات وانتصارات يمن الله بها عليك في يومك، ما لا تعرفه منها أكبر بكثير مما تعرفه.

ثالثا: الاستعانة على التزكية (التفاعل بدعائي المسألة الثناء):

* **كان رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بعد نزول السورة** يواظب على التسبيح والتحميد والاستغفار؛ يقول ابن حجر: «كَانَ يُوَاظِبُ عَلَى ذَلِكَ دَاخِلَ

---

(١) رواه أحمد (٣٦/ ٤٣٠) وصححه الأرناؤط، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٠٧)، وانظر: صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ (١٥٩٦).

(٢) صحيح البخاري (٢/ ٤٦).

الصَّلَاةِ وَخَارِجَهَا وَفِي رِوَايَةِ مَنْصُورٍ بَيَانُ الْمَحَلِّ الَّذِي كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِيهِ مِنَ الصَّلَاةِ وَهُوَ الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ»[١].

* **ففي الركوع والسجود كان يقول:** «سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»، وفي رواية: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»، وفي رواية: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» ثَلَاثًا، ولعل السياق الأخير هو الأتم داخل الصلاة.

* **أما في خارج الصلاة،** فَوَرَدَ أنه كان يقول: «سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»، وفي رواية: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِه، أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»، وفي رواية: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ».

وإليكم جملة من النصوص الدالة على ما سبق:

١) **عَنْ عَائِشَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: مَا صَلَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١] إِلَّا يَقُولُ فِيهَا: «سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»[٢].

٢) **وجعل استجابته في الركوع والسجود تحديدا،** فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا، وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ»[٣]. و«يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ» أَيْ: يُفَسِّرُهُ، وَيَعْمَلُ بِهِ[٤]، فيستخرج ما توصي به الآيات ويمتثله[٥].

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٢/ ٢٩٩)

(٢) صحيح البخاري (٦/ ١٧٨)

(٣) صحيح البخاري (٦/ ١٧٨).

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٩/ ١٤١).

(٥) ولقد ذهب معظم العلماء إلى أن المراد امتثله أو عمل به أو فعل المأمور أو نَفَّذه أو طَبَّقَه. انظر: فتح الباري=

قال ابن رجب: «فتأويل القرآن، تارة يراد به تفسير معناه بالقول، وتارة يراد به امتثال أوامره بالفعل»[(١)] .

وقال الطيبي: «لما أُمِرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ صَدَّقَه بفعله. وأظهر ما يقتضي مآل أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الامتثال، وحصول المأمور به»[(٢)].

وقال النووي: «وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ هَذَا الْكَلَامَ الْبَدِيعَ فِي الْجَزَالَةِ الْمُسْتَوْفِي مَا أُمِرَ بِهِ فِي الْآيَةِ وَكَانَ يَأْتِي بِهِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ لِأَنَّ حَالَةَ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهَا فَكَانَ يَخْتَارُهَا لِأَدَاءِ هَذَا الْوَاجِبِ الَّذِي أُمِرَ بِهِ لِيَكُونَ أَكْمَلَ»[(٣)].

٣) **بل كان يكثر من ذلك خارج الصلاة أيضا؛** فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ «**سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**»[(٤)]. وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»[(٥)]. وفي رواية: كَانَ

= لابن حجر (٢/ ٢٩٩)، فيض الباري على صحيح البخاري (٢/ ٣٨٨)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٢/ ١٢٢)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٧٠٩)، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ١٨٦)، نيل الأوطار (٢/ ٢٨٦)، حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١/ ٢٨٩)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٦/ ٩٥)، حاشية السيوطي على سنن النسائي (٢/ ٢١٩)، شرح أبي داود للعيني (٤/ ٨٧)، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (١/ ٣١٦)، عون المعبود وحاشية ابن القيم (٣/ ٩٢)، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٧/ ٢٢٣)، تطريز رياض الصالحين (ص١٠٠)، شرح سنن أبي داود، عبد المحسن العباد (١/ ٦).

(١) فتح الباري لابن رجب (٧/ ٢٧٢).

(٢) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (٣/ ١٠١٤).

(٣) شرح النووي على مسلم (٤/ ٢٠١).

(٤) صحيح مسلم (٢/ ٥٠).

(٥) صحيح مسلم (٢/ ٥٠).

رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ قَبْلَ مَوْتِهِ أَنْ يَقُولَ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»[1].

٤) **ولقد اشتهر ذلك الأمر عنه حتى رواه غير واحد من الصحابة،** فعَنْ عَبْدِ اللهِ (ابن مسعود)، قَالَ: لَمَّا أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، كَانَ يُكْثِرُ إِذَا قَرَأَهَا وَرَكَعَ أَنْ يَقُولَ «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» ثَلَاثًا[2]. وفي رواية: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي»، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، قَالَ: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ»[3].

بل وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستخدم نفس المنهجية في مواطن أخرى بعد إنجازات كثيرة؛ وفي أوراد الصباح والمساء، ولا ندري هل كان بعد نزول السورة أم قبلها؟ لكنه يفتح آفاقا لتعميم تلك المنهجية على كل إنجاز، وإن اختلفت الألفاظ.

١) **فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:** مَا جَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجْلِسًا قَطُّ، وَلَا تَلَا قُرْآنًا، وَلَا صَلَّى صَلَاةً إِلَّا خَتَمَ ذَلِكَ بِكَلِمَاتٍ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَاكَ مَا تَجْلِسُ مَجْلِسًا، وَلَا تَتْلُو قُرْآنًا، وَلَا تُصَلِّي صَلَاةً إِلَّا خَتَمْتَ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، مَنْ قَالَ خَيْرًا خُتِمَ لَهُ طَابَعٌ عَلَى ذَلِكَ الْخَيْرِ، وَمَنْ قَالَ شَرًّا كُنَّ لَهُ كَفَّارَةً: سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»[4].

(١) صحيح ابن حبان (١٤/ ٣٢٣) وصححه الألباني والأرناؤوط.
(٢) مسند أحمد ط الرسالة (٦/ ٢٠٧) وحسنه شعيب الأرناؤوط.
(٣) مسند أحمد ط الرسالة (٧/ ٧) وحسنه شعيب الأرناؤوط.
(٤) السنن الكبرى للنسائي (٩/ ١٢٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧/ ٤٩٥)، والوادعي في الجامع (٢/ ١٢٨).

٢) **وكان ﷺ إذا أتاه الأمر يسُرّه (أو يحبه) قال:** «**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**». وإذا أتاه الأمر يكرهه (أو يسؤوه) قال: «**الحمد لله على كل حال**»(١).

٣) **وكان ﷺ يقول:** «**إذا أصبحَ أحدُكم فليقُلْ: (أصبحنا وأصبَحَ المُلكُ لله ربِّ العالمين، اللَّهُمَّ إني أسألك خيرَ هذا اليوم فتحَهُ ونصرَهُ ونورَهُ وبركتَهُ وهُدَاه، وأعوذ بك من شرِّ ما فيه وشرِّ ما بعدَهُ)، ثم إذا أمسى فليقُلَ مثلَ ذلك**»(٢).

وذلك منه ﷺ يُعَدُ امتثالا لما أوصت به السورة واتباعا له، وهو ما وصفته أمنا عائشة بقولها «يتأول السورة»، لكنه في ذات الوقت يُمَثِّل استخداما منه ﷺ لذلك الدعاء في الاستعانة على ما أوصت به السورة من تزكية عملية تتجاوز مسألة تأول دعاء واستخدامه في السجود والركوع في الصلاة، وإلا فقد صح عنه كما سيأتي أنه أكثر من التسبيح والتحميد مطلقا.

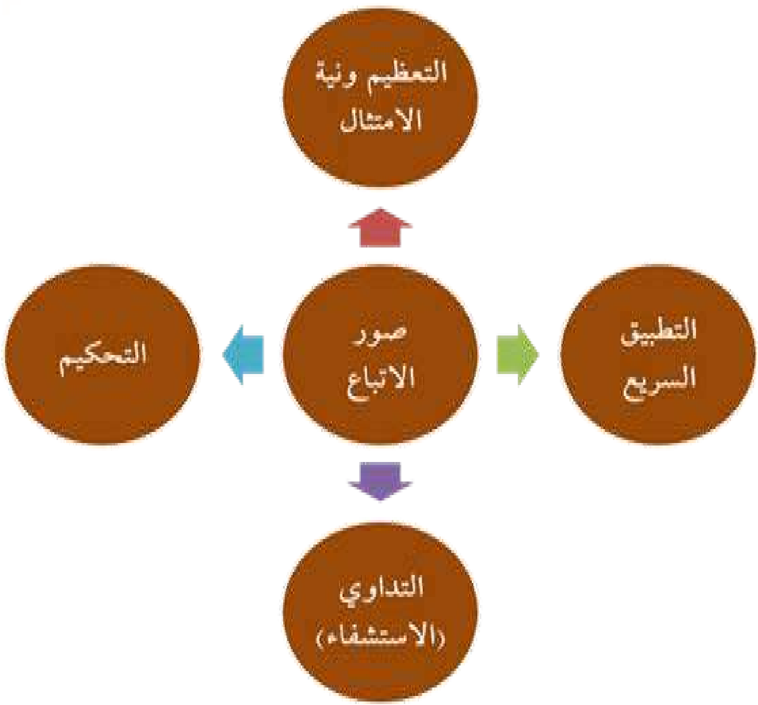
---

(١) سنن ابن ماجه (٢/ ١٢٥٠)، مسند البزار (٢/ ١٦٦)، وانظر: صحيح الجامع (٤٦٤٠).

(٢) سنن أبي داود (٧/ ٤١٧)، وصححه الأرنؤوط.

ثانيا: صور الاتباع

* **التعظيم ونية الامتثال، والمسارعة بالتطبيق.**
* **التحكيم:** في خضم ذاك الاختلاف حول ماهية النصر وسبل تحقيقه ومعاييره، تأتى سورة النصر لتحكم بيننا بحكم الله في المسألة وتحسم القضية .
* **التداوى:** سورة النصر ترياق لكل من كانت لديه مشكلة مع النصر، سواء كان لا يتحقق أم يتحقق مبتورًا أم يتحقق ولا يستمر.



الفرع الخامس

الحق التاسع (التعليم)، الحق العاشر (الدعوة)

* **لم تنته حقوق السورة بعد،** فلا نريد للخير أن يقف عند أحد لذا لا بد من تعليم (معاني ومباني) هذه السورة وغيرها بطريقة العلم والعمل كما فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

* **قال** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَيْرُكُمْ (وفي رواية: إِنَّ أَفْضَلَكُمْ) مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[1].

* **قال ابن تيمية**: «دَخَلَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**» تَعْلِيمُ حُرُوفِهِ وَمَعَانِيهِ جَمِيعًا؛ بَلْ تَعَلُّمُ مَعَانِيهِ هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَوَّلُ بِتَعْلِيمِ حُرُوفِهِ وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي يَزِيدُ الْإِيمَانَ»[2].

* **وعلينا أن ندعو لطريقة العلم والعمل في التعامل مع القرآن،** وأن ندعو لما دعت إليه ووصت به هذه السورة المباركة وغيرها.

* **قال سبحانه:** ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾ [الشورى: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٣٩﴾ [الأحزاب: ٣٩].

(١) صحيح البخاري (١٧/ ٢٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٠٣).

المبحث الثالث

أهل سورة النصر (النماذج الواقعية)

أولا: النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

لقد تدبر السورة جيدا، ولكثرة معايشته للخطاب القرآني تفهما وتدبرا واتباعا، أدرك ما تشير إليه الآيات وتحمله في طياتها من تهيئة له وإشارة لقرب مفارقته للدنيا. عن ابن عباس قال: لما نزلتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نُعيتْ إليّ نفسي**»، بأنه مقبوض في تلك السنَة[(١)].

لقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهو يعلم ذلك، ولم يُذنِب قط، وكان يستغفر في اليوم الواحد أكثر من مئة مرة[(٢)]، ويستغفر في الصباح الواحد مئة مرة[(٣)]، بل يستغفر في المجلس الواحد أكثر من مئة مرة[(٤)]، بل كان يعمل أعمالا حرية بتكفير أي ذنب، ورغم كل ذلك لما أوصاه الله بالتوبة والاستغفار، لم يتأخر، ولم يَرَ نفسه غير محتاج إليه، بل امتثل ما طلبه الله منه بحرفه، وعَمَّر يومه كله بالتسبيح والتحميد والاستغفار.

رغم أن بعض المفسرين فَسَّر ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾ بقوله: «ذَلِكَ تَنْبِيهٌ لِأُمَّتِهِ، لِكَيْلَا يَأْمَنُوا وَيَتْرُكُوا الِاسْتِغْفَارَ. وَقِيلَ: وَاسْتَغْفِرْهُ أَيِ اسْتَغْفِرْ لِأُمَّتِكَ»[(٥)].

لم يشغله الفتح والانتصار، عن الانكسار والاستغفار، والمسارعة في مرضاة الواحد القهار. فماذا نقول نحن؟! غفرانك ربنا، واسوءتاه وإن عفوت!

---

(١) مسند أحمد (٢/ ٤٣٥) وصححه الشيخ أحمد شاكر.

(٢) صحيح مسلم (٢٧٠٢).

(٣) السنن الكبري للنسائي (٩/ ١٦٧)، الدعاء للطبراني (١/ ٥١٠)، انظر: صَحِيح الْجَامِع (٥٥٣٤).

(٤) رواه أحمد (٨/ ٣٥٠) وصححه الأرناؤوط، وانظر: الصَّحِيحَة (٥٥٦).

(٥) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٣)، تفسير أبي السعود (٩/ ٢٠٩).

قال القرطبي: «وَإِذَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ مَعْصُومٌ يُؤْمَرُ بِالِاسْتِغْفَارِ، فَمَا الظَّنُّ بِغَيْرِهِ؟!»(١).

فاستجاب للوصية في كل صلاة؛ فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: مَا صَلَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١] إِلَّا يَقُولُ فِيهَا: «**سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**»(٢).

وجعل استجابته في الركوع والسجود تحديدا، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا، وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ**»(٣).

بل كان يكثر من ذلك خارج الصلاة أيضا؛ فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ: (**سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**). قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَرَاكَ أَحْدَثْتَهَا تَقُولُهَا؟ قَالَ: (**جُعِلَتْ لِي عَلَامَةٌ فِي أُمَّتِي إِذَا رَأَيْتُهَا قُلْتُهَا** ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾) إِلَى آخِرِ السُّورَةِ»(٤).

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**». قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَاكَ تُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ. فَقَالَ: «**خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي فَإِذَا رَأَيْتُهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ. فَقَدْ رَأَيْتُهَا** ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] فَتْحُ مَكَّةَ ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٣).
(٢) صحيح البخاري (٦/ ١٧٨).
(٣) صحيح البخاري (٦/ ١٧٨).
(٤) صحيح مسلم (٢/ ٥٠).

﴿يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر: ٢، ٣]»[1].

وفي رواية: «وَأَمَرَنِي إِذَا رَأَيْتُهَا أَنْ أُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ وَأَسْتَغْفِرَهُ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا، فَقَدْ رَأَيْتُهَا»[2].

وفي رواية: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ قَبْلَ مَوْتِهِ أَنْ يَقُولَ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ» قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ لَتُكْثِرُ مِنْ دُعَاءٍ، لَمْ تَكُنْ تَدْعُو بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «إِنَّ رَبِّي جَلَّ وَعَلَا أَخْبَرَنِي أَنَّهُ سَيُرِينِي عِلْمًا فِي أُمَّتِي، فَأَمَرَنِي إِذَا رَأَيْتُ ذَلِكَ الْعِلْمَ أَنْ أُسَبِّحَهُ، وَأَحْمَدَهُ، وَأَسْتَغْفِرَهُ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُهُ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١]، فَتْحُ مَكَّةَ»[3].

ولقد اشتهر ذلك الأمر عنه حتى رواه غير واحد من الصحابة، فَعَنْ عَبْدِ اللهِ (ابن مسعود)، قَالَ: لَمَّا أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، كَانَ يُكْثِرُ إِذَا قَرَأَهَا وَرَكَعَ أَنْ يَقُولَ «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» ثَلَاثًا[4].

وفي رواية: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي»، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، قَالَ: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ»[5].

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ٥٠).

(٢) مسند أحمد ط الرسالة (٤٠/ ٧٦) وصححه الأرناؤوط.

(٣) صحيح ابن حبان (١٤/ ٣٢٣) وصححه الألباني والأرناؤوط

(٤) مسند أحمد ط الرسالة (٦/ ٢٠٧) وحسنه الأرناؤوط.

(٥) مسند أحمد ط الرسالة (٧/ ٧) وحسنه الأرناؤوط.

لقد تعامل رسولنا الكريم مع السورة أكمل تعامل بالعلم والعمل:

١) **فتفهم** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الآيات وما تشير إليه بمنطوقها ومفهومها (من نعيه واقتراب أجله).

٢) **ثم حَوَّل** ما فهمه من السورة إلى وصايا عملية (أَنْ أُسَبِّحَهُ، وَأَحْمَدَهُ، وَأَسْتَغْفِرَهُ).

٣) **ثم أسقط** الآيات على نفسه (فَقَدْ رَأَيْتُهَا).

٤) **وما هرب مما تشير إليه وتدل عليه** (من نعيه واقتراب أجله)، بل تفكر في عاقبة الاستجابة لماتوصي به (فالحياة أوشكت على الانتهاء، ولا بُدَّ أن يكون ختامها حسنا).

٥) **فبادر بالاستجابة** قولا وعملا لما أوصت به من خلال خطة تشغيلية.

- فدعا متوسلا بالأسماء الحسنى التي استخرجها من السورة (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أستغفرك اللهم وأتوب إليك، إنك أنت التواب الرحيم).
- ونَزَّه ربه؛ فأكثر من التسبيح والتحميد والاستغفار.
- وربط السورة واقعيا بأكبر إنجاز يومي وهو الصلاة؛ فكان يستخدم ما أوصت به السورة من دعوات وتنزيهات في الركوع والسجود.
- وأكثر من صلاة النوافل كالضحى وغيرها؛ فقد صلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم فتح مكة ثماني ركعات[(١)].
- واجتهد في العمل للآخرة والتعبد عبادة مودع؛ فقد روي عَنِ ابْنِ

---

(١) متفق عليه: البخاري (١/ ٨١)، (١١٠٤)، ومسلم (١/ ٤٩٨).

عبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ [النصر: ١] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، قَالَ: نُعِيَتْ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفْسُهُ حِينَ أُنْزِلَتْ، فَأَخَذَ فِي أَشَدِّ مَا كَانَ اجْتِهَادًا فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ(١).

۞ ثانيا: موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

أكرمه الله واصطفاه لدعوة الحق، فسأل الله أن يرزقه مَنْ يعينه على القيام بواجبات ما بعد ذلك الإنعام، ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤﴾ [طه: ٢٩ - ٣٤].

۞ ثالثا: يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

في اللحظة التي تم له فيها كل شيء، وتحققت رؤياه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾.

وفي هذه اللحظة نزع يوسف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه من الصفاء والعناق والفرحة والابتهاج ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر.

كل دعوته وهو في أبهة السلطان وفي فرحة تحقيق الأحلام: ﴿۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: ١٠١].

وهنا يتوارى الجاه والسلطان، وتتوارى فرحة اللقاء وتجمع الأهل ولمة

---

(١) السنن الكبرى للنسائي (١٠/ ٣٤٩)، المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٣٢٨)، المطالب العالية لابن حجر (١٢/ ٢٨٨)، الأحاديث المختارة للمقدسي (١٢/ ٢٩١)، قال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣/ ١٧٢): «أما حديث هلال بن خباب؛ فحسن الإسناد».

الإخوان، ويبدو المشهد الأخير مشهد إنسان فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه، وأن يلحقه بالصالحين عنده من فضله ومَنِّه وكرمه[١].

رابعًا: سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ:

لما نصره الله وفتح له ورأى عرش ملكة سبأ مستقرا عنده قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، وكان كلما رأى فتحا أو إنجازا أنجزه الله له، يقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

خامسا: زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ:

لما أنعم الله عليه بنصر وإنجاز، وَصَّاه بالانشغال بالذكر الكثير والتسبيح، ويقول سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٤١﴾ [آل عمران: ٤١]، فاستجاب لوصية ربه، ووَصَّى قومه، فقال: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾ [مريم: ١١].

سادسا: الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتدارسون سورة النصر ويتدبرونها:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: «إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ».

قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ قَالَ: وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ...﴾ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩٧).

اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نَدْرِي، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾، فَذَاكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا. قَالَ عُمَرُ: «مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ»[1].

وفيما سبق دليل صريح على أن الصحابة كانوا يعقدون مجالس لتدارس معاني القرآن، ليس فقط لتدارس حروفه، بل كانت تلك المجالس لتدبر آيات الكتاب العزيز، ويحضرها صغار السن من الصحابة.

وتأمل كيف كانت قدرتهم على فهم المعاني المباشرة وغير المباشرة (الإشارية المنضبطة)، وكيف استخرجوا منها الوصايا العملية.

قال ابن حجر: «وَفِيهِ جَوَازُ تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ بِمَا يُفْهَمُ مِنَ الْإِشَارَاتِ وَإِنَّمَا يَتَمَكَّنُ مِنْ ذَلِكَ مَنْ رَسَخَتْ قَدَمُهُ فِي الْعِلْمِ»[2].

سابعا: سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لما نصره الله على الفرس وفتح عليه المدائن، استحضر ما أوصت به سورة العصر، فصلى شكرا لله، وكانت تسمى «صلاة الفتح».

(١) صحيح البخاري (٥/ ١٤٩).
(٢) فتح الباري لابن حجر (٨/ ٧٣٦).

الختام التعزيزي (الاستمرارية)

وفي الختام نُبَشِّركم!:

قد أصبح الطريق الآن أمامكم ممهدا؛ لتحققوا حلمكم في أن تكونوا من أهل القرآن المؤمنين به؛ لتحققوا حلمكم الأكبر في أن تكونوا من أهل الله.

أبشروا - إن تفهمتم وتدبرتم واتبعتم وصايا السورة - بالدخول في زمرة أهلها (من الدرجة الثالثة «التمرة»)، ولن يكون من الصعب عليكم - إن شاء الله - أن تتقنوا ضبط مبانيها وتحفظوها رواية (تستظهروها)، بل ربما تكونوا قد ضبطموها وحفظتموها بالفعل، وبذلك تدخلون في زمرة أهلها (من الدرجة الثانية «الأترجة»).

ولا تتوقفوا عند هذا الحد؛ فلن يكون من الصعب عليكم - إن شاء الله - أن تُعَلِّموا ما تعلمتموه من معاني ومباني السورة لغيركم ولو لشخص واحد، وتُبَلِّغوا رسالة الله؛ لتدخلوا في زمرة أهل السورة (من الدرجة الأولى «خيركم أو الرباني»).

أبشروا إن فعلتم السابق بأن تكون السورة حجة لكم، وبأن تكونوا قد صرتم من أصحابها وحامليها والمؤمنين بها؛ فقد وفيتموها حقوق معانيها (الإيمان) وحقوق مبانيها (القرآن)، ووفيتموها حقوقها العلمية والعملية، وتدارستموها على أكمل وأتم صورة.

أبشروا لقد شققتم لأنفسكم طريقا للوصول إلى (مرتبة أهل القرآن)، وقد قطعتم مرحلة في رحلة التحقق بهذا الوصف الشريف، فأكملوا المسير، وأوصيكم بالخطوات التعزيزية التالية، وهي ضرورية لتقييد تلك النعمة التي امتن الله بها علينا، وتنميتها وتطويرها.

وهي مجموعة أمور ورد في الشريعة ما يدل على أنه يستحب فعلها بعد العمل؛ مثل:

١. **التعاهد التربوي (العملي):** ويتم ذلك من خلال الربط الواقعي والاستدعاء العملي.

٢. **الدعاء والتضرع:** تضرع إلى الله أن يعينك على القيام بحقوق القرآن عليك كاملة، وأن يجعلك أسعد الناس به وأن ينفعك بما جاد به عليك.

٣. **الشكر والذكر:** اشكر الله على ما من به عليك، واسأله العون على شكر نعمته والقيام بحقها.

عَنْ عَائِشَةَ: مَا جَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجْلِسًا قَطُّ، وَلَا تَلَا قُرْآنًا، وَلَا صَلَّى صَلَاةً إِلَّا خَتَمَ ذَلِكَ بِكَلِمَاتٍ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَاكَ مَا تَجْلِسُ مَجْلِسًا، وَلَا تَتْلُو قُرْآنًا، وَلَا تُصَلِّي صَلَاةً إِلَّا خَتَمْتَ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، مَنْ قَالَ خَيْرًا خُتِمَ لَهُ طَابَعٌ عَلَى ذَلِكَ الْخَيْرِ، وَمَنْ قَالَ شَرًّا كُنَّ لَهُ كَفَّارَةً: سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**»(١).

وهذه سنة مهجورة تختم بها التلاوة، فقد بوب النسائي باب «ما تختم به التلاوة» وأورد هذا الحديث، وفي هذه السُّنَّة غنية عما استحدثه الناس من التزام قول «صدق الله العظيم» بعد التلاوة.

٤. **الاستغفار على التقصير:** قيل ليوسف بن أسباط: إذا قرأت القرآن بماذا تدعو؟ فقال: «أستغفر الله عَزَّوَجَلَّ من تقصيري سبعين مرة»(٢).

---

(١) السنن الكبرى للنسائي (٩/ ١٢٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧/ ٤٩٥)، والوادعي في الجامع (٢/ ١٢٨).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٨).

٥. **الإقرار بالفضل لله وحده:** فلا حول ولا قوة إلا بالله.

٦. **اطرد العجب:** اسأل الله أن يصرف عنك العجب والرياء والغرور وكل صور نقص التجرد.

٧. **طلب القبول:** اسأل الله أن يتقبل هذا العمل منك على قصوره، وأن يعود عليك بالفضل ثانية.

٨. **العزم على إكمال المسيرة:** بتطبيق المشروع على كل آيات القرآن.

٩. **القيام بالقرآن والصلاة به ليلا:** قم بالقرآن وَصَلِّ به ليلا، وإلا كانت شفاعته لك مهددة، ففي الحديث: «**وَإِذَا قَامَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ فَقَرَأَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ذَكَرَهُ وَإِذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ نَسِيَهُ**»[(١)].

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي ربي إني منعته الطعام والشهوة، فشفعني فيه، ويقول القرآن: رب منعته النوم بالليل، فشفعني فيه، قال: فُيشَفَّعَان**»[(٢)].

١٠. **تجنب المعاصي والمخالفات:** عَنِ الضَّحَّاكِ، قَالَ: «مَا تَعَلَّمَ رَجُلٌ الْقُرْآنَ، ثُمَّ نَسِيَهُ إِلاَّ بِذَنْبٍ»، ثُمَّ قَرَأَ الضَّحَّاكُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، ثُمَّ قَالَ: «وَأَيُّ مُصِيبَةٍ أَعْظَمُ مِنْ نِسْيَانِ الْقُرْآنِ»[(٣)]. وقال ابن مسعود: «إِنِّي لَأَحْسَبُ الْعَبْدَ يَنْسَى الْعِلْمَ كَانَ يَعْلَمُهُ بِالْخَطِيئَةِ يَعْمَلُهَا»[(٤)].

---

(١) صحيح مسلم (٥/ ١٩٨)

(٢) رواه أحمد (١١/ ١٩٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٤٠)، انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٢٣٨).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٧٨)

(٤) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص٦١)

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا رأيت من نفسك إعراضا عن شيء من دين الله، أو رأيت إعراضا عن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، إما عن تلاوته اللفظية، أو تلاوته المعنوية (التدبر)، أو تلاوته العملية (الاتباع)، فإنه يجب عليك أن تعالج نفسك، واعلم أن سبب هذا الإعراض هو المعاصي»[(١)].

(١) تفسير سورة المائدة (١/ ٤٨٣)

الخاتمة

قد كانت هذه الدراسة محاولة لتفعيل ما قمتُ بتأصيله سابقا في مشروعي (القرآن علم وعمل) فيما يتعلق بالمنهجية النبوية في التعامل مع القرآن الكريم (علما وعملا)، وذلك لتقريبِ مسألة فهم القرآن وتدبره والعمل به والقيام بحقوقه والانتفاع الكامل به.

وقد وقع اختياري فيها على سورة (النصر) كسورة مشتهرة سهلة التناول قصيرة المباني عظيمة المعاني؛ وأردت مساعدة المسلمين على الانتفاع الكامل بالسورة (علما وعملا)، واتخاذها كمثال يحتذونه في هذا الطريق؛ فاجتهدتُ في التأصيل العلمي لما يتعلق بمباحثها من ناحية التفسير وعلوم القرآن، لكن ما رَكَّزت عليه هذه الدراسة هو تَناول تلك المباحث في إطار مقاصدي عملي، مع التأكيد على انعكاساتها العملية والتطبيقية، والعناية الأكبر بالمسائل التي تخدم الفهم والتدبر والتطبيق بصورة مباشرة.

كما تم عقد مباحث تطبيقية تفصيلية لما يتعلق بتدبر السورة واتباعها والقيام بحقوقها كاملة.

وقد أثبتت هذه الدراسة قابلية (منهج العلم والعمل) للتطبيق على سور القرآن الكريم، وأن سُنَّة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حافلة بالآفاق التدبرية والتطبيقية المتعلقة بالآيات والسور القرآنية، وأن التعامل النبوي مع القرآن قد كان أعمق وأكمل من مجرد القيام بحقوق المباني من القراءة والتجويد وحفظ الرواية. وأن السور قصيرة المباني كسورة النصر، قد ضَمَّنها الله أعظم المعاني التي يحتاجها الإنسان لإصلاح دنياه وأخراه.

لذا فإننا نوصي بالتالي:

١. **ضرورة اعتماد المنهج النبوي المتكامل في التعليم القرآني** (الإيمان والقرآن، والعلم والعمل) في مؤسسات التعليم القرآني، وتعميمه.

٢. **تدريب العاملين في مؤسسات التعليم القرآني** على أصول وقواعد المنهج النبوي في التعليم القرآني.

٣. **دعوة جماهير المسلمين** للعودة للمنهج النبوي في التعامل مع القرآن الكريم.

٤. **دعوة الباحثين إلى مزيد من الدراسات التطبيقية** حول سور وآيات القرآن الكريم؛ لتقريب مسألة تدبر القرآن والعمل به للمسلمين.

٥. **بذل قدر أكبر من العناية للسور والآيات التي يستخدمها المسلمون كثيرا،** ويكثر ترددهم لها في حياتهم اليوم؛ لأنها سهلة التناول، وتشتمل على كنوز يحتاج الناس لتقريبها لهم.

٦. **ضرورة تبصير المسلمين (تأصيلا وتفعيلا)** بضرورة مطالعة السُّنَّة النبوية لمطالعة الآفاق التدبرية والتطبيقية للسور والآيات القرآنية؛ والتأكيد على أن تدارس السورة لا ينبغي أن يقتصر على ما جاء في كتب التفسير؛ لأن ذلك يؤدي غرض (التدارس العلمي)، لكن يبقى التدارس العملي (تدبرا واتباعا) هو الأهم.

٧. **الشروع في تفسير تدبري تطبيقي للقرآن كاملا؛** يرتكز على منهجية العلم والعمل.

المصادر والمراجع

١. «**أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**». الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر. (د. ط)، بيروت - لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٢. «**إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام**». ابن دقيق العيد. (د. ط)، مطبعة السنة المحمدية، (د. ت).

٣. «**إحياء علوم الدين**». الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي. (د. ط)، بيروت: دار المعرفة، (د. ت).

٤. «**إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**». القسطلاني، أبو العباس، شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القتيبي المصري. ط٧، مصر: المطبعة الكبرى الأميرية، ١٣٢٣هـ.

٥. «**اقتضاء العلم العمل**». الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط٤، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩٧هـ.

٦. «**التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)**». ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي. (د. ط)، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ هـ.

٧. «**الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)**». القرطبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (د. ط)، القاهرة: دار الكتب

المصرية، (د. ت).

٨. «**الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)**». ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد. ط١، المغرب: دار المعرفة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٩. «**السنن الكبرى**». النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني. تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

١٠. «**الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**». ابن أبي شيبة، أبو بكر عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي. تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط١، الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٠٩هـ.

١١. «**الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**». الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد. ط٣، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧ هـ.

١٢. «**القبس في شرح موطأ مالك بن أنس**». ابن العربي المالكي، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر المعافري الإشبيلي. تحقيق: الدكتور محمد عبد الله ولد كريم، ط١، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢م

١٣. «**المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**». ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ.

١٤. «**المعجم الكبير**». الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن

مطير اللخمي الشامي. تحقيق :حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط٢، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، (د. ت).

١٥. «**المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**». ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد. ط١، السعودية: دار العاصمة، دار الغيث، ١٤١٩هـ.

١٦. «**المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**». النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ.

١٧. «**الوابل الصيب من الكلم الطيب**». ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين. تحقيق: سيد إبراهيم، ط١، القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٩م.

١٨. «**تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة**». البيضاوي، القاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر. تحقيق: لجنة مختصة بإشراف نور الدين طالب، (د. ط)، الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

١٩. «**تفسير القرآن العظيم**». ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي. تحقيق: سامي بن محمد سلامة، (د. ط) (د. ن) (د. ت).

٢٠. «**تفسير الماوردي (النكت والعيون)**». الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي. تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، (د. ط)، بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، (د. ت).

٢١. «تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)». أبو السعود العمادي، محمد بن محمد بن مصطفى، (د. ط)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت).

٢٢. «تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)». محمد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني. (د. ط)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٢٣. «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان». السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله. تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٢٤. «حاشية السندي على سنن ابن ماجه (كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه)». السندي، محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين، (د. ط)، بيروت: دار الجيل، (د. ت).

٢٥. «روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)». ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي. جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، ط١، المملكة العربية السعودية: دار العاصمة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢٦. «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني». الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني. تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

٢٧. «زاد المسير في علم التفسير». ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي. تحقيق: عبد الرزاق المهدي،

ط١، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٢هـ.

٢٨. «**سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**». الألباني، أبوعبد الرحمن محمد ناصر الدين. (د. ط)، الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، (د. ت).

٢٩. «**سنن الترمذي**». الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك. تحقيق: بشار عواد معروف، (د. ط)،بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠م.

٣٠. «**شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن)**». الطيبي، شرف الدين الحسين بن عبد الله. تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، ط١، مكة المكرمة / الرياض: مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٣١. «**شرح صحيح البخارى لابن بطال**». ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك. تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط٢، السعودية - الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٣٢. «**صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**». أبو حاتم البُستي، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ التميمي الدارمي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٣٣. «**صحيح البخاري**». البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.

٣٤. «صَحِيحُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب». الألباني، محمد ناصر الدين.، ط١، المملكة العربية السعودية - الرياض: مكتَبَة المَعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٣٥. «صحيح الجامع الصغير وزياداته». الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين. (د. ط)، المكتب الإسلامي، (د. ت).

٣٦. «صحيح مسلم». مسلم ابن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (د. ط)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت).

٣٧. «عمدة القاري شرح صحيح البخاري». العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين، (د. ط)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت).

٣٨. «فتح الباري شرح صحيح البخاري». ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. (د. ط)، بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.

٣٩. «فتح القدير». الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله. ط١، دمشق - بيروت: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ١٤١٤هـ.

٤٠. «في ظلال القرآن». سيد قطب، ابن إبراهيم حسين الشاربي، ط١٧، بيروت- القاهرة: دار الشروق، ١٤١٢ هـ.

٤١. «فيض الباري على صحيح البخاري». محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي ثم الديوبندي. تحقيق: محمد بدر عالم الميرتهي، ط١، بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٤٢. «**لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف**». ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السَلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، (د. ط)، دار ابن حزم للطبع والنشر، (د. ت).

٤٣. «**مجموع الفتاوى**». ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني. تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (د. ط)، المملكة العربية السعودية - المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٤٤. «**مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ**». ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله. أشرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر، (د. ط) (د. ن) (د. ت).

٤٥. «**محاسن التأويل**». القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق. تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ.

٤٦. «**مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**». القاري، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي. ط١، بيروت - لبنان: دار الفكر، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٤٧. «**مسند الإمام أحمد بن حنبل**». الإمام أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني. تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، القاهرة: دار الحديث، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٤٨. «**نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**». البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر. (د. ط)، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، (د. ت).

٤٩. «**نيل الأوطار**». الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله. تحقيق: عصام الدين الصبابطي، ط١، مصر: دار الحديث، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

الفهرس

الموضـــــــــــــــــــــــوع	رقم الصفحة

مجلة تدبر



ثانيًا: مُستَخلَصاتُ الرّسَائِل والمَشَارِيعُ العِلْميّة



تقرير رسالة

تدبر القرآن الكريم

دراسة تأصيلية

الباحث / محمد بن عبد الجواد بن محمد الصاوي

المشرف: أ.د/ محمد بن عبد العزيز العواجي

- **الدرجة:** الدكتوراه.
- **الجهة المانحة للدرجة:** كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- **سنة الإجازة:** ١٤٣٦هـ.
- **الوصف المادي:** تقع في مجلدين، من (١٣٠٠) صفحة.

التعريف بالرسالة

تناولت الرسالة دراسة تأصيلية لموضوع تدبُّر القرآن الكريم.

❊ **تكون البحث من:** مقدمة، وثلاثة أبواب، وخاتمة، وفهارس.

❊ **فأما المقدمة ففيها:** خطبة الرسالة، والتعريف بالموضوع، وأهميته، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، والعقبات التي أحاطت به، وخطة البحث، ثم منهج كتابة البحث والشكر والتقدير.

❊ **ثم الباب الأول، وفيه بيان مفهوم التدبُّر، وأهميته، وحكمه، وتضمَّن ثلاثة فصول:**

- **الفصل الأول: حول معنى التدبر، وأركانه، وواجباته، وسننه. وفيه خمسة مباحث:**

  » الأول: مفهوم التدبُّر في اللغة والشرع.

  » والثاني: الفرق بين التدبُّر والتفسير.

  » والثالث: الفروق الدلالية بين التدبُّر وبين مرادفاته.

  » والرابع: عن أركان تدبُّر القرآن الكريم.

  » والخامس: عن واجبات التدبُّر وسننه.

- **ثم الفصل الثاني: عن أهمية التدبر، وتضمَّن ثمانية مباحث:**

  » الأول: أهداف قراءة القرآن الكريم.

  » والثاني: عناية السلف والعلماء بتدبُّر القرآن الكريم.

  » والثالث: علامات التدبُّر.

» والرابع: مقاصد التدبُّر وغاياته.

» والخامس: علاقة التدبُّر بالقلوب وأثره على الأبدان.

» والسادس: أمور متوقِّفة على تدبُّر القرآن وفَهم معانيه.

» والسابع: الآثار الإيجابية المترتبة على التدبُّر في حياة الفرد والأمة.

» والثامن: الآثار السلبية المترتبة على هجْر التدبُّر في حياة الفرد والأمة.

- ثم الفصل الثالث، وتضمَّن ثلاثة مباحث:

» الأول: أحكام التدبر.

» والثاني: أنواع التدبر.

» والثالث: درجات التدبر.

❋ وأما الباب الثاني فيتناول: وسائل التدبر، وشروطه، وموانع حصوله، وفيه فصلان:

- الفصل الأول: وسائل التدبر وشروطه، وفيه خمسة مباحث:

» الأول: أسباب تعين على تدبُّر القرآن الكريم.

» والثاني: أثر فهم اللغة في تحقيق التدبُّر الصحيح.

» والثالث: أثر فهم التفسير في تحقيق التدبُّر الصحيح.

» والرابع: أثر علوم القرآن في تحقيق التدبُّر الصحيح.

» والخامس: شروط التدبُّر.

- الفصل الثاني: موانع حصول التدبُّر وخطورتها، وفيه مبحثان:

» الأول: أنواع الموانع الحائلة عن التدبرّ.

» والثاني: خطورة الموانع الحائلة دون التدبُّر.

❊ وأما الباب الثالث، تناول ضوابط التدبر الصحيح للقرآن الكريم وطريقته، وفيه مدخل في دراسة الضوابط والقواعد المعينة على التدبُّر، وفصلان:

- الفصل الأول: ضوابط التدبُّر الصحيح لكتاب الله الكريم، وفيه خمسة مباحث:

» الأول: الضوابط المتعلِّقة بنزول القرآن المعينة على التدبُّر.

» والثاني: ضوابط علوم القرآن المعينة على التدبُّر.

» والثالث: الضوابط اللغوية المعينة على التدبُّر.

» والرابع: ضوابط الاستنباط المعينة على التدبُّر.

» والخامس: ضوابط عامة تعين على التدبُّر.

- - الفصل الثاني: أدوات التدبر الصحيح لكتاب الله الكريم وطريقته، وفيه مبحثان:

» الأول: الأدوات المهمَّة للمتدبِّر.

» والثاني: المنهج الأمثل للتدبُّر.

❊ ثم الخاتمة: وتضمنت أهمَّ النتائج والتوصيات، ثم ألحق البحث بفهارس عامة شملت: فهرس الآيات، والأحاديث، والآثار، والأشعار، والأعلام، والبلدان، والطوائف والفرق، والغريب، والمصادر والمراجع، ثم ختم بفهرس الموضوعات.

وقد تجاوزت صفحات الرسالة ألفًا وثلاثمائة صفحة والحمد لله.

مزايا الرسالة

من أبرز مزايا الرسالة ما يلي:

١ – تأصيل التدبر من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح وأحوالهم.

٢ – اشتملت الرسالة على قواعد مهمة تعين المتدبر على التدبر.

٣ – استقصاء أشهر ما كتب في التدبر وأقوال أهل العلم في الموضوع.

٤ – إبراز الجانب التطبيقي للتدبر بكثرة الأمثلة والشواهد القرآنية التي تعين المتدبر.

٥ – ربط التدبر بواقع المسلم، وماضيه وحاضره ومستقبله.

أبرز نتائج الرسالة:

وقد انتهى البحث بجملة من النتائج، استخلص الباحث أهمها:

١ – التعريف الذي اختاره للتدبُّر اصطلاحًا هو: التأمُّل والتفكُّر والنظر في الآيات، للاهتداء بما دلَّت عليه علمًا وعملًا.

٢ – تدبُّر القرآن هو الطريق إلى تفسيره، وفهم معانيه طريق لتدبُّره، وكل من سلك طريقًا وعمِل عملًا، وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه، فلا بد أن يفلح ويصل به إلى غايته، وكلما عظُم المطلوب تأكَّد ذلك.

٣ – مَن تدبَّر القرآن تدبُّرًا تامًّا تبينَ له اشتمالُه على بيان الأحكام، وأنَّ فيه من العلم ما لا يُدرِكه أكثرُ الناس، وهو إلهامات وفتوحات يفتحها الله تعالى على من يشاء من عباده .

٤- **إنَّ إدراك ووعي الناس لآيات القرآن يتفاوت تفاوتًا كبيرًا**، مع أنَّ الآية هي الآية يقرؤها هذا ويقرؤها هذا، وبينهما في عمق فهم الآية أو الجملة كما بين المشرقين.

٥- **القرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية**، إذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، لم يقاومه الداء أبدًا.

٦- **إنَّ المعنى المتدبَّر** هو الثمرة التي إذا صحَّت كانت محلًّا للقبول والعمل، وصحَّته مرهونة بالسلامة من العوارض التي تقدح فيه وتبطله.

٧- **فهم القرآن طريق وبوّابة للتّدبّر**؛ إذ لا تدبّر دون فهم، ولا خَيْر في قِراءةٍ لَيْس فيها تَدَبُّرٌ، وهذا الفهم تسبقه تلاوة صحيحة، وتمعُّن ونظر في كتاب الله تعالى.

٨- **أهم الوسائل الموصلة إلى التَّدبُّر هي**: فهْم النّصّ القرآنيّ، كما أنّ عدم فهم النّصّ القرآنيّ من أهمّ الموانع الصّارفة عن التَّدبُّر.

٩- **ضوابط التدبُّر** هي أمور تعين على فهم القرآن وتدبُّره وتفتح آفاقًا للمتدبِّر تربطه بالقرآن فهمًا وعملًا.

١٠- **القول بأنَّ تدبر القرآن العظيم وتفهمه لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة**، قول لا مستند له من دليل شرعي، والحق الذي لا شك فيه أن كل من له قدرة من المسلمين على التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة؛ يجب عليه التدبُّر.

١١- **للتدبُّر أنواع باعتبار العموم**، وباعتبار النصِّ المتدبَّر، وباعتبار تنوع مطالب المتدبِّرين.

١٢- **شروط التدبُّر** تختلف عن شروط التفسير والاستنباط، إنَّ التدبُّر يحتاج إلى فهم المعنى العام مع حسن القصد وصدق الطلب.

١٣- **ينبغي سماع آيات الله تعالى بتدبُّر وتفكُّر**، وهو سماع النبيِّين والمؤمنين، وأهل العلم والمعرفة

١٤- **ثمرة التدبُّر وغايته** أن يتحوّل الفهم والتَّدبُّر إلى التَّطبيق والعمل.

١٥- **ينبغي لمن أراد الانتفاع بالقرآن** أن يجعل القرآن خطابًا موجهًا إليه، وأن يقدِّر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن.

١٦- **لا يمكن الوقوف على كنوز القرآن إلا بسلوك طريق التدبُّر**؛ فبقدر ما يمنُّ الله عليه من تدبُّر كتابه يكون وقوفه على كنوزه، وظفره بها، وأي كنوز أحقُّ من أن يُبذَل في نيلها نفيس أوقات العمر من كنوز القرآن.

١٧- **من الآثار الإيجابية على الأمة لتدبُّر القرآن الكريم النهوض الحضاري بها**، ورجوعها إلى مركزها ومكانها الحقيقي بين الأمم، والارتقاء بها في ميادين الحياة كافة.

١٨- **من الأمور العظيمة** التي يحصل بها معرفة مقاصد الشريعة واستيعابها؛ تدبُّر القرآن الكريم، فالمقاصد تتضمن معنى معرفة مرامي الشريعة القريبة والبعيدة؛ ليتحقق الهدف من التشريع، وذلك يحتاج إلى حسن النظر في عواقب الأمور.

١٩- **الموانع أمور تحول بين المرء وقلبه وبين عبادة التدبُّر**، وكلما ابتعد المسلم عن التدبُّر، قسى قلبه، وقلَّ علمه، وزاد جهله، وخرج من الدنيا ولم يتذوَّق طعم طاعة من أجلِّ الطاعات، وقربة من آكد القربات. إنَّ جميع الآثار السلبية المترتبة على هجر التدبُّر في حياة الفرد والأمة، هي

من مخاطر الاستسلام للموانع والوقوع فيها.

٢٠- **إن التّرغيب في قراءة القرآن،** هو ترغيب في قراءة تدبُّريَّة واعية، لا يُقصد منها الحصول على الثَّواب والأجر فحسب، وإن كان الأجر والثَّواب مطلبًا ساميًا، لكنّه ليس الغاية، وهذا ما كان عليه سلف الأمة، فكانوا يتعلّمون العشر آيات لا يتجاوزونها حتّى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل.

٢١- **التَّدبُّر له آثار، أهمّها:** زيادة العلم والإيمان، وحصول اليقين، والسّجود والبكاء من خشية الله، وزيادة الخشوع، والقشعريرة خوفًا من الله تعالى، ثم غلبة الرّجاء والسّكينة. ومن آثاره أنّه من أسباب محبّة الله تعالى، وحياة القلب؛ إذ جعل مفتاح حياة القلب تدبّر القرآن.

٢٢- **تدبُّر القرآن** هو أعظم سبيل لنيل بركة هذا الكتاب العظيم، وتطلُّب هداياته.

٢٣- **أنَّ جميع الناس:** المؤمن والكافر مخاطبون بتدبر القرآن الكريم طلبًا لهداياته.

٢٤- **إن منهج السلف الصالح في تعلم القرآن وأخذه** هو المنهج الأمثل المحقق لمراد الله تعالى في هذا الباب، وإنَّ الخير الذي عاشه سلف هذه الأمة كان بسبب تمسُّكهم بالقرآن العظيم وتدبُّره والعمل به، ولن تصل هذه الأمة إلى العزِّ المجد المؤثَّل إلا بالسير على نهجهم، واقتفاء أثرهم بإحسان.

٢٥- **التدبُّر يحمي من الوقوع في وهدة الخطأ؛** لأنه يعتمد على أسسٍ وقواعد وأصول وضوابط وشروط في كل علم وفن ومعرفة، ولا ينطلق من فراغ.

٢٦- **التدبُّر يحمي الأمة من التردي والسقوط،** ويحمي شباب المسلمين من براثن الوقوع في الأفكار الضالة المضللة التي لا تتكئ على أسس لغوية وشرعية.

٢٧- **التدبر يفتح مغاليق العلوم المختلفة،** ويكشف عن أسرار الكون، وعن جميع الكائنات الصامتة والناطقة.

٢٨- **التدبر العميق** يحل الإشكالات بين كثير من المذاهب والأفكار المختلفة.

٢٩- **تدبُّر القرآن ليس صعبًا - كما يُتوهّم -** كما أنّه ليس مختصًّا بالمفسِّرين، فيمكن للمسلم الذي يقرأ القرآن أن يتدبَّره، وأن ينتفع بهداياته، والنّاس متفاوتون في ذلك.

٣٠- **الإعراض عن فهمِ القرآن وتدبُّره نوع من أنواع هجرانه.**

أبرز توصيات الباحث

من أبرز التوصيات التي أوصى بها الباحث ما يلي:

١- **لا يزال موضوع تدبر القرآن بحاجة إلى مزيد بحث ودراسة**، وخاصة في المنهج الأمثل للتدبُّر، وطرقه وأساليبه، ليتحقق الانتفاع بالقرآن، والعمل به، وما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب.

٢- **عمل موسوعة تتناول مراحل منهجية في تعلُّم التدبُّر**، لتساهم في تحويل الفهم النظري إلى واقع عملي ، مع إبراز دور التدبر في نهضة الأمة.

٣- **مشاركة أهل العلم وطلبته المعتنين بالتدبُّر في القنوات الفضائية**، ومواقع التواصل، ومجلات الدراسات القرآنية لمزيد نشر مشروع التدبُّر، ونقله من المعرفة والتنظير، إلى العمل والسلوك القويم.

٤- **وضع مناهج تدبُّرية ميسرة للقرآن في حلقات تحفيظ القرآن**، والمدارس النظامية، والنهوض بهذه المناهج لتشمل الحفظ والتدبُّر، وتواكب التّلاوة والحفظ.

٥- **ضرورة إقامة المؤتمرات والملتقيات القرآنية عن التدبُّر**، وتأصيله وتيسيره لجميع فئات الناس، ودعم وتشجيع المتطوعين في دعم ذلك.

٦- **إعداد خطة استراتيجية عملية**؛ لتعزيز ثقافة تدبر القرآن في مجتمعات المسلمين على اختلاف لغاتهم.

٧- **إنشاء قاعدة بيانات** تجمع المؤسسات والأفراد المعنيين بتدبر القرآن الكريم.

٨- **إنتاج برامج إعلامية،** أو مجلة متخصصة بالتدبُّر ودعمها، والاهتمام بشكل أخص بمواقع التواصل الاجتماعي.

٩- **وضع مناهج متخصصة في تدبر القرآن الكريم** من قبل الجهات التعليمية الأكاديمية.

١٠- **تقريب ثقافة التدبر،** ونشرها بالأساليب والطرق كافة، ودعم ذلك.

١١- **طبع ونشر الكتب والبحوث والرسائل العلمية المتخصصة بتدبر القرآن الكريم،** وتبسيط نشرها لوصول مضمونها لطبقات المجتمع كافة.

مجلة تدبر



تقرير مشروع القرآن علم وعمل

إعداد المشرف العام على المشروع
د. شريف طه يونس

تقرير عن مشروع «القرآن علم وعمل»

نشأة المشروع:

تتبعنا المنهج النبوي في التعامل مع القرآن الكريم، فوجدناه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوصي بلسان مقاله وحاله بأن يكون (العلم والعمل) هو منهج التعامل مع القرآن الكريم.

وأخبر الصحابة عن المنهجية التي تعلموا بها القرآن الكريم. فعن أبي عبدالرحمن السلمي: «حدَّثنا مَن كان يُقرئنا من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (عثمان، وعليٍّ، وابن مسعود، وزيد، وأُبَيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) أنهم كانوا يقترئون من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى؛ حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل. قالوا: فعلمنا العلم والعمل»[1].

لذا آثرنا تسمية المشروع بهذه العبارة «القرآن علم وعمل».

التعريف بالمشروع:

هو مشروع يهدف إلى إحياء المنهج النبوي في التعامل مع القرآن الكريم تعلما وتدبرا وعملا وتعليما، ويسعى لتقريبه وتيسيره على كل المستويات، لجميع المسلمين (كبارًا وصغارًا).

أبرز الأهداف:

١- **دعوة لترتيب الأولويات** واستثمار الطاقات في الأهم فالـمُهمِّ؛ في التعامل مع القرآن في ضوء مراد الله منَّا فيما يتعلق به.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٨/ ٤٦٦)، والطبري في تفسيره (١/ ٧٤)، وحسَّنه محققو المسند.

٢- **ينبه على أبعاد التعامل مع القرآن (العمل بالقرآن)؛** ولا شيء قبل العمل في الأهمية والأولوية، ولا شيء يغني عن العمل أو يشفع في تركه.

٣- **تسديد البنية الفكرية وإعادتها إلى ما يريده الله وما كان عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،** فتكون القراءة بالتدبر لتحصيل الإيمان وزيادة الدافعية للعمل.

٤- **أن يعرف كل مسلم طبيعة علاقته بالقرآن قبل الإقبال عليه قراءةً أو استظهارًا أو دراسة،** وأن يعلم ما ينبغي أن يبذله في سبيله، وهذا من شأنه أن يزيد المسلم إيمانًا بالقرآن وإقبالًا عليه وسدادًا في جهده المبذول له.

۞ رؤية مشروع «القرآن علم وعمل»:

أن يطبق كل مسلم في العالم - بإذن الله - المنهج النبوي في التعامل مع القرآن الكريم (بالعلم والعمل والإيمان)، ثم الوصول إلى (الرباني أو الربانية والخيرية)، وأن يتحقق الوصف في غضون عشر سنوات.

۞ رسالة مشروع «القرآن علم وعمل»:

إحياء المنهج النبوي في التعامل مع القرآن الكريم في كل ربوع الأرض من خلال القرآن، وباستخدام أحدث الوسائل، وذلك بتيسير تدبر القرآن واتباعه والانتفاع الأمثل به، وإعانة المسلمين على أن يكونوا من أهل القرآن، وتعليمهم كيفية القيام بحقوق القرآن، وتسديد العديد من المفاهيم والممارسات المتعلقة بالقرآن.

۞ شعار المشروع:

لما وجدنا الله يصف القرآن بأنه حياة؛ ولما وجدنا الله يخبرنا كيف تمكن الوحي من إحياء البشر وإصلاح أحوالهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور؛

فيقول تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]؛ رجونا أن يُحيينا الله بالوحي علما وعملا، وأن يخرجنا به من الظلمات إلى النور؛ فكان شعار مشروعنا «بالوحي نحيا».

۞ يرتكز عمل المشروع على محورين:

* **الأول: مفاهيمي (تأصيلي)**؛ لاستقراء المصطلحات التي تتناول طبيعة العلاقة بالقرآن وتحليلها وتسديدها وتيسير التحقق بها، من خلال رحلة قمنا بها على صفحات النسخة المسطورة من هدي الوحي (نصوص القرآن والسنة).

* **أما الثاني: فمهاري (تطبيقي)**؛ لاستقراء منهج (النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ) في التعامل مع القرآن الكريم، وطبيعة علاقتهم به، وتحليل هذا المنهج، وتقريب مهاراته للناس وتدريبهم عليه، من خلال صفحات النسخة المنظورة من هدي الوحي (سيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ «الأحوال»).

۞ النظرة المستقبلية للمشروع (طموحات وآمال المشروع):

يظل دوما الطموح الأكبر أن نرضي الله ويكتبنا من أهل القرآن، وهذا أهم ما إليه نسعى وإياه نتمنى؛ لعل الله يجود علينا بالمغفرة والرضوان والرحمة، ويكتبنا من أهل القرآن، ويتم علينّا النعمة.

ويمكننا تلخيص طموحاتنا وآمالنا ونظرتنا المستقبلية فيما تم عرضه في هذا التقرير تحت عنوان «التعريف بالمشروع»، مما يتعلق بأهدافنا التي نتمنى على

الله أن يعيننا على تحقيقها، ورؤيتنا التي نسأل الله أن يَمُنَّ علينا بتحققها، ورسالتنا التي نستعين الله في القيام بها على أكمل وجه.

لم يكن هذا المشروع أبدًا طرحًا نظريًّا أو كلامًا فلسفيًّا؛ بل - بتوفيق الله - ينبض بالواقعية، ويرسم لنا المعالم التطبيقية، ويأخذ بأيدينا إلى الخطوات العملية.

لم يكن المشروع وليد أيام أو حتى شهور، بل هو حصيلة ما يزيد على عشر سنوات من البحث والاطلاع والترتيب والهيكلة والبلورة، ثم التجارب الحية والأحداث الواقعية ممزوجة بالخواطر والتأملات، والفتوحات والاجتهادات. يعلم الله كم أخذ هذا المشروع من وقتنا وجهدنا وفكرنا.

الفئات المستهدفة من المشروع وبرامجه:

يستهدف المشروع - بفضل الله تعالى - كل فئات المجتمع المسلم تقريبا؛ مهما تباينوا في السن، وفي المستوى العلمي، أو في غيرهما؛ ويتجلى ذلك بوضوح في برامج المشروع، والتي نذكر أسماءها هنا، ولا يتسع المقام لتفصيل فيها.

أولا: البرامج الرأسية (الطولية).

١ . **تدبر الكلمات؛** مثل كلمة «تبارك».

٢ . **تدبر الجُمَل؛** مثل جملة «الخروج من الظلمات إلى النور».

٣. **تدبر الآيات:** في تعاملنا مع الآية في هذا البرنامج لا نهدف لمجرد تدبرها، وإنما نهدف لتدارسها تدارسا كاملا شاملا؛ لمعانيها تفهما وتدبرا واتباعا، ومبانيها تلاوة وتجويدا واستظهارا واستماعا، ولكيفية تعليمها والدعوة إليها. ونحرص على تحويل التعامل مع الآية القرآنية لعملية تعليمية

مكتملة الأركان؛ تشمل: تعلم العلم، وتعلم العمل، والتعاهد فيما تم تعلمه من العلم والعمل. ويتم في تلك العملية التعليمية مراعاة جميع مخرجات التعليم الكامل: المعرفية، والوجدانية، والمهارية.

٤. **تدبر المقاطع** (أكثر من آية تتحد في الفكرة أو الموضوع).

٥. **تدبر السور:** وهو برنامج نتعامل فيه مع السورة القرآنية كما لو كانت آية واحدة؛ لأننا نفترض أن السورة القرآنية (خطاب تعليمي كامل) يشتمل على موضوع واحد، أو موضوعات مترابطة، ويتضمن الجوانب المعرفية والوجدانية والمهارية المتعلقة بهذا الموضوع. وفي هذا البرنامج، نجتهد في تحديد موضوع السورة من خلال عشر آليات استقرائية كجزء من خطوة الفهم، ثم نحدد الوصية الرئيسية للسورة، ونشرع في تدبر السورة كوحدة واحدة، واتباع ما أوصت به.

ثانيا: البرامج الأفقية (العرضية)(١).

١. تدبر الآيات الكونية (في الآفاق وفي الأنفس)(٢):

لما تَتَبعنا ما جاء بشأن (الآيات الكونية المنظورة) في القرآن الكريم، خرجنا بمجموعة من الملاحظات، التي كانت نواة لتصميم بعض المنهجيات والآليات المساعدة على تمام الانتفاع بالآيات الكونية وحُسْن التعامل معها؛ فقمنا بإعداد برنامج لتدارس الآيات الكونية التي في القرآن، حيث لاحظنا أن تلك الآيات قد نَبَّه القرآن لمنهجيات في التعامل معها مثل (التفكر)، (والنظر)، فلا ينبغي أن تمر علينا مرور الكرام؛ لأنها فيها شواهد منظورة لمعظم المعاني الشرعية المسطورة.

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع النشرة التعريفية لمعهد (معهد العلم والعمل).

(٢) لمزيد من التفاصيل راجع النشرة التعريفية بمشروع (الآيات الكونية.. علم وعمل).

■ ٢. تدبر آيات الأمثال[(١)]:

لما استقرأنا الآيات المتعلقة بمنهجية التعامل مع الأمثال وواجبنا تجاهها، وجدناها تؤكد على أمور أبعد بكثير من مجرد فهم المثل ومعرفة معناه (كالتفكر)، (والاتعاظ)، (والاتقاء)، (والبلاغ)، وغيرها من المخرجات الوجدانية والمهارية، والواجبات العملية. لذا استعنا الله في إعداد برنامج يهدف إلى تحقيق كمال الانتفاع التعليمي والتزكوي بالأمثال، ويضع آليات تطبيقية تم استخراجها من القرآن والسنة؛ للقيام بواجبنا الكامل تجاه الأمثال.

■ ٣. تدبر آيات القصص[(٢)]:

القصص القرآني باختصار خطاب تعليمي كامل؛ يشمل المخرجات التعليمية كلها (المعرفية والوجدانية والمهارية)، ويُمَثِّل – لو صح التعبير – نسخة منظورة من وصايا القرآن المسطورة. ولما تتبعنا ما جاء فيما يتعلق بالقصص في القرآن الكريم، وجدنا مساحة كبيرة منه قد تم تخصيصها لمنهجيات التعامل مع القصص وآليات الانتفاع بها، بل لا نبالغ لو قلنا: إنه لا تكاد قصة قرآنية تخلو من التأكيد على منهجية التعامل معها وآليات الانتفاع بها، قبل عرضها أو بعده أو في ثناياه، فاستعنا الله في استقراء تلك المنهجيات وتَتَبُّع تلك الآليات في القرآن والسنة؛ ثم قمنا بتصميم برنامج للتعامل مع القصص، تفهما وتدبرا واتباعا وتعليما.

■ ٤. تدبر آيات السيرة النبوية[(٣)]:

وجدنا أن القرآن قد أفرد مساحة كبيرة للحديث عن تلك الأحداث كتلك التي أفردها للحديث عن غزوة بدر في سورة الأنفال، وتلك التي أفردها للحديث

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع النشرة التعريفية بمشروع (الأمثال.. علم وعمل).

(٢) لمزيد من التفاصيل راجع النشرة التعريفية بمشروع (القصص.. علم وعمل).

(٣) لمزيد من التفاصيل راجع النشرة التعريفية بمشروع (السيرة النبوية.. علم وعمل).

عن غزوة أحد في سورة آل عمران، وتلك التي أفردها للحديث عن حادثة الإفك في سورة النور وغيرها، فقمنا باستقراء وتتبع تلك الآيات؛ فلاحظنا ابتداءً أن مساحة الحديث عن (كل حادثة) كانت أقل بكثير من تلك التي في كتب السيرة، ثم لاحظنا أن مضمون الحديث قد تم فيه إبراز أمور والتغاضي عن أخرى، ولاحظنا أنه قد تم عرض (الأحداث) كخطاب تعليمي تم فيه مراعاة الأبعاد المعرفية والوجدانية والمهارية، فانتهينا إلى قناعة تُفْضي إلى أنه لا بد لمن أراد مطالعة السيرة أن يختم مطالعته لتدارس الحدث في كتب السيرة، بتدارس ما جاء في القرآن عن الحدث؛ لأنها يُمَثِّل الخلاصة وأهم العبر والدروس المستفادة، ويرسم خارطة انتفاع بالحدث في بناء الإنسان وتزكيته، ثم قمنا بتصميم برنامج لتدارس الآيات التي تناولت أحداث السيرة في القرآن تفهما وتدبرا واتباعا وتعليما، يسير جنبا إلى جنب مع ما جاء في كتب السُّنَّة والسيرة الصحيحة.

٥. تدبر آيات الأسماء الحسنى[١]:

لقد تناول القرآن الأسماء الحسنى بمنهجية أبعد بكثير من مجرد التعريف بها وتوضيح معانيها، وأرشد إلى منهجيات مهمة في التعامل مع الأسماء الحسنى، وآليات للقيام بواجباتنا تجاهها. وقد قمنا بتتبع واستقراء تلك الآليات والمنهجيات، وصَمَّمْنا برنامجا تطبيقيا لتدارس الأسماء الحسنى من خلال الكتاب والسنة تفهما وتدبرا واتباعا وتعليما؛ لنؤدي واجبنا تجاهها، ونقوم بما أمرنا الله به فيما يتعلق بها.

٦. تدبر آيات الإيمان والاعتقاد[٢]:

البعض يقتصر في تدارسه أو تدريسه لمسألة (النفخ في الصور) مثلا، على

(١) لمزيد من التفاصيل راجع النشرة التعريفية بمشروع (الأسماء الحسنى.. علم وعمل).
(٢) لمزيد من التفاصيل راجع النشرة التعريفية بمشروع (الإيمان.. علم وعمل).

مجرد التعريف بها وتناول الجانب العلمي المعرفي المتعلق بها، لكننا لما تتبعنا طريقة القرآن في عرض قضايا الإيمان والاعتقاد، وجدناه يعرضها كخطاب تعليمي كامل يتناول الجوانب العلمية أو المعرفية، والجوانب الوجدانية، بل والجوانب المهارية أو العملية؛ فيُنبِّه على ما ينبغي علينا فعله بعدما تعلمنا تلك المسألة واعتقدناها، بل هذا ما فعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما تناول هذه المسألة تعليما للصحابة؛ لذا استعنا بالله وقمنا باستقراء ما جاء في القرآن والسنة فيما يتعلق بالمنهجيات المثلى؛ للتعامل مع آيات الإيمان والاعتقاد، ثم قمنا بتصميم برنامج أسميناه «الإيمان علم وعمل»، يتناول الآليات الأكمل لتدارس آيات الإيمان والاعتقاد تفهما وتدبرا واتباعا وتعليما.

٧. تدبر آيات التزكية[١]:

لقد لاحظنا أن القرآن يستخدم كلمة «التزكية» ولا يكاد يستخدم كلمة «التربية» أو «التدريب»، ويستخدم كلمة «الإصلاح أو الخروج من الظلمات إلى النور» كثيرا، في الوقت الذي استخدم فيه كلمة «التغيير» مرتين فقط؛ كما استخدم كثيرا كلمة «الفلاح» بمشتقاتها، ولم يستخدم تقريبا كلمة «النجاح» مطلقا؛ فالقرآن باختصار كتاب يُثْمِر ما هو أكمل من التدريب والنجاح والتربية؛ (يُثْمِر الفلاح والتزكية)، ويهدف لما هو أكمل وأشمل من التغيير بكثير: يهدف إلى الإصلاح والإخراج من الظلمات إلى النور.

وليس هذا مقام البسط في الفروق بين تلك المصطلحات؛ لكننا نريد أن نؤكد على أن القرآن ليس فقط كتابا تنمويا أو تربويا أو تدريبيا، إنه أكمل كتاب تزكوي. ولا يقدم لدارسه فقط التغيير أو النجاح المبتور، بل يقدم له الفلاح والصلاح والخروج من الظلمات إلى النور.

(١) لمزيد من التفاصيل راجع النشرة التعريفية بمشروع (التزكية.. علم وعمل).

وقد لاحظنا أن القرآن حينما يتناول موضوعات التربية أو التزكية أو الإصلاح، يتناولها تناولا متكاملا: علميا وعمليا، تأصيلا وتفعيلا، بل يتناولها تناولا متفردا؛ لذا قمنا بحصر قضايا التزكية، والتربية، والتدريب، والتغيير، والإصلاح، والنجاح، وتتبعنا تناول القرآن والسنة لها، وأضحت لدينا منهجيات أو آليات تطبيقية نستخدمها في تدارس هذه القضايا تفهما وتدبرا وعملا وتعليما، فكان هذا البرنامج «التزكية علم وعمل».

٨. تدبر الموضوعات[١]:

في الوقت الذي يهرف فيه الغرب والشرق بتناولهم المتميز للقضايا الإنسانية والحضارية: كالعطاء، والرحمة، والسلام وغيرها، نجد التناول القرآني لتلك القضايا قد بلغ من السمو والرقي والكمال مبلغا لا يخطر لأولئك الزاعمين على بال، بل يكشف القرآن بتناوله الفريد لتلك القضايا حجم العوار الذي لدى أولئك الزاعمين الذين يشهد واقعهم بزيف ادعاءاتهم.

ولما استقرأنا تناول القرآن لتلك القضايا الإنسانية والحضارية، وجدناه قد تناولها تناولا كاملا (علما وعملا وتعليما، تأصيلا وتفعيلا، معرفيا ووجدانيا ومهاريا)؛ لذا قمنا بحصر القضايا الإنسانية والحضارية في القرآن، وتتبعنا تناول القرآن والسنة لها، وأضحت لدينا منهجيات أو آليات تطبيقية نستخدمها في تدارس هذه القضايا (تفهما وتدبرا، وعملا وتعليما)، فكان هذا البرنامج.

ثالثا: البرامج المصاحبة.

١- السُّنَّة علم وعمل (تدبر السُّنَّة)[٢]:

لما تَتبعنا ما أرشد إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من واجبات فيما يتعلق بسُنَّتِه

(١) لمزيد من التفاصيل راجع بحث (العطاء في القرآن)، وبحث (الرحمة في القرآن).
(٢) لمزيد من التفاصيل راجع النشرة التعريفية بمشروع (السُّنَّة.. علم وعمل).

كالوعي والاتباع والحفظ والتبليغ، وما وَصَّى به القرآن من واجبات كالاتباع والتحكيم والتصديق والنصرة وغيرها؛ تأكدنا أن تعاملنا اليوم مع (السُّنَّة) يعتبر تعاملا مبتورا، يختلف عما كان عليه سلفنا، ويقتصر على الرواية، ويُقَصِّر في الدراية والرعاية؛ لذا استعنا الله وقمنا باستقراء المنهجيات والآليات التطبيقية المتعلقة بالتعامل الأكمل مع (السُّنَّة)، وحُسْن الانتفاع بها، ثم قمنا بتصميم البرنامج.

■ **٢- نور الحياة (١)، (٢)، (٣)[(١)]:**

وهو برنامج تعليمي يهدف إلى التأهيل العلمي المكثف للمتدرب أو المدرب الذي ينتظم في برامجنا، فيما يتعلق بفرائض الأعيان، في ثلاثة مراحل:

* **الأولى:** خصصناها لمعالم الدين الكبرى: كالعلم، والعمل، والدعوة، وأركان المنهج، وأهمية القلب، وغيرها.
* **الثانية:** خصصناها لدراسة معالم وقضايا رئيسية في الانتساب لمنهج أهل السنة والسلف الصالح والتحقق به.
* **الثالثة:** خصصناها لدراسة كتابي «أصول الإيمان» في العقيدة، و«الفقه المُيَسَّر» في الفقه، وقد أعدهما مجمع الملك فهد، وقام بتحكيمهما مجموعة من العلماء.

رابعا: منهج المتدبر الصغير:

هو منهج يعتني بتعليم الأطفال القرآن وتربيتهم عليه، بمنهجية ترتكز على المنهجية التي عَلَّم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها أطفال الصحابة القرآن «الإيمان قبل القرآن»، أي: المعاني (تفهما وتدبرا وعملا) قبل المباني (تلاوة وضبطا وحفظا). وقد تم تحكيم المنهج من قِبَل الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم؛ وغيرها من

(١) لمزيد من التفاصيل راجع كتاب (العلم والعمل.. ألم وأمل).

المؤسسات، وحظي بتزكية كثير من المختصين في التربية، وحصل على المركز الأول على مستوى العالم - بفضل الله - كأفضل منهج تدبري. كما تم تحكيم البحث التأصيلي للمنهج وتجربته العملية، بواسطة المؤتمر الدولي الثاني لتطوير الدراسات القرآنية، وتم عرضه في المؤتمر، وطباعته ضمن أعمال المؤتمر.

۞ خامسا: برنامج «فإخوانكم»:

هو برنامج يهدف إلى الكفالة الإنسانية الأكمل (إيمانيا وبدنيا) لإخواننا الأيتام، انطلاقا مما جاء في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية (القولية والعملية)، ويعتني عناية أكبر بالكفالة الإيمانية (العلمية والعملية والخُلُقية والنفسية والروحية والوجدانية). لما سألنا ربنا عَزَّوَجَلَّ عن إخواننا الأيتام؛ كانت الإجابة تأكيدا على أنهم ينبغي أن يلقوا منا غاية التقريب والإكرام، وأن ننزلهم منزلة الإخوان والأرحام. قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

ولما تتبعنا القرآن والسنة وجدنا التأكيد على أن الرعاية الإيمانية والمعنوية لإخواننا الأيتام أهم من الرعاية البدنية والمادية، في الوقت الذي وجدنا فيه معظم جهود المسلمين في كفالة إخواننا الأيتام ورعايتهم منصرفة إلى رعاية الأبدان والكفالة المادية؛ فآثرنا أن نجعل شعار برنامجنا «الإيمان قبل الأبدان»، ومنه - إن شاء الله - تنطلق تحركاتنا في هذا الميدان، فلو اعتبرنا (أيتامنا إخواننا) كما وصانا الله؛ فإننا سنعتني بكفالة إيمانهم قبل عنايتنا بكفالة أبدانهم.

۞ سادسا: برامج إعداد «المعلمين والمعلمات» (حلقات مدارسة):

١. **برنامج إعداد معلمي ومعلمات** حلقات التدارس الجماعية للآيات والسور.

٢. **برنامج إعداد معلمي ومعلمات** منهج المتدبر الصغير.

٣. **برنامج إعداد معلمي ومعلمات** البرامج الأخرى (كل برنامج على حدة).

سابعا: برامج إعداد «المدربين والمدربات» (دورات تدريبية):

١. **برنامج إعداد** مدربي ومدربات الدورات التأهيلية.

٢. **برنامج إعداد** مدربي ومدربات منهج المتدبر الصغير «أكاديمية المتدبر الصغير».

٣. **برنامج إعداد** مدربي ومدربات البرامج الأخرى (كل برنامج على حدة).

تاريخ بداية المشروع:

عُمْر هذا المشروع يربو على عشر سنوات، تطور خلالها تأطيرا وتأصيلا حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن. بدأ بتجربة شخصية لمحاولة فهم طبيعة العلاقة بالقرآن الكريم وسبر أغوار مراد الله منا فيما يتعلق بكتابه؛ ثم محاولات شخصية لتطبيق التدبر والقيام بحقوق القرآن.

وبعد استقرار تلك المحاولات الشخصية وتأطيرها نسبيا، انتقلتُ إلى التجربة الجماعية. ولقد أصبح لدينا الآن – بفضل الله – تصور عملي كامل لحقيقة التدبر وأدواته ومستوياته وكيفية استثمار ثمراته، حتى أضحى مستوى الحلقات يختلف من حلقة لأخرى حسب المستوى العلمي والإيماني للدارسين والمدرسين، فلم يصبح التدبر اليوم حكرا على طائفة دون أخرى، ولم يعد حلما بعيد المنال.

وقد تحرر التدبر في مشروعنا – بفضل الله – لدى الشباب المسلم من أسر الهلامية، وتخلص من نَيْر النظرية، وأدى دوره كحلقة وصل وشرارة بدء في تجلية قضايا القرآن السلوكية والإيمانية والفكرية والتربوية والدعوية والعلمية والتنموية، وَوَلَّد الدافعية الكبرى لاتباع القرآن والحرص على القيام بحقوقه كاملة؛ حتى يتحقق المقصد الأكبر ويكون كل المسلمين أهلا للقرآن الكريم.

ولقد استطعنا بفضل الله وتوفيقه الوقوف عند الحد الفاصل بين ما يعتبر تركه تقاعسا، وما يعتبر الخوض فيه تجاوزا للحدود، فمجالس التدبر يديرها أخ ضابط لاعتقاد أهل السنة، ومدرك لأصول التفسير الضرورية، ومطلع على كلام أهل العلم في المسألة؛ لكي يسدد الأفهام ويحجزها عن الشطط والأوهام.

والدارسون يترسخ لديهم أنهم ليسوا مفسرين، وليسوا علماء من حقهم الاستنباط والقياس واستخراج الأحكام الفقهية، وبذلك يكون ربنا قد تفضل علينا بمِنَّة أخرى، وهي تجنيبنا ما يكون في هذا الباب من إفراط أو تفريط.

ولمطالعة التجارب الحية وتطور الفكرة والمراحل التي مر بها المشروع يرجى مطالعة نشرته التعريفية.

۞ الجهة المنفذة للمشروع:

يقوم على تنفيذ المشروع «معهد العلم والعمل»، وهو معهد نوعي تدبري للعلوم الشرعية، يهدف إلى إيجاد الشخصية المسلمة العالمة العاملة المبدعة التي يريدها الله، المتميزة في محرابي الصلاة والحياة، وصنع بنية تحتية قوية من الموارد البشرية تضيء الدنيا كلها بأنوار الوحي، ويسلك في سبيل الوصول لذلك إحياء منهج العلم والعمل وطريقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التربية والتعليم في ضوء تعاليم الوحي الشريف، وباستخدام أحدث الأساليب التربوية والتعليمية.

۞ الجهات الداعمة للمشروع:

لا يتلقى المشروع دعما ماديا من أي مؤسسة حكومية أو أهلية؛ لكن يتعاون القائمون عليه في كفالة أنشطته ماديا، ويعمل معظم المنتسبين لفرق عمل المشروع كمتطوعين محتسبين؛ لأن المشروع لا يهدف للربحية، ويقدم أنشطته مجانا، أو بسعر تكلفتها على أقصى التقديرات.

أما من ناحية التعاون العلمي والفني، فيتعاون المشروع مع كثير من المؤسسات المعنية بخدمة القرآن الكريم.

مشاركات المشروع:

لقد شارك المشروع من خلال مؤسسيه والقائمين عليه في كثير من الندوات والفعاليات والمؤتمرات المحلية والعالمية بفضل الله، ولعل أبرزها:

١. المؤتمر العالمي الأول لتدبر القرآن الكريم بقطر عام (٢٠١٣م)، والمشاركة بجلستين في المؤتمر حول المشروع الأم «القرآن علم وعمل».

٢. المؤتمر الدولي الثاني لتطوير الدراسات القرآنية، بالرياض عام ١٤٣٦هـ، والمشاركة ببحث محكم بعنوان «دور التدبر في تيسير وتحسين تعلم القرآن والعمل به لدى الأطفال».

٣. المؤتمر العالمي الثاني لتدبر القرآن الكريم بالمغرب (٢٠١٥م)، والمشاركة بكلمة تعريفية عن مشروعاتنا في ورشة العمل «برامج قرآنية مميزة». واستلام الجائزة الأولى في المسابقة الدولية التي أقامتها الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، في قسم المناهج عن منهجنا (المتدبر الصغير).

إنجازات المشروع:

أولا: في مجال إنشاء المؤسسات القرآنية:

أنشأ المشروع العديد من المؤسسات القرآنية النوعية غير الربحية ببعض محافظات مصر؛ ونذكر هنا أبرزها، وتعريفا مختصرا بها:

- ١. **مدارس «القرآن علم وعمل»:**

وهي عبارة عن مدارس قرآنية نوعية، للشباب وكبار السن من الجنسين، يتم

فيها تدارس القرآن بمنهجية (العلم والعمل والإيمان قبل القرآن).

- **٢. أكاديمية المتدبر الصغير:**

وهي أكاديمية نوعية، غير ربحية، تهدف إلى تربية الأطفال (بعد عمر السادسة «أطفال المدارس») على الإيمان والقرآن، وتزكية نفوسهم، بمنهج يرتكز على المنهجية النبوية في تربية الأطفال (الإيمان قبل القرآن)، مع الاستفادة من أحدث الأساليب التربوية والتعليمية المنضبطة.

- **٣. روضة المتدبر الصغير:**

وهي روضة نوعية، غير ربحية، تهدف إلى إلى بناء إنسان الإيمان والعمران؛ المتميز في محراب الحياة، ومحراب النسك والصلاة؛ من خلال تربية الأطفال (قبل عمر السادسة) بمنهج يرتكز على المنهجية النبوية في تربية الأطفال (الإيمان قبل القرآن)، مع الاستفادة من أحدث الأساليب التربوية والتعليمية المنضبطة.

ثانيا: في مجال التدريب:

- **١. التدريب الخارجي (الدورات التدريبية):**

جُمْلة مَنْ تم تدريبهم على برامج المشروع في الفترة الماضية لا يقل - بفضل الله - عن عشرة آلاف متدرب داخل مصر وخارجها، على تفاوت في عدد ساعات التدريب ومستويات المتدربين ونوعه، وقد كان عدد الحضور - بفضل الله - في بعض الدورات ببعض محافظات مصر يزيد على ٣٠٠ متدرب، بل إن عدد الحضور - بفضل الله - في دورة تدريبية مكثفة ليوم واحد في إحدى محافظات مصر قد زاد على ٥٠٠ متدرب.

- **٢. التدريب الداخلي (في مؤسساتنا):**

طلاب وطالبات مدارس «القرآن علم وعمل» ومعهد العلم والعمل، والذين

زاد عددهم في السنوات الماضية – بفضل الله – على ٨٠٠ طالب وطالبة في فروع المدرسة المختلفة في بعض محافظات مصر، وكذلك طلاب وطالبات أكاديمية «المتدبر الصغير» في فروعها المختلفة ببعض محافظات مصر، والذين زاد عددهم على ألف طفل وطفلة – بفضل الله – وحده في العامين الماضيين.

- **ثالثا: في مجال التوعية:**

١. **يعتني المشروع بإحياء المنهج النبوي في التعامل مع القرآن ونشر ثقافة التدبر بين جماهير المسلمين،** وتوعيتهم إلى أهمية ذلك، وذلك من خلال إصدارات ورقية توعوية، ومقاطع صوتية ومرئية كسلسلة «رسائل الفجر»، وسلسلة «القرآن من جديد»، وسلسلة «لا تسودوا وجهي»، وسلسلة «تباريح قلبية قرآنية» وغيرها.

٢. **بالإضافة إلى بعض الدورات التوعوية المكثفة للجماهير،** والمحاضرات، والدروس القصيرة، وخطب الجمعة، والمتابعة الإلكترونية من خلال خدماتنا على: الواتس أب، والتليجرام، والفيس بوك وغيرها.

٣. **وتم تنظيم مؤتمر جماهيري ليوم واحد بعنوان «المنهج النبوي في تعليم القرآن الكريم (التحديات والآليات)»؛** وكان يهدف إلى تعريف الجماهير بالمنهج النبوي في التعليم القرآني ودعوتهم لتطبيقه.

٤. **وهناك فِرَق توعوية تعمل بين قطاعات خاصة من الجماهير:** كفريق «حاملات القرآن» بالجامعات والمدارس، والذي يهدف لتوعية طالبات الجامعات والمدارس من خلال إصدار مجلات ونشرات ومسابقات ومحاضرات قصيرة وغيرها.

■ **رابعا: في مجال الإصدارات المكتوبة:**

١. **أصدر المشروع العديد من الكتب والرسائل، نذكر منها هنا:** كتاب «النشرة التعريفية بمشروع (القرآن علم وعمل)»، كتاب «النشرة التعريفية بمنهج المتدبر الصغير»، كتاب «رحلة البحث عن أهل القرآن»، كتاب «بالوحي نحيا»، كتاب «المنهج النبوي في تعليم الأطفال القرآن»، كتاب «سورة النصر علم وعمل»، كتاب «سورة الفلق علم وعمل»، كتاب «سورة العصر علم وعمل»، كتاب «الآية الثانية من سورة الملك علم وعمل»، كتاب «تدبر القصص»، كتاب «رحلة اكتشاف ما يقدمه لنا القرآن»، كتاب «حقوق القرآن»، كتاب «مدارس العلم والعمل لأهل القرآن»، كتاب «العلم والعمل، ألم وأمل»، كتاب «الميلاد الجديد»، كتاب «سباق المحبين»، كتاب «أسعد أيامي».

٢. **بالإضافة إلى إصدارات المنهج المتعلقة بالأطفال:** ككتب منهج المتدبر الصغير: الرسالة القرآنية، كن أترجة، كن أحسن الناس عملا، رحلة اكتشاف ما يقدمه لنا القرآن، رحلة البحث عن أهل القرآن، وغيرها الكثير.

٣. **وكذلك الإصدارات الداخلية** كالمواد التعليمية الخاصة بتدريب المعلمين والمدربين وغيرها.

■ **خامسا: في مجال الإصدارات الصوتية والمرئية:**

١. **أنتج المشروع** العديد من الإصدارات والسلاسل الصوتية والمرئية للجماهير وللمتدربين وللمدربين.

٢. **ويشرف المشروع على إنتاج مقاطع فيلمية تدبرية منضبطة شرعيا؛** كفيلم «الصندوق»، والذي تم ترشيحه للمشاركة في برنامج «قمرة»، وتم عرضه

ضمن حلقات البرنامج في رمضان الماضي.

سادسا: في مجال الأنشطة الإلكترونية والتفاعلية:

١. تقديم الخدمات التالي:

* خدمة بالوحي نحيا (على الواتس أب).
* خدمة بالوحي نحيا (على التليجرام).
* صفحة بالوحي نحيا (على الفيس بوك).
* قناة بالوحي نحيا (على الساوند كلاود).
* قناة بالوحي نحيا (على اليوتيوب).
* وجاري تجهيز موقع بالوحي نحيا.

٢. الشروع في إنتاج ألعاب إلكترونية تعليمية تفاعلية لأطفال أكاديمية المتدبر الصغير.

عناوين للتواصل مع المشروع:

١. للتواصل مع المشرف العام على المشروع: د. شريف طه يونس:

* رقم الهاتف المتنقل الدولي والواتس أب: ٠٠٢٠١١٤٢٥٧٣٨٨٠
* البريد الإلكتروني: Together4thebest@gmail.com

٢. للتواصل معنا عبر خدماتنا وقنواتنا على الإنترنت:

* خدمة بالوحي نحيا (على الواتس أب): ٠٠٢٠١١١٤١١٦٧٦٠
* خدمة بالوحي نحيا (على التليجرام):

https: / /telegram.me /wahynahia

❊ صفحة بالوحي نحيا (على الفيس بوك):

/https: / /www.facebook.com /wahynahia

❊ قناة بالوحي نحيا (على الساوند كلاود):

https: / /soundcloud.com /rouhalhayat

❊ قناة بالوحي نحيا (على اليوتيوب):

https: / /www.youtube.com /channel /UCsK6xahNEpNvb738zwsYC8A

٣. يمكنكم تحميل أحدث نشرة تعريفية بمشروع «القرآن علم وعمل» (سبتمبر ٢٠١٦)، وأحدث نشرة تعريفية بمنهج المتدبر الصغير (سبتمبر ٢٠١٦) من خلال الرابط التالي:

http: / /www.mediafire.com /?69jty217efru8

مجلة تدبر



ثالثًا: تقارير المؤتمرات العلمية

المؤتمر الدولي القرآني الأول

توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة

نظمت كلية الشريعة وأصول الدين بجامعة الملك خالد بأبها بالمملكة العربية السعودية المؤتمر الدولي القرآني الأول، بعنوان «توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة». وذلك في مدينة «أبها» بالمملكة العربية السعودية، ثلاثة أيام: من الأحد إلى الثلاثاء (١٥-١٧ محرم ١٤٣٨هـ)، الموافق (٢٨-٢٩ أكتوبر ٢٠١٦م).

أهداف المؤتمر:

١. **ربط الأمة بكتاب الله تعالى** مصدر تلقيها وسبيل نجاتها وطريق عزها وسعادتها في الدارين.

٢. **إبراز دور القرآن الكريم** في علاج المشكلات المعاصرة.

٣. **النهوض بالدراسات القرآنية**؛ لتؤدي دورها في علاج القضايا الإسلامية المعاصرة، والإسهام بالنهوض الشامل للمجتمع.

٤. **توظيف طاقات الباحثين وجهودهم** في علاج المشكلات المعاصرة.

٥. **إبراز دور** المملكة في خدمة القرآن الكريم وعلومه.

محاور المؤتمر:

- **المحور الأول: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات الاعتقادية والفكرية:**

دخل تحت هذا المحور:

١- الخلل في التعامل مع مصادر التلقي وفهمها.

٢- المادية الإلحادية.

٣- التكفير بين الإفراط والتفريط.

٤- الفهم الخاطئ للحرية والمساواة.

٥- اهتزاز الثقة بالهُوية الإسلامية.

٦- التشكيك في الثوابت.

- **المحور الثاني: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات السياسية:**

ويدخل تحت هذا المحور:

١- واجبات الراعي والرعية بين الإفراط والتفريط.

٢- فصل السياسة عن الدين.

٣- الخلط بين مبدأ الشورى الإسلامية والديمقراطية الغربية.

- **المحور الثالث: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات الاجتماعية:**

ويدخل تحت هذا المحور:

١- ضعف التواصل والتكافل الاجتماعي.

٢- المشكلات الأسرية.

٣- دعوات تفكيك المجتمعات الإسلامية (المذهبية، الطائفية...).

٤- مشكلات الشباب.

٥- مشكلات المرأة.

- **المحور الرابع: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات الاقتصادية:**

ويدخل تحت هذا المحور:

١- التساهل في التعامل مع المال العام.

٢- سوء الإنفاق.

٣- أكل المال بغير حق.

٤- الفقر.

٥- البطالة.

- **المحور الخامس: توظيف الدراسات القرآنية في علاج مشكلات مفهوم الجهاد:**

ويدخل تحت هذا المحور:

١- الفهم الخاطئ لمفهوم الجهاد وضوابطه.

٢- مفهوم الإرهاب وتطوره.

٣- الاعتداء على الدماء المعصومة.

- **المحور السادس: توظيف الدراسات القرآنية في علاج مشكلات التعلم والتعليم:**

ويدخل تحت هذا المحور:

١- التقليل من شأن العلماء، وأثرهم في الأمة.

٢- العزوف عن العلم الشرعي.

٣- الفصل بين العلم والعمل.

٤- ضعف مخرجات المؤسسات التعليمية.

٥- ضعف الاجتهاد والإبداع العلمي.

۞ بحوث المؤتمر:

■ محتويات المجلد الأول:

* التشكيك في الثوابت (الوحي القرآني أنموذجًا)

- د. حمادي هواري

* منهج الشيخ ابن عثيمين في توظيف التفسير لعلاج المشكلات المعاصرة

- د. حسن بن علي بن منيع الشهراني

* معالجة مشكلة الاستبداد في ضوء الدراسات القرآنية

- د. محمد أمين مقراوي

* دورة القيادة الناجحة في معالجة الانحراف الفكري في ضوء القرآن الكريم

- د. عبد المحسن أحمد محمد علي

* مقاصد القرآن في رعاية المال العام وأثر ذلك في علاج الفساد المالي

- د. محمد رشيد أبو غزالة

* التصحر مشكلة تصدى لها القرآن الكريم

- د. عبد الشافي أحمد علي الشيخ

* المنهج القرآني في علاج مشكلة الفساد

- د. أنس سليمان المصري النابلسي

* منهجية القرآن في علاج مشكلة المرأة (حقوق الزوجة نموذجًا)

- د. محمد شافعي مفتاح بوشية

* معالجة التفكك الأسري بهداية القرآن الكريم في ضوء سورة التحريم

- ذاكر دمير

❊ مشكلة النشوز وكيف عالجها القرآن

– أ. د. عبد الفتاح محمد خضر

❊ الهدي القرآني في التعامل مع وسائل التواصل الاجتماعي

– د. أحمد مصطفى محمد منصور

❊ المنهج القرآني في علاج مشكلات الشباب الاجتماعية المعاصرة

– د. أحمد حامد محمد سعيد

■ **محتويات المجلد الثاني:**

❊ العنف الأسري وسبل علاجه في ضوء القرآن الكريم

– د. مفرح بن سليمان القوسي

❊ علاج البطالة في ضوء القرآن الكريم

– د. حسين عبد العال حسين محمد

❊ النشوز بين الزوجين (دراسة قرآنية)

– عبير بنت مشبب محمد أحمد آل جعال الأحمري

❊ هدي القرآن الكريم في معالجة انحراف الأبناء من خلال قصتي ابن نوح وأبناء يعقوب عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ

– د. محمد بن سعيد بن خلوفه العجلان العمري

❊ ترشيد الإنفاق من منظور قرآني

– د. عبد الله بن حسين العمودي

❊ **تحرير مصطلح الجهاد قرآنيًّا**

- علي محمد أسمر أبو شحادة

❊ **توظيف الدراسات القرآنية في الوقاية من التطرف والإرهاب**

- د. عبد الرؤوف أحمد بني عيسى

❊ **الجهاد في القرآن الكريم نظريات في المقاصد والعلل**

- د. عبد الرحمن بوكيلي

❊ **علاج القرآن الكريم لسفك الدماء المعصومة (دراسة موضوعية)**

- د. توفيق بن علي زبادي

❊ **الإرهاب بين الدفع والطلب والاعتداء في ضوء القرآن الكريم**

- د. غزوة بنت عابس محمد الشهري

❊ **أسباب الإرهاب والعلاج القرآني لها**

- د. إسماعيل طاهر محمد عزام

❊ **توظيف الدراسات القرآنية في علاج ضعف مخرجات المؤسسات العلمية**

- محمود أحمد العسكري

❊ **منهج القرآن الكريم في تعظيم العلم وأهله وأثر ذلك على المجتمع**

- د. أحمد بن فارس السلوم

❊ **مشكلات التعلم وعلاجها في ضوء سورة الكهف**

- د. سعيد بن محمد بن سعد الشهراني

محتويات المجلد الثالث:

* التصوير القرآني لمشكلات الشباب الاجتماعية (أسبابها وعلاجها)

- د. عبد الرحمن محمد رضوان حرش

* الدراسة المصطلحية لألفاظ القرآن الكريم وأثرها في إقامة الفهم وتقويمه

- د. عبد الواحد الوزاني

* الحركة الإلحادية في بنغلاديش (أسبابها وظواهرها وعلاجها في ضوء القرآن الكريم)

- د. محمد معين الدين

* علاج القرآن للتساهل في حق الحياة

- د. جمال عبد اللطيف الأمير

* أكل المال بغير حق (أسبابه وعلاجه في ضوء الكتاب العزيز)

- د. ديارا سياك

* القيم القرآنية الحاكمة لبناء أسرة المكارمة ودورها في علاج العنف الأسري

- د. حميد مسرار

* الحلول القرآنية في التعامل مع المشكلات الداخلية

- د. دلهوم لخضر

* وظيفة المرأة من خلال القرآن الكريم

- أنيسة الكركاري

* مصطلح الكفر في الخطاب القرآني وإشكالية المفهوم والمعاصرة

- د. محمد الأمين محمد سليلا

وفيما يلي أهم توصيات هذا المؤتمر القرآني المبارك - ببركة القرآن الكريم

أولًا: يوصي المؤتمر برفع برقية شكر وتقدير لخادم الحرمين الشريفين الملكِ سلمان بن عبد العزيز آل سعود - حفظه الله ورعاه -، ولحكومته الرشيدة على الموافقة الكريمة على إقامة هذا المؤتمر، وبرقيةٍ شكر أخرى لصاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن خالد بن عبد العزيز - حفظه الله - أمير المنطقة لرعايته للمؤتمر.

ثانيًا: يتوجه المؤتمر بالشكر الجزيل لجامعة الملك خالد ممثلة في معالي مديرها الأستاذ الدكتور/ فالح بن رجاء الله السلمي -وفقه الله - ووكلائه الكرام، واللجنةِ التنظيمية برئاسة سعادة وكيل الجامعة للشؤون التعليمية والأكاديمية، ومسؤولي الجامعة كافة، ولكلية الشريعة وأصول الدين، وقسم القرآن الكريم وعلومه، على استضافة المؤتمر والإعداد المميز له، وحسن التخطيط والتنظيم، والذي لقي استحسانَ كلِ من حضر المؤتمر وشارك فيه وسمع عنه - ولله الحمد والمنة -.

ثالثا: يوصي المؤتمر جامعةَ الملك خالد باستمرار انعقاد المؤتمر دوريًا كل ثلاث سنوات، على أن يعالج كل مؤتمر منها موضوعًا من الموضوعات المهمة التي تحتاجها الأمة، ويُقترح أن يكون المؤتمر القادم بعنوان: «القرآن الكريم وبناء الحضارة».

رابعًا: يوصي المؤتمر جامعةَ الملك خالد بتأسيس مركز بحثي في كلية الشريعة وأصول الدين يُعنى بعلاج المشكلات المعاصرة من خلال الكتاب والسنة.

خامسًا: يوصي المؤتمرُ باعتماد مادة القرآن الكريم مقررا دراسيا على جميع الطلاب في المرحلة الجامعية على اختلاف تخصصاتهم، كمتطلب جامعي؛ لما

له من أثر عظيم في التكوين العلمي والثقافي والتحصيني. ولعل جامعة الملك خالد التي رعت هذا المؤتمر القرآني أن تسنّ هذه السنة الحسنة ليكون لها أجرها وأجر من يعمل بها.

سادسًا: يوصي المؤتمرُ القائمين على وسائل الإعلام بتكثيف البرامج القرآنية، مع الحرص على البرامج التي تلامسُ الواقعَ وتعالجُ مشكلاتِ أمتنا المعاصرة من خلال القرآن الكريم، كما يحث العلماء والباحثين المتخصصين في القرآن وعلومه على المبادرة الإيجابية وتقديم برامج إعلامية متنوعة، مع التركيز على الوسائل الجديدة المؤثرة، والحرص على إبراز هدايات القرآن الكبرى ومقاصده العظمى.

سابعًا: يوصي المؤتمرُ بتأسيس بوابة إلكترونية تجمع الباحثين في الدراسات القرآنية من مختلف الجامعات والكليات والأقسام العلمية المتخصصة في القرآن الكريم وعلومه وما في حكمها في العالم الاسلامي، من أجل التعاون وتبادل الخبرات للارتقاء بالبرامج التعليمة، وتنسيق الجهود البحثية وتبادل الخبرات، إضافة إلى جمع نتاجهم البحثي في مكان واحد.

ثامنًا: يوصي المؤتمر القائمين على التعليم في العالم الإسلامي بالاهتمام بمناهج التعليم من حيث اشتمالُها على أسس راسخة ومبادئ ثابتة مستمدة من الكتاب والسنة، تحصن الأجيال الناشئة من الانحراف بمختلف صوره الفكرية والسلوكية، وتسهم في حل المشكلات التي تواجههم في مجالات الحياة كافة. مع التوصية بالتركيز على المقررات المتعلقة بالقرآن الكريم وعلومه، وخاصة مقرر التفسير الموضوعي؛ لما له من أهمية في إبراز الهدي القرآني في معالجة المشكلات.

تاسعًا: يوصي المؤتمر الأقسام العلمية بتوجيه طلاب الدراسات العليا بالاهتمام بالبحوث التي تعالج المشكلات المعاصرة في ضوء هدي الكتاب والسنة، وجعل ذلك من أولويات البحث العلمي.

عاشرًا: يوصي المؤتمر بجمع ما اشتملت عليه البحوث التي قُدمت في هذا المؤتمر من توصيات ومبادرات عملية، ونشرها على أوسع نطاق، مع تكليف لجنة لمتابعة هذه التوصية.

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

Tadabbor Magazine

العَدَدُ الأَوَّل السَّنَة الأُولى مُحَرَّم ١٤٣٨هـ المُوافِق أُكتوبر ٢٠١٦م



Tadabbor Magazine

It's a periodical scientific precise magazine. It is concerned with refereeing and publishing research and scientific studies which are related to fields of interpretation of the Holy Qur'an. This magazine is being issued twice a year.

Vision:-

This magazine should be researchers' first choice to publish their researches which are related to interpretation the holy Qur'an.

Mission:

This magazine should be precise scientific pot for researchers to publish their scientific works which related to interpretation the holy Qur`an according to international professional criteria for publication.

Target:-

- Encouraging scientific research which is related to interpretation of the holy Qur`an.
- Publishing scientific research and studies which are related to interpretation on the holy Qur`an.
- Applying a scientific communication between those concerned with Qur`anic studies through the exchange of experiences.

- Opening new horizons for a scientific research which is specialized in the fields of interpretation the holy Qur`an.

Publishing fields in the magazine:-

First: Research and studies in the fields of interpretation the holy Qur`an:

- Scientific Rooting in Interpretation of the Holy Qur`an.
- Qur`anic Topics.
- Qur`anic Purposes.
- The Inimitability of the Holy Qur`an.
- Qur`anic Rhetoric.
- Teaching Interpretation of the Holy Qur`an.
- Deduce from the holy Qur`an.

Second: Forums and conferences reports which are related to the interpretation of the holy Qur`an.

Third: Abstracts of the outstanding scientific researches in the fields which are related to the interpretation on the holy Qur`an.

Fourth: The issues raised by the Editorial Board for which asks the specialists in the fields related to the interpretation of the holy Qur`an.

Terms and Conditions of Publishing

First: The nature of the published materials:

The magazine aims to provide an opportunity for researchers in all countries around the world to publish their scientific production in the field of the interpretation of the holy Qur`an. This field is authentic and serious, and has the ethics of scientific research and scientific methodology.

The magazine publishes materials which were never previously published in the Arabic language and accepts the materials in any of the following categories:

- The Old research.
- Scientific reviews.
- Abstracts of outstanding scientific thesis.
- Reports of forums and scientific conferences.

Second: Guidelines for researchers to submit their researches:

1. Research's pages number must not exceed (50) pages, size (17*24), including Arabic and English summaries and references and not less than 25 pages.
2. Page margins should be 2 cm from the (top, bottom, right, and left) a single line spacing.

3. (Lotus Linotype) is the font to be used for Arabic with size (16), size (12) for footnote and abstract and size (11) for tables and shapes.

4. (Roman New Times) is the font to be used for English with size (12) and size (10) for footnote, abstract, tables and shapes.

5. Qur`anic verses should be written in accordance with the copy of the Holy Qur`an on the King Fahd Compiler for Printing the Holy Qur`an with size (16), plain-colored (non-blackish).

6. Footnotes on each page should be put in the bottom separately. Footnotes' numbering of each page is independent and footnotes are adjusted automatically not manually.

7. Research data is written in Arabic and English, and should include (research title, researcher's name, title and his/her contact information, and titles of his/her previous scientific thesis).

8. The abstract's number of words must not exceed (250) words. It must include the following elements: (subject of research, its objectives, its methodology, the most important results and the most important recommendations) and taking care of editing accurately.

9. Each abstract (Arabic/English) is followed by function words (key words). These words should indicate the subject of research and main issues included accurately,

so that its number not exceeding (6) words.

10. The research should be free of any linguistic and/or grammatical mistakes.

❊❊❊

Research Elements

The researcher regulates his research in accordance of (scientific research methodology) as follows:

1. Writing an Introduction contains: (subject of research, its borders, its objectives, its methods, its procedures, and research plan).
2. Indicating the previous studies - if available - and his scientific addition on.
3. Dividing research into sections (subjects) according to (the research plan), so that they are related to each other.
4. Displaying a specific idea in each section (subject) to be a part of the central idea.
5. The research is written in an accurate scientific formulate. This formulate is free from linguistic and/or grammatical mistakes with the accuracy of the documentation.
6. Writing a conclusion with summary for the research which includes (results) and (recommendations).
7. Writing the underlying footnote by mentioning (the book's title, author's name, and part / page) by the applicable scientific approach in documenting the Islamic studies and the Arabic language. Example: Tongue of Arabs by Ibn Manzor (233\2). Qur`anic verse: it is referred to only in the text with the name of the chapter, followed by a colon: then the verse number (Al-Nisaa`:55).

Researcher should be documenting the references at the end of the research according to the following order:

1. If the reference is a book: (<< the title of the book>> Author’s last name (nickname) then the first name and other names, the name of examiner - if available - , then edition statement, the city of publishing, publisher’s name then the year of publication. Ex: <<Al-Game`Al-Sahih>> .Al- Tirmidhi, Abu Issa Mohamed Ibn Issa. Examining by: Ahmad Muhammad Shakir and others. 2nd Edition, Bairut: Dar Ehyaa` Al-turath Al-Arabi, 2004 AC.

2. If the reference (a scientific thesis not printed): (<< the title of the thesis>>. then Researcher's last name (the family name), then the first name and other names. Then, the type of thesis (Master | Ph. D.). The place: the name of the college, the name of the university, and then year). Example: << Jacob bin Shaybah Alsodosi: his implications and approach in the wound and the amendment(Aatharih wa manhagih fi Al-Garh wa Altadeel >>. Al-Mutairi, Ali bin Abdullah. Master Thesis, Saudi Arabia: College of Education, King Saud University, 1418 AH.

3. If the reference (an article of the magazine): (<< the title of the article >>, Author's last name (family name), then the first name and other names, then the magazine or Journal name, the place , hardcover number (editions number), the year of publication, the page from .. to ..). Example: << Imam Affan bin Muslim Al-SSaffar and his method of receiving, performance and criticism>>.

Al-Mutairi, Ali bin Abdullah. Qassim University Magazine: Islamic science, Qassim. (3), (1), 1431 AH, 35-85.

4. In addition to the mentioning of some abbreviations that have not such a statement in the reference data, which are as follows:

- Without the name of publisher: (W. P).
- Without the edition number: (W. P).
- Without the date of publication: (W. D).

– Reasearcher should mention resources at the end of research according to the following:

– Sending a research site to the magazine is considered to be an undertaking by the researcher that the research has not been published before, neither it was submitted for publication, and will not be submitted for publication as well, until the end of arbitration proceedings in the magazine.

– The editorial board of the magazine has the right of the initial examination of the research, and reports his eligibility for arbitration, or rejects it.

– The researcher acquainted with the summary of arbitrators' reports for consideration and adjusts accordingly. He explains his opinion whereas it is not objected with their words and the body settled the dispute between them.

– In the case of (the acceptance of the research for publication), a message is sent to the researcher about (the acceptance of the research for publication). When the

research is rejected for publication, a message is sent as (an apology) for the researcher.

- The researcher, after the publication of his works in the magazine hass the right to publish it again after six months of its issuance, but He must refer to the publication of his work in the magazine.
- Sending a research via magazine's website is considered as an acceptance from the researcher of the terms of publishing in the magazine, and the Editorial Board has the right to determine the priorities of research publishing.
- The opinions which are expressed in the published researches reflect the views of the researchers only, and not necessarily the opinion of the magazine.
- The Certified authentication system for foreign references in the magazine is the system of (Chicago University).
- In case of publishing the research, the researcher is given two copies of the magazine and also ten copies of the edition, which his research was published in.
- Published scientific articles in the magazine reflect the views of its owner.

❊❊❊

TADABBOR MAGAZINE

Index

1) Researches:

2) The Abstracts of Scientific Thesis and Projects:

3) Reports of Scientific Conferences

- The 1st Quranic International Conference (Using Quranic Studies in Resolving Contemporary Issues)

4) Summaries in English Language:

❊❊❊

Research abstract

Inimitability of Holy Quran According to Abdul Hamid Bin Badees. (Compilation & Studying)

By: Nabil Bin Ahmad Balhy.

Qur'an is an immortal scientific miracle indicates to its divine source, Ibn Badis plied in deduce the aspects of Quraan's miracles during his explanation.

During the time when the fascination with west's materialistic civilization became more common, Ibn Badis plied to enhance the confidence in the faithful's hearts with the book of God and its Sciences.

This research aimed to combine the scattering opinions about the miracle of the Qur`an and its sides coupled with its applied examples in this divine world.

It displayed its integrated view of this kind of Qur`anic sciences, and it has been adopting to achieve this analytical inductive method.

Its explanations were extrapolated and its ideas and expressions relating to the miracle of Qur'an were analyzed. It was the most important results: Ibn Badis was a connoisseur of arts of the miracles of the Qur`an.

He has a balanced holistic view for the sides of the miracles of the Qur`an. He recruited this knowledge in breeding generations on Qur`an's foundations.

So it was the most important recommendations: the need to discuss the issue of miracles in the Qur'an upon the reformers scientists from the (Algerian Muslim Scholars Association); and its role in the Islamic renaissance and the reform of the nation.

It is an important aspect was not given the right of research and analysis.

Key words:

Ibn Badis, The inimitability of the Holy Quran, terms of the miracles, the rhetoric miracle, the scientific miracle.

❊❊❊

Research abstract

Rhetorical Questioning in The Light of The Holy Quran

By: Prof. Ismail Sa'ed Rodwan.

This research titled (Rhetorical question in the light of the Holy Qur`an), which is one of the eloquence of the Qur'an Sciences, a part of the formation section of it, used in non-query Interrogative purposes and has been studying in the framework of analytical descriptive approach.

The research has preface, during which the review of the importance of the subject, the reasons for its choice, the study's objectives and its purpose, prior studies, researcher's approach and the research plan.

The research is divided into three sections: Whereas the first section treated the concept of Rhetorical question, which is defined as a compound term by defining each meaning separately; the lexical and contextual meaning.

It mentioned what was written by the authors in their works of Qur`anic sciences, Arabic language's experts on this delicate subject, and as well as the knowledge of how the Qur'an displayed this exact topic.

It was found that applied examples of the rhetorical question in the Qur`an exceeded hundred and fifty positions.

The second section, discussed examples about the rhetorical question in addressing the disbelief people; who are from bygone

nations, Polytheists of the Arabs, the People of the Book and the hypocrites.

The third section, Examples of the rhetorical question was mentioned in addressing the people of faith; who includes the angels the prophets and the believers.

Conclusion showed seven results and three recommendations, and, has been back to seventy-one references.

❊❊❊

Research abstract

The Devine Rules for the Universe and Society in The Holy Quran (Kind-Spoken & Insights).

Dr. Rasheed Kohous

The Divine Sunan are the Qur`an's philosophy for the universe and the life. And, it's a balance that gives you knowledge about Nations and civilizations; Nation's life are not upright unless it understands these cosmic and social Divine Sunan, its life is accorded and adapted to it.

If the nation turned away from that and lost its way out of ignorance, or heedlessness, or carelessness, or stubbornness and arrogance, it inevitably will face the same fate of the fold and it will face its punishment without failure or favor.

Research Targets:-

- Emphasizing on the importance of the subject of Divine Sunan and its position in the Qur`an.
- Definition of the cosmic and social Divine Sunan.
- Highlighting the observance of Divine Sunan in nation's life.

Research Methodology:

This research does not out from the scope of the Qur`an; it is an objective study only from the Book of Allah . It adopted the inductive, analytical and deductive approach; by keeping track

of Qur`anic verses which related to Divine Sunan, then analyzed it by the adoption of the sayings of the interpreters, deduce the meanings and connotations, and what the verses guide to.

The most important search results:

The Qur`an brought out the Divine Sunan, showed its importance in the life of individuals, nations, and civilizations; and the impact of care of it.

The Divine Sunan including those related to the universe (this kind out of the human will and choice), There are those which related to human behavior - his movement in society and history - and legitimate eligibility. These types are linked to each other and they cannot be separated.

The Failure to observe Divine Sunan in human life has harmful impacts on the human; whether he is individual or group or nation or civilization.

Research Recommendations:-

Inclusion of the subject << Divine Sunan >> within the study courses in the universities of Islamic sciences and its colleges.

Customize university thesis at colleges and Islamic institutions to study of divine sunan in the Holy Qur`an; through theorization and application.

Key words:

Interrogative - denial - Holy Qur'an - negation - reprimand - exclamation.

Research abstract

The Devine Rules for the Universe and Society

in The Holy Quran (Kind-Spoken & Insights)

The Chapter of Al-Nasr, is a Science and Deeds.

Dr. Sherif Bin Taha Youssuf

Research topic:

(The chapter of Al-Nasr) is a science and deed, meditative applied study for (the chapter of Al-Nasr), using project's methodology (the Qur`an is a science and deed), which based on the approach of the Prophet methodology in dealing with the Holy Qur`an.

Targets:-

Activating what has been rooting in the project (the Qur'an is science and deed) with regard to the methodology of the Prophet in dealing with the Qur'an; (with science and deed); to bring the matter of understanding and reflection on the Qur'an, work on it, do its rights, full utilization of it , and help Muslims on the Full utilization of (the chapter of Al-Nasr) in particular (with science and deed) as an example in this way.

Methodology:-

I have not adopted only one approach in this study; because the nature necessitated in some sections adopting an inductive method more and in others adopting analytical method.

That's although it may be rare that one of Study sections or chapters has been limited to one approach, but in total the inductive method has the largest share, followed by the analytical one.

I cared about matters that serve the understanding, reflection and application directly, even the sections which related to explanations and Qur`anic sciences that we displayed.

We displayed it from an objective side emphasizing on its scientific and applied reflection. It was Used the maps, designs, and diagrams to summarize and highlight many points.

Planning:

The study came as introducing as prepared to research, three sections, and reinforcing conclusion, then The conclusion came with the most important results and recommendations.

We tried in this study to show a set of important requirements and answer a series of questions related to the full and complete consideration of the chapter of Al-Nasr, with knowledge and deed, rooting and activation.

Those things has been summarized in the (intention), (methodology), (importance), (mechanism), (realistic models) and (continuity).

The most important results:

This study proved the ability (the approach of knowledge and

deed) to apply on the chapters of the Holy Qur`an.

The prophet's sunnah full of meditative and applied prospects regarding the Qur`anic verses and chapters.

Prophetic dealing with the Quraan has been deeper and more complete than just doing the rights of buildings from reading, intonation and save the story of the chapter.

And that the short buildings chapters as a chapter of victory, God has included preaching meanings that a person needs to reform his life and afterlife.

The most important recommendations:-

1. the necessity of adopting the integrated approach of the Prophet in Qur`anic Education: (faith and the Qur'an, knowledge and deed) in Qur`anic education institutions, circulated it, and training of workers in the Qur`anic education institutions on its assets and rules, and to invite the Muslim masses to return to it.
2. Exert more effort for the chapters and the verses which Muslims used much. They are frequently repeating these verses in their life these days; because they are easy to approach and include the treasures which people needs to be near to them.
3. Necessity to raise Muslims' awareness (with rooting and activation) with necessity of reading Prophetic Sunnah to know about meditative and applied prospectors for

Qur`anic chapters and verses; emphasizing on that studying of the chapter (Sura)should not be limited on what stated in the explanation books because that leads to the purpose of (scientific education), but the practical education (with Interpretation and Following) is the most important.

Key words:-

Victory – interpretation - science – deed - Method – sunnah (ways of life).

❊❊❊

TADABBOR MAGAZINE

Periodical, Scientitic and Arbitral Magazine specializes in arbitration and dissemination studies and searches related to Holy Quran, biannual issued

The first issue, the first year, Muharam 1438 AH, Approved in October 2016 AC

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

(ص: ٢٩)

TADABBOR MAGAZINE Index:

